الكتاب الذهبى



حتى يعود القمر

بقلم محمود السعدنى

الثمن ١٥ قرشا



حتى يعود القمر

الفصل الأول

لفظنى القطار عند منتصف الليل فى محطة الاسماعيلية ومضى ، والقلة القليلة من الركاب تفرقوا فى الشوارع القريبة واختفوا ، وبدا لى من النظرة الاولى للمدينة انها أقرب ماتكون الى مدينة خربانة ومهجورة ، والمحطة هى الاخرى كانت خالية تقريبا الا من شيال عجوز راح يهرش جلده السميك وهو يقفز حولى ويتثاءب فى خمول عارضا خدماته متشبثا بالحقيبة اليتيمة التى كانت تتأرجح فى يدى لشدة الهزال • وعندما خطفها الشيال العجوز ورفعها الى كتفه أحسست أنه ينوء فعلا بحملها •

فقد كان الرجل شاحبا هزيلا مقوس الساقين كأنه حيوان غريب !

ومضيت خلف الشيال أتطلع الى الشوارع والبيوت التى

يسند بعضها بعضا على الجانبين ، وكانت رغم قدمها وقبحها تحتفظ بطابع أصيل لم أره من قبل • وهـــزنى جدا أننى فى مدينة غريبة واننى وحدى وفى منتصف الليـل ، وفى مغامرة صحفية مثيرة • وكان أكثر ماهزنى معنى خطر فى نفسى ،فهأنذا الآن ولأول مرة ، أجرب أن أكون مسئولا ، وليست مسئوليتى تافهة مثل غيرى من البشر ، فأنا لست مسئولا عن طفل وزوجة ومصاريف بيت ، ولكننى مسئول عن فترة من التاريخ ، وأناهنا مندوب من جريدتى فى القاهرة لأصوغ هـــذه الفترة بقلمى ، ولأخوض المعركة الناشبة فى القناة بمدفع يطلق مدادا •

تلك اذن هى مسئوليتى ، وأنا بعد فى الثالثة والعشرين وان كان منظرى يوحى بأننى لم أزل فى الثامنة عشرة !

وانتزعنى من تأملاتى صوت الرجل العجوز الذى كان يحجل أمامى كأنه غراب •وأدركت اننى لم أنتبه اليه وهو ينحرف نحو اللوكاندة ،واننى سرت مع تأملاتى الى نهاية الشارع ،واللوكاندة تقع فى منتصف الطريق ، وعدت بسرعة خلف الرجل العجوز، ووضعت على وجهى قناعا من الحزم والعزم لأبدو ـ كما ينبغى أن أكون ـ رجلا مسئولا عن فترة من فترات التاريخ • ولـكن هذا القناع لم يشفع لى عند صاحب اللوكاندة • فعندما القيت عليه السلام ، أخرج رأسه من تحت العباءة فى تؤدة شديدة كأنه سلحفاة ، وقال فى غير اهتمام :

ـ سلام يابنى ••

وهزت كلمة يابنى أعماقى ، وأطارت القناع من فوق وجهى فبدا عاريا مكشوفا لصبى فى الثالثة والعشرين غير مسئول • حتى عن نفسه !

وبلعتها ، وسألته عن حجرة مناسبة ، فهز رأسه أسفا ،وقال فى نفس اللهجة الهادئة الرتيبة •

ـ عندى سرير فاضى فى أودة ..
ـ فيها حد ؟
ـ واحد يونانى

وألقيت نظرة خاطفة على الساعة المعلقة فوق رأسه ، كانت تشير الى الواحدة تماما ، والدنيا شتاء ، والجـو برد ، والريح نشطت فى الخارج ، فقلت على الفور :

ـ زى بعضه ..

وانتزعت من جيبى بضعة قروش دسستها فى يد الشـيال العجوز . وبدون أن يكلف نفسه عناء النظر اليها ، استدار الى الخلف وراح يزحف الى الشارع .

ونهض صاحب اللوكاندة وصعد السلالم أمامى ، وأمرنى أن اتبعه ، وتوقف عند الدور الثالث ، ثم اتجه الى حجرة وطرق بابها فى رفق أول الامر ، ثم فى ضجة بعد ذلك . وعندئذ انفتح الباب ، وأطل علينا رأس شاب وسيم رغم التكشيرة التى بدت عليه ، ولم يدر بين الرجلين حوار ما ، دفع الرجل العجوز الباب ، ثم ألقى بحقيبتى فوق السرير لينصرف :

ـ قاعد كام يوم ؟
ـ مش عارف
ـ طيب الصبح تكتب اسمك وعنوانك .

وأغلق الباب .. ومضى .

ووقفت وسط الحجرة حائرا لا أدرى ماذا أصنع ، ونظـرات اليونانى الحادة الملتهبة تكاد تشطرنى وتحرقنى . وقلت له وأنا أحاول أن أكون ظريفا أولا وغير مهتم بنظراته ثانيا :

ـ فيه شماعات فى الدولاب ؟

ولكنه لم يرد . نظر الى مرة أخرى ، ثم تمدد عـلى سريره ، وسحب الغطاء عليه ، وتركنى أدبر الامر وحدى

وهممت بالخروج من الحجرة ، والفندق كله ، ولكن شجاعتى

خانتني ، فألقيت بجسمي المتعب على السرير . ووضعت الشنطة تحت رأسي ، وحملقت في السقف وأشعلت سيجارة ، ورحت أنفث دخانها على حلقات في جو الحجرة الخانق الدافيء اللذيذ ! وارتسمت على شفتي ابتسامة باهتة لهذه النهاية الغريبة لرحلة اليوم المثيرة . لم يكن يخطر على بالي وأنا أركب القطار الى الاسماعيلية انني سأقضي ليلتي على فراش قديم في حجرة ضيقة يقاسمني فيها يوناني متعجرف قليل الذوق .

والرحلة نفسها لم تكن كما اشتهيت فأنا أحب ركوب القطارات في الليل ، ولي مقدرة عجيبة على النوم في القطار وهو ينهب الارض وضجيج عجلاته يتصاعد الى السماء . والسفر نفسه هو هوايتي الوحيدة في الحياة ، فما أجمل أن ينتقل الانسان من بلد الى بلد دون أن يستقر . ليس أبغض الى نفسي من الاستقرار ، الاستقرار للجماد وللجثث وليس للانسان الحي !!

ولكن هذه الرحلة كانت مهببة وفي سواد الكحل ، كان القطار خاليا الا مني وخمسة من ضباط البوليس في طريقهم الى الاسماعيلية ، لتعزيز قوات بلوكات النظام التي تقاتل الانجليز في المدينة . وبدأ الحديث بيننا عن المعركة ، وتشعب الى غيرها من الامور ، ثم مضى وقت طويل ، والقطار ينطلق في الصحراء كأنه أبرة تنفذ في كوم رمل ، فنام بعضنا ، وسرح البعض الآخر ثم فجأة توقف القطار !

ولم يتوقف كعادة القطارات عندما تتوقف قبل المحطة ، ولكنه توقف فجأة كأنه اصطدم في جدار ، أو انقلب في حفرة ، أو خرج عن الخط وغاص في الرمال . ونهضنا نحن الستة .. وسبقنا أحدنا فنظر من النافذة ، ثم هتف على الفور

ـ انجليز ..

ومر صمت كئيب علينا بعد ذلك . فلم ينبس أحدنا بحرف . وظل بعضنا واقفا ، وجلس البعض الآخر . ماذا يريد الانجليز من القطار ، ولماذا يوقفونه ، وهل سينتهى الامر على خير ! أم الى سوء لم نكن نتوقعه !

وقال ضابط كبير السن والرتبة معا ، وهو يتفرس فى وجوهنا جميعا :

ـ ماتخافوش ، ماحدش يتحرك من مكانه .

وطمأنتنى كلماته ، فقد كانت نبرات صوته هادئة مطمئنة .. وفتحت فمى على اتساعه كى أبدو لهم سعيدا وغير مهتم وقلت له وأنا أتصنع الشجاعة :

ـ همه هيعملوا ايه ؟

ورد فى كلمتين اثنتين ، وفى سرعة عجيبة :

ـ مش عارف .

وارتعشت أسنانى فجأة رغم أن النوافذ كلها كانت مغلقة . وارتعش بدنى كله عندما أحسست بوقع أقدام الجنود الانجليز ، تدب على أرضية القطار بغلظة وغطرسة وقحة . وانفتح باب الديوان فجأة وبعنف ، ووضعت يدى على قلبى اشفاقا على نفسى من المفاجأة . ولكن المفاجأة التى حدثت فعلا كانت أعجب وأغرب ، اذ اقتحمت الديوان امرأة شقراء كالقمر ، شعرها أحمر فى لون الشاى ، وجهها حلو اذا نظرت اليه لاتستطيع أن ترفع نظرك الى شىء آخر .

كانت المرأة مضطربة ، واضطرابها زادها جمالا وأضفى عليها لونا صارخا من الفتنة . وبعد أن توقفت وسط الديوان تتفرس فى وجوهنا ، اتجهت من فورها الى الضابط الكبير الذى كان يجلس فى وقار الى جانب النافذة ، وقالت وفى صوتها لكنة غريبة .

ـ الانجليز فى القطـار ، هل أسـتطيع الجلوس معـكم أيها السادة .

ونهض الضابط الكبير على الفور ، وقال وهو يقـدم مكانه للسيدة ذات الشعر الاحمر :

ـ تفضلى يا سيدتى . انك هنا فى أمان ..

ولوى شعرها الاحمر عنقى فلم أعد أرقب شيئا فى الديوان سواه . ووضعت على وجهى قناعا زائفا من الوقار كما هى عادتى كلما التقيت بامرأة جميلة . وقلت وأنا أحاول أن أبدو فى جلد الأسـد .

ـ بيعملوا ايه الانجليز فى القطر ؟

وردت فى بساطة وفمها يقطر شهدا :

ـ بيضربوا الناس ..

وارعشت كلماتها ركبتى ، فأنا أواجه حكما بالاعدام وأنا فى منتهى الثبات ، ولكنى أتهاوى أمام الضرب ، خصوصا اذا كان الذى يضربنى جنودا مدججين بالسلاح !!

وجلست مكانى صامتا أتتبع المناقشة التى تدور فى الديوان دون أن أعى حرفا منها ، كان عقلى سارحا فى شىء آخر . غريب ومضحك فى آن واحد . جلست أتخيل المعركة التى ستنشب عما قليل ، وأرسم صورة فى خيالى للجنود الذين سينهالون على جسمى بالضرب . والاماكن التى ستصيبها اللكمات والركلات ومددت يدى دون ارادة فوضعتها على قلبى ، فأنا أخشى أن تصيبنى لكمة فى قلبى فأموت . وأنا بصراحة أخشى الموت ، أخشاه كما لا أخشى شيئا فى الوجود . وأتمنى أحيـانا بينى وبين نفسى لو أن الله جل جلاله أصدر قرارا واحدا خـلال الدهـــر كله ، باستثناء عبد واحد من عبيده بالبقاء حيا الى يوم القيامة ، وليكن هذا العبد المحظوظ هو أنا !!

ولكن هل يموت الانسان من القلب فقط ؟ ان الضرب على الرأس أخطر بكثير من الضرب فى القلب ، والضرب على الكليتين يؤدى حتما الى الوفاة . وحزنت لانى لا أملك الا يدين اثنتين، أستطيع أن أحمى بواحدة قلبى وبالاخرى رأسى .. والكليتان لهما الله ..

وبدا من صوت أحذية الجنود وهى تطرقع على الممـــر الذى يتوسط القطار انهم يقتربون منا . ثم ارتفعت أصواتهم تلعـن وتسب ثم انفتح الباب بشدة ، وامتد الينا سونكى لامع ، ثم تبع السونكى كرش ، وتبع الكرش رجل غليظ الوجه كأنه خنزير، بارد النظر كأنه سمكة ميتة ، وجاء خلف الرجل الغليظ السمين

عشرة جنود تتدلى من أكتافهم مدافعهم ، وبين أصابعهم تشـع بطاريات ضخمة بخيوط قوية من النور .. وكانوا بملابـس الميدان ، حتى الخوذات كانت تخفى رءوسهم ، وفوق الخوذات أغصان شجر وشباك من خيوط صفراء ، كأنهم على أبواب معركة العلمين ، ، ومضت لحظات طويلة وسيل الجنود لاينقطع ، حتى

ضاق بهم الديوان ، وراح كل منهم يرطن باللغـة الانجليزية ، وبلهجة اسكتلندية وفوهات مدافعهم مصوبة نحونا ، وأصابعهم تتحرك فى عصبية على الزناد .. وشخط الرجل السمين الذى كان يتقدم جيش الانجليز :

ـ وقوفا .. كلكم .

ونهضت قبل أن يتم الرجل كلامه ، وأدركت عندما نهضت واقفا على قدمى انه ضابط وعلى كتفه تناثرت ثلاث نجوم باهتة لاتلمع .. لانها من قماش . ونظرت حولى ، فوجدت الجميع وقوفا مثلى عدا الضابط الكبير السن والرتبة .. وتوقعت من نظرات الضابط الاسكتلندى شرا ، وتوسلت الى الله أن يهدى الضابط

الكبير رفيق الديوان سواء السبيل فيقف ، وكفى الله المؤمنين شر القتال !

ومرت لحظات قصيرة صامتة ، تخللتها نظرات سريعة محمومة لامعة بين الضابط الواقف والضابط الجالس ، وانتهت هذه اللحظات بشخطة من الضابط الواقف .. وبعنجهية تركى مملوك :

ـ قف .. أنت ، أيها الجالس ..

ولكن « أيها الجالس » لم يقف ، هز رأسه فى هدوء ، وقال فى غير اهتمام :

ـ أنا أرفض الوقوف أيها الكابتن ، وعليك أن تلاحظ أننى جنرال ..

كان يتكلم بانجليزية سليمة ، وبلهجة راقية ، وبنبرات ثابتة هادئة ، وكأنه جنتلمان فى حفلة راقصة . وأحسست بالفخر وزايلنى خوفى الشديد ، ووقفت أرقب فى شغف شديد نتائج المعركة بين ضابط انجليزى برتبة كابتن ، وضابط بوليس مصرى برتبة جنرال .

وأغمض الكابتن الانجليزى عينيه ، كانت جفونه عريضة وغليظة فبدت عندما أغلقها وكأنها ستارتان أسدلهما شخص خفى على نافذتين صغيرتين . ومضت لحظات والكابتن الانجليزى مغلق العينين ، وطرف لسانه يظهر ثم يختفى بين شفتيه المضمومتين فى حركة عصبية ، ثم فتح عينيه فجأة ، وكف عن تحريك لسانه ، ثم قال فى نفس اللهجة الوقحة :

ـ ولكننا ـ رغم كل شىء ـ سنفتشك ياجنرال !!

وأحسست بالراحة والطمأنينة لنطقه كلمة « جنرال » .. فمادام اعترف أن الضابط الجالس جنرال ، فلابد أن المعركة ستمضى الى نهاية مرضية .. على الاقل بالنسبة لى أنا !

وعندما انتهى الضابط الانجليزى الكابتن من هذه العبارة ،

تقدم الجنود منا ففتشونا فى همجية وفى عنف ، ثم تقـــدم الضابط الكابتن من الضابط الجنرال ففتشه فى رفق وبسرعة .

وعندما انتهوا من مهمتهم بدأ الجنود يغادرون الديوان ، وفى النهاية نظر الينا الضابط الانجليزى المغرور ثم قال فى أدب شـديد :

ـ معذرة أيها السادة ، هذه هى الاوامر ..

ثم انحنى .. وخرج ..

وبعد أربع ساعات طويلة كاملة وسط الصحراء وفى ظـلام دامس لايبدده الا شعاع خافت باهت رفيع من كشـاف فى يد الضابط الانجليزى ، سمح الانجليز للقطار بالتحـــرك الى الاسماعيلية .. ولكن لماذا أوقف الانجليز القطار هـذا الوقت الطويل ، مع أن تفتيشنا لم يستغرق أكثر من دقائق ؟

سؤال وجيه طرحه الضابط الكبير علينا ، ولكن أحدا منا لم يرد فلم نكن بعد قد افقنا من الذهول الذى استولى علينـا .. وتولى كمسارى القطار الرد على سؤال الضـــابط الكبير ، ففى العربة الاخيرة من القطار جماعة من الصـعايدة فى طريقهم الى الاسماعيلية ، كانوا فى طريقهم الى هنـاك ربما للعمـــل فى معسكرات الانجليز ، أو للخطف من معسكرات الانجليز ، أو لبيع الاطعمة والملابس على العمال فى معسكرات الانجليز ، المهم أنهم وفدوا من النجوع والكفور والقرى فى أعماق الصـــعيد يجذبهم جميعا أمل واحد ، الانجليز فى القنال ..

ولكن هؤلاء فوجئـــوا ـ وهم لا يزالون بعد فى الطـــريق الى الاسماعيلية ـ بالانجليز يقطعون عليهم الطريق ، ويسددون اليهم فوهات المدافع ، وعندما أمرهم الضابط الانجليزى باشارة من يده بالوقوف ، لم يفهموا المقصودبالضبط ، فخلعوا ملابسهم ظنا منهم أن الضابط يأمرهم بذلك ، وعندما بدأوا فى تفتيشهم

داسوا بأحذيتهم الضخمة على قفف العيش وصفائح المش التى معهم ، وكان بين الجمع المحتشد فى العربة الاخـــيرة ، صعيدى شاب عدد قتلاه يزيد على أصابع اليد الواحدة ، متوحش عاش حياته كلها فى الجبل الغربى قبل أن يجذبه ذهب الانجليز فى القنال ٠٠ هذا الصعيدى الشاب عندما بدأوا فى التفتيش داسوا على قفة عيش هى كل مايملك لرحلته العجيبة الى الاسماعيلية ، وعندئذ طاش صوابه فقبض على زمارة رقبة الجندى الذى داس على القفة ٠ وعبثا ضاعت كل المحاولات لتخليص رقبة الاسكتلندى القصير المعود من أصابع الصعيدى الفولاذية ، وعندما بدا لهم أنه شىء يشبه المستحيل أن يفكوا رقبة الانجليزى من يد الشاب الصعيدى ، تكفل الضابط بحل المشكلة فأفرغ رصاص مسدسه فى رأس الشاب ٠٠

كان الكمسارى يحكى القصة وكأنه يقرأ حادثة فى جريدة ، رغم أنه كان من شهود الحادث ، كان يحكى الحادث بلا اهتمـام ولا انفعال ، كأنه شاهد محايد فى مشاجرة بين طفلين ٠

وسألت الكمسارى وقد تحركت فى نفسى غريزة الصحفى

ـ اسمه ايه الصعيدى ؟

ورد فى غير مبالاة وهو يستعد للخروج من الديوان ٠

ـ حد عارف اسمه ايه ، تلقاه اسمه حميده ، حد عارف !!

وانتزعت قلمى ودونت الحادث على ورقة ودسست الورقة فى جيبى ، ثم قلت وانا أحاول أن أمزق الصمت الذى ران علينا :

ـ أول شهيد من شهداء المعركة ٠٠

وفجأة ، قطع حبل تفكيرى شريكى فى الحجـــرة ، اليونانى الوسيم ٠ وقد قفز من فراشه فى عصبية بالغة ، واتجه كالقذيفة نحو زر النور واطفأه دون ان يستأذن ، ثم لعن سنسفيل جدودى بلغة أثينا ، وعاد الى فراشه ، وتمدد فيه ونام ٠٠

وفكرت لحظات فيما يجب على أن افعله تجاه اليونانى الوقح الذى أعلن سخطه بصراحه وحدد موقفه منى بلا رياء ..
هل انهض من فراشى وأجره من قدمه واصفعه على قفـــاه والقنه دروسا فى الادب والاخلاق ؟

ولكن من يدرينى لعله أقوى وأصلب وربما لكمنى على رأسى فافقدنى وعيى . وأعصابى التى مزقها حادث القطار لم تعـــد تستطيع مواجهة خناقة من هذا النوع ..
اذن ، هل أنهض من فراشى وأضيىء الحجــرة فاذا احتج استخدمت فصاحتى فى تلقينه درسا فى الادب والسلوك ؟

ولكن حتى هذا لم أكن قادرا على تنفيذه ..

فاكتفيت بالتقلب على الفراش والتحديق فى الظـــلام ، ثم ابتسمت عندما تذكرت الرعب الذى تملكنى فى القطار ، ياهل ترى اكتشف الذين كانوا معى اننى كنت أشد ذعرا من أرنب ، واكثر حذرا من غراب .. والمرأة ذات الشعر الاحمر فى لون الشـاى ، هل راقبتنى أثناء المعـــركة ؟ . وهل اكتشـــفتنى واحتقرتنى وهل أثرت انتبـــاهها ، هل تركت فى نفســـها أثرا ؟

لقد تعمدت أن أعلن عن شـخصيتى أمامها عندما ســالت الكمسارى عن اسم الصعيدى القتيل . فأنا أعرف أن عندالنساء ضعفا أمام كل من يستطيع أن يحقق لهن وسائل الظهور عـــلى اى نحو !!

ولقد كان لقائى بالمرأة المهلبية فرصة ذهبية لأحقق حلمـــا من أحلامى . فما من قصـــة كتبت عن صحفى ، وما من رواية اخرجتها السينما عن حياة صحفى ، الا وفيها قصة حب . قصة حب عنيف سريع ملتهب تنتهى دائما بالفراق !! فوقت الصحفى

ليس ملكه ، مادام هناك من يصنع الاخبار ، ومادام هنـــاك من ينتظر قراءتها !!

ولقد تحقق معى جزءان من القصه · البداية والنهاية ، اللقاء والفراق ، التقينا وافترقنا دون قصة حب !! ومن يدرينى ؟ لعل جميع الصحفيين الذين جابوا الارض شرقا وغربا حدث لهـــم نفس الشىء ، وأضافوا قصة الحب دون علم الطرف الآخر !!

وهأنذا الآن ، صـــحفى بائس ، على سرير خشـــن ، وفى حجرة أشبه بالزنزانة وزميلى اليونانى يرتفع شخيره الى الجو · والفجر على الابواب ، والمدينة غارقة فى الصـــمت والانجليز خارجها يطوقونها ويسدون مداخلها ، وفى الصباح تبدأ الدوامة تدور ، وأدور معها فى كل اتجاه ، حتى أدوخ !

وخطفت نظرة على اليونانى الممدد كالسمكة المشوية فـــوق الفراش ، ثم القيت نظرة على الساعة ، كانت الرابعة صباحا ، وصياح الديكة يرتفع من فوق أسطح البيوت ، وصوت احتكاك عجلات الكارو على رصيف الشارع يتصاعد من بعيد ، ورائحة الصباح بدأت تعبق فى الجو · وعيناى أصبحتا مثقلتين كأنهمـــا محشوتان بالرمل ·· ورأسى راح ينبح كأن مطارق من صـــلب تسحق عظام رأسى من الداخل ··

ومددت يدا مرتعشة وسحبت الغطاء على رأسى ورحت فى نوم عميق !!

ولم أنم طويلا ··

افقت من نومى فى الصباح على حلم مزعج ، رأيت نفسى أعبر شريط السكة الحديد والمساء فى أوله أو فى آخره ، ولون الكون اسود فاتح ان صح هذا التعبير وقطار الديزل السريع يتحرك نحوى فى سرعة النفاثة ، وخلق كثيرون يتصايحون على مقربة

منى ، ويزدادصياحهم ، وترتفعأصواتهم ، وتنطلقهذهالاصوات كأنها الرعد !

وقمت مذعورا وانا الهث ، والعرق يتصبب على وجهى كأننى كنت فعلا فى معركة مع القطار ، وأصوات كالرعد تتصاعد الى السماء وتهز نافذتى فى عنف . وأصخت السمع الى الصوت الذى كان يهدر كموج البحر ، كانت أصوات جموع حاشدة تهتف « الموت للانجليز » وكلنا شهداء المعركة ..

وألقيت نظرة على الفراش الآخر .. كان خاليا ولم يكن اليونانى هناك .. ويبدو أنه لن يكون هناك على الاطلاق ، بدت الحجرة عارية تماما ، وليس فيها أثر يدل عليه ..

ونهضت من فراشى متثاقلا ، والقيت نظرة على الساعة كانت التاسعة صباحا ، وأنا أحس فى نفسى جوعا الى النوم ، جوع قاتل جعل رأسى يتضخم كالبطيخة البلدى ، وعينى كأنهما محشوتان بالرمل .. وفتحت النافذة والقيت نظرة على الجموع الحاشدة التى كانت تتظاهر فى الشارع .. كانوا خليطا من الحفاة العراة وبعض الافندية يقودون المظاهرة ، والناس الآخرون فى الشارع يتفرجون عليهم فى بلاهة وبلا اهتمام ، ولم يلبث المتظاهرون ان مضوا الى نهاية الشارع ثم انحرفوا ناحية اليمين واختفوا وخفتت أصواتهم ، وعاد الهدوء الى الشارع من جديد ..

وأغلقت النافذة وارتديت ملابسى على عجل ، ونزلت وثبا الى الشارع ..

كان الصباح جميلا والشمس تتطلع على الجدران وخمانة كسلانة ، لاتتحرك الا ببطء ، وان تحركت فلكى تفر الى الشقوق الكثيرة العميقة التى كانت تزين حيطان البيوت فى شوارع الاسماعيلية ، ولم يكن بالشارع أحد فى مثل هذا الوقت ، حتى

المحلات كانت نصف مغلقة نصف مفتوحة ، وعساكر البوليس فى خوذاتهم الصفيح ، وعصيهم الشوم يقطعون الطريق فى تثاقل ، ويجرون أقدامهم من شدة الاجهاد ، وبعض الرجال يسعون الى أرزاقهم كل منهم متقوقع فى همه ، والمعركة الناشبة على الأبواب ليست على باله ، انه لا يذكرها الا كلما انفتحت فوهات المدافع تطلق النار ، ثم لا يلبث ان ينساها كلما كفت المدافع عن اطلاق النار !!

ووجدت نفسى فجأة أمام مكتب حمزة بك عبد المقصود ، أحد الاثرياء اللامعين فى المدينة ، ورجل السياسة الذى شهد له كل الناس بالدهاء ، والبرلمانى الذى دخل مجلس النواب فى كل مرة ، وفى كل مرة يكون نائبا لحزب آخر .. : هو دائما حزب الحكومة ، وصاحب الاعمال الذى يربح من ورائها الملايين ، وينفق من ورائها الملايين ، يشترى الألسن والاقلام والقلوب أحيانا فأنت لا تعدم ان تجد رأيا عاما يؤيده ويحبه ، يحبه باعتبار أنه فهلوى وابن بلد ، وانه ينهب أموال الانجليز !

سألت عن حمزة بك قالوا انه غير موجود ، انه فى اجتماع فى فندق « بالاس » وتطوع الرجل الذى استقبلنى عند الباب بتوصيلى الى الفندق ، وقبلت معونته شاكرا ، وسرت الى جواره نقطع شوارع الاسماعيلية فى صمت ، قطعه هو بسؤالى عن البلد الذى جئت منه ، ثم عن مهنتى ، ثم عن اسمى ، وبعددقائق كان يعرف كل شىء عنى ، وعندئذ بدأ يخاطبنى باسمى مجردا ، كأننا صديقان منذ الطفولة ..

وعندما جاء ذكر حمزة بك فى الحديث وصفه بأحط الاوصاف ، ودهشت ، فكيف يعمل عنده وهذا رأيه فيه ؟ وعندما أفصحت له عما يدور بخلدى ، قال مستنكرا :

ـ أنا مابشتغلش عنده ، أنا كنت هناك بأسأل عنه بس دا راجل جبان ..

كان رفيق رحلتى الى فندق بالاس شابا فى الخامسة والثلاثين اضاف اليها الاجهاد عشرة أعوام أخرى ، بدت فى الغضون التى كانت تحتل شدقيه .. وفى السواد الذى كان يحيط بعينيه . وفى جسمه النحيل الطويل المقوس على نحـــو ما ، كأنه عصا خيزران قوستها شمس الصيف . وكان يتكلم بمرارة ، وكانت هذه المرارة هى طابعه أبدا ، حتى اذا كان حديثه عن الجو الممتع الذى تشهده الاسماعيلية هذا الشتاء !!

وحكى لى قصته ببساطة ، ولم يكن فى قصته ما يخجل ، ولم يكن فيها ما يدعو الى الفخر . وكان يحكيها ببســاطة وبآلية ، وكأنه يتلوها من أسطوانة مسجلة داخل نفسه . وخيل الى انه حكاها ملايين المرات . حتى أصبحت القصة روتينية . لم يعـد فيها ما يثيره هو شخصيا ، فأصبح كلما سأله أحد تقيأها دون اهتمام !

ولكن الذى أثارنى فى قصته العادية هو دوره فى الفصــل الاخير ! أنه الآن ـ ولخبرته الطويلة ـ فى معسكرات الانجليز يعمل مستشارا لكتيبة وحوش الجبـــال ، انه يعـــرف مواقع الانجليز ، ومعسكراتهم ، ومخازنهم ونوع أسلحتهم والمسالك الخفية داخل القاعدة ، ومواعيد الحراس ، أنه باختصار ، يعرف أسرار الانجليز كأنه واحد من القادة العظام !!

ووجوده هذا الصباح عند مكتب خمزة بك ، كان جـزءا من مهمته فى الكتيبة ، انه يبحث للكتيبة عن سلاح وعن معدات ، وهو يطـــرق أبواب الاثرياء فى المدينة يطلب منهم ان يتبرعوا لتســليح الكتيبة .. ولكن أثرياء المدينة لم يستجيبوا لطلب

فتحى ، هذا هو اسمه ، والسبب انهم غير مؤمنين بجدوى هذه الاعمال ٠٠ ان الانجليز أقوياء ٠٠ انهم أقوى من هتلر ، لقد هزموا العالم ٠ وليس من اليسير أن تهزمهم عدة بنادق أثرية مع البوليس ، ومجموعة من المدافع القديمة فى عهدة الفدائيين !

ولكن فتحى بدير كان يرى عكس هذا الرأى ، قال لى فى ثقة بالغة وكأنه نابليون صغير :

ـ أنا عاوز ألف راجل زى حموده وأنا أخرج الانجليز ٠٠

وعندما سألته عن حموده هذا ، قال وهو يهز رأسه اعجابا :

ـ بكره تشوفه ، واد زى الجن الأحمر !

عندما وصلنا الى فندق بالاس ، كانت المظاهرة تتجمع أمامه ، وأفندى نحيل يركب أكتاف البعض ، ويهتف بصوت مسلوخ « الموت للانجليز » ومجموعة من الخواجات فى شرفة الفندق يحيون المتظاهرين بالتلويح لهم فى مودة ، والتصفيق كلما زعق الافندى النحيل بهتاف من هذا النوع ٠٠

وودعت فتحى على أن نلتقى فى صباح اليوم التالى ، واخترقت الجموع المتراصة ودخلت لفندق ، وسألت عن حمزة بك ٠٠

وقادنى الخادم الى حجرة معطرة ، ثمينة الرياش ،واستقبلنى حمزة بك مبتسما فى رشاقة أمير تركى ، وقدمنى الى الموجودين ، كانوا جميعا بهوات ، ومن رجال الاعمال ، ومن رجال السياسة فى الوقت نفسه ٠ وقال حمزة بك وهو يدعونى للجلوس :

ـ اننا اليوم هنا لنبحث الموقف فى المدينة ٠ اننا نواجه أعباء جساما ٠٠ لكن علينا أن نتصرف ٠٠ والامكانيات كما ترى ضئيلة ، ولكن علينا أن نصنع شيئا فى حدود هذه الامكانيات ٠ اننا ندبر الامر ونرجو أن نوفق فى مسعانا ، وعليك انت الآخر أن تمد لنا يد المساعدة ، فكل رأى سيفيدنا حتما ، خصوصا اذا

كان رأيا مخلصا .. عاقلا ، فالتهور هو مأساة هذا البلد منذ هوجة عرابى حتى اليوم !!

وانطلق الجميع فى حماس فأيدوا رأى حمزة بك ، وحبذوا استعمال العقل فى معالجة هذا النوع من الاحداث .. ولكنهم اتفقوا جميعا على رأى واحد ، هو ضرورة قتال الانجليز الى آخر قطرة من الدم .. الى آخر طلقة رصاص ، الى آخر نفس يتردد، الى آخر العمر !!

وانفض الاجتماع بسرعة ، وصفق حمزة بك فى رشاقة وطلب دور ويسكى للجميع ، وجلست أرتشف قدح الويسكى فى لذة وأناأنظر بامعان الى حمزة بك ..كان أحمر الوجه كالديك الرومى، لولا الطربوش الذى يعلو رأسه لحسبته خواجا وفد الينا من وراء البحر .. وكان فى الخامسة والاربعين ، ولكنه فى حيوية ابن الثلاثين ..

وكان أبرز ما فيه عيناه ، كانتا صغيرتين كأنهما عينا أرنب ، ولكنهما كانتا ثابتتين نفاذتين عميقتين كأنهما عينا ثعبان .. وكان رغم ثباته يخفى قلقا بالغا فى نفسه . كان يتحدث فجأة ويصمت فجأة ، ثم يزفر بشدة فجأة أيضا .. وكأنه كان يدرس بينه وبين نفسه موضوعا أدى به الى هذه الحركة فى وقت غير مناسب . وكان يهب واقفا على قدميه فجأة ثم يبتسم للجالسين ويعود مرة أخرى الى الجلوس وكان يدخن بشراهة ، يشعل السيجارة ويشفط منها أنفاسا متلاحقة محمومة ثم يلقى بها على الارض ويدوسها بقدمه بشدة حتى يسحقها ، ثم يشعل سيجارة أخرى وينتهى بها الى نفس المصير !!

وعندما نظر الى فجأة ، كانت عيناى مصوبتين نحوه ، فابتسم ابتسامة قرعاء ، وجذبنى من كتفى ، وقال وهو ينتحى بى ركنا من الاركان :

– ايه يابو الرجالة ، اري الحال ؟ ..
– كويس الحمد لله ..
– عاجبك الحال ..
– انشا الله يبقى عال ..
– هيبقى عال امتى بس ؟
– بكرة يبقى عال ..

ولعق شفتيه بلسانه ، ثم ابتسم نفس الابتسامة القرعة وربت على كتفى ، وقال فى ود عميق :
– محتاج حاجة ؟ ..
– أبدا ..

وقال وهو يهزنى بعنف :
– طيب أنا خدامك على كل حال ، اى حاجـــة تحتاجها انا تحت أمرك ..

وشكرته ، وعدنا معا الى الاجتماع ..
كانت أقداح الويســكى لاتزال تدور ، وهتافات الجماهير لاتزال تدوى فى الخارج وتتصاعد الى السماء .. وصفق حمـزة بك من جديد وطلب دور وسكى أخير . ثم نادى على الخادم وقال بصوت عال :
– مدام ريتا ياولد ..

وجرى الخادم مسرورا فى ردهات الفندق الواسعة ، ونظر الى حمزة بك .. وقد بدا تأثير الخمر يتحكم فى حركاته :
– شرفتنا .. هوريك حته واحده ست ، ما فيش اختها فى الاسماعيلية ، ست وطنية ، أحسن م المصرية ، أحسن والله ..
وانطلق الجميع فأمنوا عـــلى رأيه ، وأضاف بعضهم أوصافا أخرى الى الست التى لم أتشرف برؤيتها بعد ، وصاح رجــل

مخمور من الجالسين وطربوشه يتطوح على رأسه ويكاد يسقط على الأرض

« أجدع م الراجل ‥ ايه الراجل يعنى ، طظ ، فيه راجل موش راجل ، كدا والا لأ ‥

ثم سكت فجأة ونهض واقفا كأنما لدغته حشرة ، وانحنى فى احترام بالغ . وأدهشنى مسلكه . ولكن فوجئت بالجميع ينهضون واقفين ، فنهضت أنا الآخر ، وارتفع صوت أنثوى جميل سبقه عطرها النفاذ ، والتفت الى مصدر الصوت ، ورأيتها ‥

كانت هى نفسها ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى ، فاتنة شديدة الفتنة ، جميلة صارخة الجمال ، شهية كأنها قالب قشطه دافئة كأن أنفاسها تهب من جهاز مكيف للهواء !!

وقدمنى اليها حمزة بك ، وقال أحمد بك وهو يترنح ـ كنا لسه بنقوللوا ‥ أسأليه كده ، اسأليه ياست قولنا له ايه أجدع ست والله العظيم ‥

وحدجه حمزة بك بنظرة لافحة ، فقال على الفور :

ـ حتى حمزة بك قال أجدع ست وطنية ، أى والله كده ، أصل دا بتاع جرايد ، بكره يكتب عنك ‥

وأشار بأصبعه نحوى ، وقال وهو لايزال يترنح :

ـ ابقى اكتب عنها ، فاهم ‥‥

وهززت رأسى موافقا ، وقلت فى همس مسموع :

ـ انشاء الله ‥

ودعتنا هى الى الجلوس ، وجلسنا وهى معنا ، وطلبت هى دور ويسكى للحاضرين احتفالا برجل الجرايد الذى هو أنا ، ثم نظرت الى نظرة طويلة ، وربتت بأصابعها على خدى كأننى طفل جميل ، وقالت فى صوت كصوت الكمنجة :

ـ بقالك كتير فى الاسماعيلية ‥

– يوم واحد بس ، أنا جيت فى قطر امبارح ، اللى انت كنتى فيــه ..

وشهقت المرأة الحلوة ، وقالت وهى تفتح فمها الى آخــره ، وان كانت الفتحة لم تزد عن فتحة دبلة رجل نحيف :

– أوه .. ما تفكرنيش ، دى كانت ليلة !!

ورد احمد بك وهو يبعد الكأس عن فمه :

– سلامتك ، ألف سلامة . حمدالله على السلامة ..

وضحكت المرأة الحلوة ، وضحك أحمد بك اكراما لها ، فلــم يكن ثمة مايدعو الى الضحك ..

وجلست تحكى لهم عما حدث لها فى القطار ، وجلســت أنا أتأملها جيدا .. هذه المرأة ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى ، وبشرتها الناعمة كأنها جلد ثعبان ، وعيناها الضاحكتان كأن كل عين فيها فم يبتسم ، وذقنها الرقيقة المدببة ، ويداها العاجيتان كأنهما تحفتان ، وثوبها الأسود الذىيكاد يأكل من جسمهاالبض الفاره ، كأن رساما عبقريا قد رسمه على مقاييس عالمية لتكون نموذجا للجمال !!

ولكن من تكون مدام ريتا هذه ؟ وما صلتها بحمزه بك ؟ وأى علاقة تربطها باجتماع لمناقشة الموقف فى المدينة ؟ وأى دورتقوم به هذه السيدة الجميلة التى ترتدى ثوب الحداد ؟ وأى سر تخفيه خلف الابتسامة الجميلة ، والعيون المبتسمة ، والردف المتكــور الذى يكاد يتمزق تحت وطأة الثوب ويبرز للعيون !!

كانت مدام ريتا لاتزال تتكلم ، وحمزه بك ينصت فى غــير اهتمام ، واحمد بك يشرب بلا انقطاع ، وأنا أتفرس فى وجــه السيدة الجميلة ، بينما كانت أصوات المتظاهرين تعلو فى الجو ، وتقتحم النوافذ علينا ، وتصل الى أسماعنا من بعيد ، وكانت تهتف بسقوط الانجليز ، وحياة حمزة بك ..

وفجأة نهض حمـــزة بك ، فنهض كل الآخرين ، ومد يده فأمسك بيدها فى رفق ، ناعم ، وانحنى فقبل أناملها فى حب عميق ، ثم انصرف مهرولا من الفندق ، واحمد بك خلفه ، يتبعه الآخرون !! ..

وعندما أبصرت الجموع الحاشدة حمـزة بك فى طـــريقه الى الخارج ، تضاعفت الهتافات بحياته . ووقف هو عـــلى درجات السلم ينظر الى الحشود نظرة متعالية ، وقد اتخذ سمت الزعماء المدربين . ثم رفع يده يأمر الجميع بالصـــمت . وعندما هدأت الضجة ، ارتفع صوته هادئا جليلا كأنه موسى يعظ بنى اسرائيل ولم أسمع شيئا . فقد اندفعت الجموع نحوه وحملته عنوة على الاعناق ، وانطلقت هتافاتهم ترج الجدران بحياته واتجهوا بـه

نحو ميدان المحطة ، بينما ارتفعت زغاريد النســـاء تدوى فى الجو ، وحناجر الرجال تكاد تتمزق من شدة الصـياح ، وعندما القيت نظرة على الجموع الحاشدة قبل أن تختفى من أمامى أبصرت رفيق رحلتى الىفندقبالاس ، فتحى بدير وعروق رقبته النحيلة كأنها حبال غسيل تكاد تشق الجلد الرقيق ، وفمه الواســـع مفتوح على آخره ، وصوته المسرسع كصوت طفل يصرخ ســاعة الميلاد ، يرتفع الى الجو ، هاتفا بحياة حمزة بك ..

الفصل الثانى

استيقظت فى الصباح الباكر على صوت فتحى بدير يسرسع فى أذنى يأمرنى بالنهوض ، وعندما نظرت اليه نظرة استنكار هتف وهو يتجه نحو النافذة :

ـ حمودة تحت !!

هتف بالاسم كأنه يعلن عن وجود شخصية مرموقة تعرفها الجماهير ، ولم أكن أعرف حمودة ، ولم أكن قد سمعت باسمه من قبل . ورمقنى فتحى بنظرة احتقار لجهلى الشديد ، وقال وصوته يعلو ويخشوشن :

ـ حمودة ، ماتعرفش حمودة ؟

وقلت ببساطة وأنا أزيح الغطاء من فوقى

ـ لا ، حمودة مين ؟

ووثب فتحى نحوى وجلس على حافة السرير وقال فى زهو شديد :

ـ قائد كتيبة وحوش الجبال ..

ثم قال وهو يفتش فى جيوب جاكتتى عن سجاير ••

ـ دا أجدع راجل فى الاسماعيلية • دا لوماحمـوده كان الانجليز حرقونا •

وارتديت ملابسى على عجل ووثبت السلالم خلف فتحى وبى شوق شديد لرؤية حمودة • الرجل الفولاذى الذى يحمى المدينة من بطش الانجليز !!

وعندما دخلنا صالة الفندق لم يكن بها أحد سـوى خواجا عجوز اختار مكانا مشمسا ، وجلس محنيا مستندا على عصاه ينظر الى الشارع ويتأمل الحياة التى تدور أمامه خلف واجهـة الفندق الزجاجية •• ورجل فى منتصف العمر يرتدى مـلابس بلدية ، ويتعمم بجلباب ، واطراف العمامة تتدلى على جبهتـه وتخفى عينيه وكأنه فى ملابس تنكرية • ويبرز من وجهه شارب كث ، شعيراته الحادة الطويلة مصوبة الى الامام • خشنة نافرة كانها أسلاك شائكة مضروبة حول بعض المعسكرات ••

وتقدم فتحى من الرجـل المعمم وحياه ، ثم قدمنى اليـه ، فصافحنى بلا اهتمام ، وسألنى فى غطرسـة القائد الحـربى المشهور ••

ـ انت بتاع جرايد ؟

ولما أجبته بالايجاب ، قال فى لهجة المتفضل :

ـ مراحب ••

وبلا أدنى حذر من جانبه راح يستعرض أمامى قوة الكتيبة • ويعدد أسلحتهـا وأنواعها والاماكن التى يخفى فيها أصـابع الديناميت ، حتى عناوين أفراد الكتيبة سردها أمامى دون مبالاة ، ثم قال وهو يطرقع أصابعه الضخمة فى نشوة ••

ـ هتكتب يوم ايه ؟ ••

ـ أكتب ايه ••

ـ حديث معايا ، عاوز حديث يهز الانجليز ، خليه بعنوان « حمودة رئيس وحوش الجبل يتكلم » ·· ايه رأيك بكرة ··

ولما بدا أننى غير متحمس قال على الفور :

ـ بعد بكره ؟ بعد بكره زى بعضه !

ـ لكن المسائل دى عاوزه ترتيب يامعلم حمودة ··

ـ كده ، طب انت حر بقى ··

وتململ على مقعده كأنه يهم بالانصراف ··

وخفت أن أفقد حمودة الى الابد فقلت محاولا ارضاءه

ـ احنا نتقابل بكره ونتفاهم فى الحكاية دى يامعلم ؟

ورد حمودة فى سخرية :

ـ بكره ؟! وانت بكره هتشوفنى فين ؟ قدامك شهر عشان تشوفنى تانى ··

ـ ليه ؟ مسافر ؟

وابتسم ابتسامة رثاء لجهلى بالموضوع · ونظر الى فتحى نظرة ذات معنى ، وتطوع فتحى لشرح الموضوع ، قال وهو يمسك بيد المعلم حمودة :

ـ حمودة طالع الجبل من بكره ، هيحارب الانجليز ··

ـ طالع الجبل !!؟

قلتها كأنى قد عثرت على كنز ، فلو أن حمودة طلع الجبل غدا فمعنى ذلك ان حمودة هو الشخص الوحيد الذى اختارته الاقدار ليكتب صفحة جديدة فى تاريخ مصر ·· فحتى هذه اللحظة كان القتال من جانب واحد ·· الانجليز يطلقون النار والناس يواجهون النار بالهتاف ، وأسماء كتائب تنشر وتذاع على الناس · ومعارك تدور رحاها على صفحات الجرائد فى القاهرة ، ولكن لا أصل لها ولا فصل وفى منطقة القناة ·· وها هو حمودة الجالس أمامى فى فندق فؤاد فى الاسماعيلية سيبدأ المعركة

غدا، ولن يكتفى بالدفاع ، انه سيهاجم الانجليز غدا ، ومن هنا ، من حمودة ، تبدأ حرب التحرير المقدسة !!

ونظرت الى عينى حمودة أحاول أن أسبر أغواره . كانت عيناه فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وكانت عميقة ونفاذة ، وتشع بريقا غريبا ، كأنها جذوة نار تأكل نفسها ..

ولكنها لم تكن تفصح عن شيء ، كان البريق الذى فى عينيه خليطا من الخداع والذكاء ، ايمان نبى ، وعزيمة زعيم عصابة ، ولم تستطع فراستى أن تحدد أى نوع من الرجال .. حمودة!

وقلت لحمودة وقد ازداد اهتمامى به :

ـ طيب وهشوفك ازاى ..

ورد فى هدوء شديد :

ـ لما القمر يطلع ..

ولكن ما علاقة طلوع القمر بظهور حمودة ، سؤال وجيه تطوع فتحى بالاجابة عليه :

ـ طول ما القمر طالع حمودة يبقى معانا ، القمر يختفى حمودة يزحف على طول ..

وكأنما شرح فتحى لم يرق لحمودة ، فعقب على حديث فتحى محاولا أن تكون الصورة كاملة فى ذهنى :

ـ القمر يختفى من هنا ، وأنا أزحف على طول . أنازى الديب من غير مؤاخذة ، القمر عدوى !!

ـ يعنى ما اقدرش أشوفك بكره ؟

ـ اطلع لى الجبل ، فتحى يجيبك .

وهز فتحى رأسه موافقا على الفور ، وقال متحمسا :

ـ نطلع على البحيرة ، ومن هناك نطلع الجبل على طول ..

ولكن حمودة اعترض على هذه الفكرة .. واقترح أن تطلع الجبل من ناحية القناة :

ـ البسكه هناك سالكه ، مافيش انجليز ..

وعندما انتهى حمودة من حديثه ، صفق بشدة ، وطلب فنجان قهوة سادة ، ثم انتزع من عمامته ورقة سلوفان والتقط من داخلها قطعة أفيون دسها تحت لسانه ، ثم راح يرتشف القهوة على عجل ، ونظر الينا معتذرا :

ـ لامؤاخذة ، بقالى أسبوع مانمتش .

وسألته فى سذاجة :

ـ ليه ؟

وقال وهو يهز رأسه :

ـ ليه ازاى ؟ الحرب ياسيدنا لفندى ، انت بقالك كتير فى الجرايد ؟

ـ خمس سنين ..

ـ لسه بدرى ..

كان حمودة قد انتهى من فنجان القهوة عندما نهض واقفاً ونظر نحوى برهة قبل أن يسألنى .

ـ تحب تشوف الكتيبة ؟

وأجاب فتحى بدير على الفور :

ـ مافيش مانع ..

ولم ينتظر حمودة حتى يسمع جوابى ، مضى فى طريقه يتبعه فتحى بدير وأنا ، ورحنا ثلاثتنا نقطع شوارع المدينة والمعلم حمودة يتمخطر أمامنا فى عظمة الابطال ، ويرفع يده بالتحية كلما مر موكبنا على قهوة .

وكان الناس فى المقاهى على الجانبين كلما اقترب حمودة منهم ، يهبون واقفين محيين بصوت عال ، متوسلين بأغلظ الايمان أن يتفضل حمودة بالجلوس ولكنه لم يتوقف أبدا ، مكتفيا برد التحية من بعيد . واختلاس النظر خلفنا أحيانا ليطمئن اننا

نسير خلفه واننا نشهد هذه المظاهرة الشعبية التى قوبل بها على طول الطريق ٠

وعبرنا ترعة الاسماعيلية واتجهنا نحو ربوة عالية ، وعندما بلغنا قمتها ، أخذنا نتدحرج نحو السفح ، الى بحيرة التمساح ٠

كانت البحيرة تبدو أمامنا ونحن نهبط الربوة ممتدة الى مالا نهاية ومياهها الزرقاء ساكنة لاتتحرك ، وهناك قوارب صيد صغيرة تتناثر هنا وهنا بلا حراك ، وخيل الى أن البحيرة ، والمراكب والسحب البيضاء التى تطبق عليها عند نهاية الافق مجرد خيالات وانها لوحة شديدة الاتقان رسمها فنان مجنون على رقعة فسيحة من الصحراء ٠

كنا قد بلغنا سفح الربوة عندما واجهنا سور قديم تسلقه بعض النباتات ، وتبدو من خلال شقوقه مياه البحيرة ، وعلى مرمى البصر تقوم حلقة السمك كالحة اللون ، تهب منها رغم بعد المسافة رائحة السمك النفاذة ، ويحوم حولها بعض الصيادين ، وترسو أمامها عشرات القوارب ، ثم سلسلة تلال من الرمال الصفراء تحتضن البحيرة وتمتد الى مالانهاية ٠

ودار حمودة حول السور وانحرف ناحية اليسار ودفع بقدمه الغليظة بابا سميكا من الخشب ، وانزاح الباب وهو يصرخ كأنه رجل جريح ، ثم كف عن الصراخ عندما استقر على جدار السور ، وانفتح الباب عن حوض فسيح ، تناثرت فيه أكوام رمل ، وقطع دبش ، وكتل خشب ، واستقبلتنا وسط الحوش امرأة فى جلباب أحمر رخيص ٠ فى الخامسة والعشرين ، شعرها أسود فى لون الحبر ، وتقاطيع وجهها قبيحة ، ووجهها من النوع الذى لاتستريح اليه العين ٠ ولكن جسدها كان رائعا بالرغم من الفستان الرخيص وصدرها المكشوف ينبىء عن لون البشرة الابيض والاحمر كلون الفول السودانى المقشر

ووقفت المرأة تنظر الينا طويلا ثم صرخت فى وجه حمودة :

ـ جيت ياسى زفت ••

وابتسم حمودة فى كبرياء ، وقال وهو يشـــيح بيده فى وجهها :

ـ هاتى كراسى يابت ••

وقالت المرأة وهى تسرع نحو باب آخر فى نهاية الحوش :

ـ خش هات انت •

وأسرع حمودة خلفها ، ودخل من الباب الذى دخلت منه، ثم عاد بعد قليل ومعه ثلاثة مقاعد ، رصها الى جوار بعضـــها ، وجلسنا نحن الثلاثة ووجوهنا نحوالبحيرة ، والماء يضرب برفق فى حرف الحوش ، وكلب أجرب يعوى خارج الســور وحمـودة يحدق أسفل قدميه ويده تعبث فى طين الحوش بعصا رفيعـــة مدببة • ثم قطع الصمت فجأة ، وقال وهو يجـول ببصره فى أنحاء الحوش :

ـ عاجبك المخبأ ده ؟ أنا مسميه عش النسر

ولم يكن المكان الذى نحن فيه يوحى بأنه بيت على الاطلاق ، مجرد سور وخرابة وعشة فى نهاية الحوش تصلح لاى شىء الا أن تكون مأوى لانسان !

فى هذا المكان عاش حمودة سنواته العشر الاخيرة ، ولم يكن على شاطىء البحيرة من هو أشهر من حمودة خلال هــذه الفترة الطويلة • ولم يكن حمودة يملك شيئا ولا يعمــل فى شىء ، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع أن يعيش مرهوب الجانب مسموع الكلمة ، وحوله عشرات من الرجال يؤمنون به ويعمـلون رهن اشارته • وأنفق الالوف بفضل ماكان يخطفه هؤلاء الرجال من معسكرات الجيش فى القناة • وبفضل زعامة حمودة لعصابات الشبيحة فى المنطقة أصبح يتمتع بسمعة طيبة وبدخل كفـل له احترام الجميع !!

ولكن لشد ماتغيرت الاحوال بعد ذلك . الانجليز كشفوه وهاجموا عشهأكثرمن مرة ، والبوليس المحلىضيق عليه الخناق، وتعقب رجاله وقطع أرزاقهم .

ولم يكن حمودة يدخر شيئا لأيام سود مثل هذه ، فلم تكن مثل هذه الايام فى الحساب !!

حتى القارب الذى كان يحلو له فى الليالى المقمرة أن يسهر داخله ماسحا به بحيرة التمساح من الجنوب الى الشمال شهده حمودة بعد أن أصابه النحس والنار تأكله وهو ملقى على الشاطىء . وامتدت النار من القارب الى شجر الكافور الذىكان يظلل العش فأكلته عن آخره .

وفى تلك الليلة التى اكتمل فيها نحسه شاهده الصيادون الذين كانوا يعملون على مقربة من الشاطىء وهو يترنح فىالليل عائدا الى العش يصفر لحنا غريبا ، تتبعه على البعد امرأة ضخمة الجثة ، تتشح بالسواد ، لايبين منها شىء . وقضى حمودة أياما داخل العش يسكر حتى يسقط على الارض ، ويهذى من فرط الشراب ، ويغنى أغنيات انجليزية شائعة فى القنال ، ويسب الدين والدنيا ، ثم ينهال بالضرب على المرأة وعندئذ ، يرتفع صوتها بالبكاء .

وأيقن الصيادون يومئذ أن حمودة جن ، ولكن أحدا لم يجرؤ على اقتحام عش حمودة ليتبين حقيقة الامر .

وأصبح من ظواهر الحياة العادية ، أن يسكر حمودة حتىيقع على الارض ، ثم يغنى ، ثم يرتفع صوت المرأة البدينة بالبكاء !

ولكن حمودة سرعان ماعاد الى طبيعته الاولى ، ففى صباح مشرق جميل شوهد على الشاطىء داخل العش يحاول اصلاح ما أفسدته النار ، ويجر حطام القارب الى اليابسة وكانتالمرأة البدينة تحوم حوله كالنحلة ترمم بيديها سور العش ، وتلقى

ببقايا شجر الكافور الى الماء .

وفى تلك الليلة فقط اقتحم عليه الباب أربعة من رجاله القدامى وبعض الصيادين . وشربوا معه الشاى وقصوا عليه حكايات بذيئة ، وقص عليهم هو الآخر نوادر حدثت له فى الماضى البعيد وكان يضحك خلال الحديث حتى يستلقى على قفاه . وفى آخر الليل وهم يستعدون للانصراف ، أخذوا يواسونه على ما حل به من دمار ، ولكنه منعهم من الاسترسال فى الحديث ، وقال وهو يضحك من الاعماق :

- بكره نجيب غيره ، ياما جه ، وياما راح !!

والحق ان حمودة وفق تماما فى تلخيص فلسفته فى الحياة ياما جه وياما راح لكم جاء ليد حمودة وياما راح عبر السنين التى عاشها فى الحياة . ولم يكن يفرح بما جاء . ولم يكن يحزن على ماراح كأنما كان يدرك بحاسته الفطرية ان هذا الذى جاء سيذهب يوما ، ليعود مرة أخرى ، ليذهب من جديد ، وهكذا الى آخر الحياة !!

وقضى حمودة شهورا طويلة بلا عمل ولم يعد أحد يقتحم عليه الباب كأنما نسيه الناس لطول ما احتجب عن أعينهم وفى مرات كثيرة كانت المرأة البدينة تحثه على أن يعمل أى شىء دون جدوى . ولكنه كان أحيانا يهب من نومه فى الليل ويغوص بقدميه فى طين البحيرة ، ويقضى الساعات الطويلة على الشاطىء ، ثم يعود ومعه أكلة سمك طيبة ينفق وقتا طويلا فى انضاجها على النار .

كان حمودة يفكر فى هدوء خلال الايام الطويلة التى قضاها منزويا داخل العش عن طريقة للثراء . وطرق بتفكيره أكثر من موضوع ، حتى أن يصبح حمودة صيادا فى بحيرة التمساح !!

ولكن فكرة وحيدة راقته كثيرا ووقف عندها طويلا يقلبها من جميع الوجوه ويبحث ظروفها فى امعان ، ويدرس تفاصيلها فى لذة ، ثم انتهى بعد ذلك الى قرار ..

خرج حمودة ذات صباح الى المدينة وعاد ومعه نجار مفتول العضل كان صديقا فى أيام بعيدة • ومن داخل الغابة الكثيفة التى تترامى من الشاطىء الى قمة الربوة ، راح حمودة يعمل بهمة فى قطع جذور الاشجار الضخمة ، بينما انهمك النجار الحاذق فى تقطيع الخشب واعداد قارب جديد •

وبهذا القارب الجديد قدر حمودة أنه سيصل الى الثراء فى فترة وجيزة • تكفيه رحلة أو رحلتان عبر بحيرة التمساح ليصبح ثريا وصاحب ألوف ، ثم يهجر القارب بعد ذلك وعش النسر ، والشاطىء كله ، ويسحب هذه المرأة المسكينة من يدها ويهاجر الى مكان آخر بعيد •

وفى الايام التى كان النجار منهمكا خلالها فى اعداد القارب ، وكان حمودة يطوف على شاطىء البحيرة يغشى القرى الصغيرة المنتشرة هنا وهناك يعقد الصفقات مع مهربى المخدرات ليبدأ العمل على الفور • واذ علم هؤلاء بما ينتوى حمودة الاقدام عليه شجعوه وأقرضوه بعض المال •

وفى اليوم الذى قرر حمودة أن يبدأ فيه رحلته الاولى عبر البحيرة ، جاءت الاخبار بالغاء المعاهدة ، وانطلق الرصاص فى القنال يعربد فى الفضاء ، ومعسكرات الانجليز التى كانت موصدة الابواب ، عادت ففتحت أبوابها من جديد • وهاهى الفرصة تسنح مرة أخرى ليصبح حمودة صاحب الوف ، ومن الطريق الذى يحفظ كل شبر فيه !!

وهاهم الرجال الذين كانوا قد هجروا العمل مع حمودة أخذوا يتوافدون من جديد • والسلاح الذى كان مدفونا على عمق عميق تحت الرمال ، حفرت عنه الايدى الخشنة وانتزعته ، وعاد يدوى بطلقات النار ، وعلى مرأى ومسمع من رجال البوليس !

وعش النسر الذى كان مهجورا عاد يزن من كثرة الرجال ـ وحمودة أصبح بطلا • أصبح قائدا لكتيبة وحوش الجبال !!

وقت طويل مضى ونحن جلوس فى حوش العش نرقب مياه البحيرة الساكنة ، ونرشف أكواب الشاى فى صمت ، ثم فجأة صاح حمودة فى وجه فتحى بدير :

ـ شوف لنا الرجالة فين ••

ونهض فتحى على الفور ووثب جريا نحو الخارج ، ثم عاد ومعه مجموعة من الرجال ، رائحة السمك تفوح من ملابسهم ، وابتسامات بلهاء تتأرجح على أفواههم ، وعندما اقتربوا منا ، وقفوا فى صف طويل كأنهم عساكر فى طابور • وقال حمودة وهو يشير نحوهم :

ـ عيال زى السبوعة ، يأكلوا اللحمة نية

وقال رجل أسود كان يتوسط الطابور :

ـ احنا خدامينك ياسى حمودة •

وأشار حمودة نحوى بأصبعه ثم قال :

ـ لفندى بتاع جرايد ، جاى من مصر مخصوص عشان يكتب عنا ، ياللا شوفوا شغلكوا بقى •

وعلى الفور ، تبعثر الطابور ، وجرى أفراده فى كل اتجاه ، ثم عادوا بعد قليل ، ومع كل منهم مدفع رشاش ، وبعد أن عرضوها علينا ، وفكوا أجزاءها جلسوا على كوم رمل فى مواجهتنا ، يستمعون الى تعليمات حمودة التى يجب اتباعها فى المعارك •

وبعد أن انتهى من القاء تعليماته ، أشار الى أحدهم وقال فى لهجة آمرة :

ـ روح هات الفرد بتاعى ••

وغاب الرجل لحظات ثم عاد ، ومعه مسدس ضخم ناوله لحمودة ، وانهمك حمودة فى تنظيفه وحشوه بالطلقات ، ولما

انتهى من هذا كله ، نظر الى الفضـــاء ، وقال وكأنه يحـدث المسدس :

ـ والله جت أيامك !

ثم رفع يده الى أعلى ، وصوب المسدس نحو الفضاء وضـغط على الزناد فجأة ، وانطلقت سبع رصاصات تعربد فى الجو ٠

وهب أفراد الكتيبة الذين كانوا يجلسون فى هدوء حتى تلك اللحظة يهللون ويتصايحون ٠ وهتف بعضهم بحياة حمـودة ، وانطلقت الزغاريد من الداخل والخارج أيضا ٠

وهجم على الحوش أكثر من رجل واندفع نحونا كثير من الاطفال كأنما انشقت الارض عنهم فجأة ٠٠ وأصبحنا فرجة والناس الذين اندفعوا من الخارج والتفوا حولنا يباركون لحمودة ، وحمـــودة يشكر الجميع فى اعتداد ، وامرأة عجوز تمد لحمودة يدا مرتعشة ثم ترفعها الى السماء وتدعو له بالنصر ٠

اذن فالمعركة بدأت فعلا ، وهذه تباشير النصر ، والمرأة التى صرخت فى وجه حمودة عندما دخلنا الحوش أول مرة ، وقفت تزغرد فى ابتهاج ، والحوش تحول الى ساحة جيش ، والحمـاس استبد بأفراد الكتيبة فرفعوا أسلحتهم الى الجو وأفرغوا الرصاص فى الهواء وجاء عسكرى سواحل عجوز وقد هاله الامر ٠ وسأل عن الحكاية ، وقال له حمودة فى بشاشة :

ـ كل سنة وانت طيب ، دى الحرب ياشاويش احنا طالعـين بكره انشاء الله

ولم يفهم الشاويش شيئا ، ولكنه بارك لحموده طلوعه بكره ، ودعا له بالنصر قبل أن يستدير عائدا الى المكان الذى أتى منه ٠

ومضت ساعة كاملة قبل أن يعود الهدوء الى الحوش ، وعاد المعلم حمودة الى مكانه والكتيبة من حوله ، والعمامة التى كانت تخفى وجهه خلعها وألقى بها على الارض ، فبدا على حقيقته ، ابن

يبدو فهلوى فى الخامسة والثلاثين متين البنيان لولا شاربه الضخم لبدا أصغر من عمره عشرة أعوام !

ولا أدرى كيف تغيرت معالم حمودة بعد هذه الضجة ، خيل الى أن القناع الذى كان يرتديه قد خلعه مع العمامة ، انوجهه الذى كان صارما على الدوام أصبح بشوشا ، وفمه الذى كان منطبقا تحت شاربه أصبح مبتسما وعيناه أصبحتا أقل حدة ، واخف لمعانا عن ذى قبل .

يبدو أن المعلم حمودة قد أفرغ انفعالاته مع الرصاصات السبع التى أطلقها فى الهواء !

وفجأة ، هتف حمودة فى وجهى وهو يبتسم فى ود :

ـ انت هتاكل معانا ، تاكل سمك ؟

ولم ينتظر اجابتى ، مديده فى جيبه فأخرج جنيها ناوله لأحد جنوده ، وقال وكأنه يصدر أمرا بالقتال :

ـ هات سمك حفار واشويه ..

وعندما هم الرجل بالانصراف ، قال له حمودة بنفس اللهجة الآمرة :

ـ خد مدفعك معاك ..

وتعجبت لهذا الامر الاخير ، فالمسافة بيننا وبين حلقة السمك لاتزيد على مرمى حجر ، والحوش والحلقة يقعان على بعد عشرة أميال من معسكرات الانجليز فما هى الحكمة فى استخدام المدفع الآن وما هو الخطر الذى يتهدد رجلا يشترى سمكا من الحلقة .

وسألت حمودة عن السبب الذى من أجله أصدر أمره الى الى الرجل بحمل مدفعه معه وهو فى طريقه الى حلقة السمك ، وأجابنى حمودة فى سذاجة :

ـ عشان الراجل يتوصى ، دى عالم تخاف ماتختشيش .

ونظرت الى المعلم حمودة ولم أتكلم ، ورحت أرقبه وهو يصدر أوامره الى جيشه الصغير :

ـ سعيد يجيب طرشى ، ابراهيم يشترى عيش ، جودة يجيب فجل و ٠٠ و ٠٠

واندفع الجميع ينفذون الاوامر ، وبقيت مع المعلم حمودة وحدنا وسط الحوش ، وانتهز الفرصة ، فقال وهو يشير نحو الحوش فى أسف شديد :

ـ شوف ، أهو أنا قائد جيش وساكن هنا ، مش دى مصيبة والنبى ٠٠

وقلت أهون عليه :

ـ معلهش ياحمودة ، بكره تتعدل ٠٠

وقال فى ثورة بالغة :

ـ عنها ماتعدلت ، هوه أناعامل على نفسى ، بذمتك لو الانجليز عرفوا ان قائد الفدائيين ساكن فى خرابة ، مش تبقى فضيحة؟!

ثم خبط كفا بكف ، ولوى عنقه من جديد ، وراح يزعق على المرأة التى فى الداخل ، ولم تلبث أن جاءت تخطـــر فى دلال مصطنع ، وتتكلم فى هدوء ، متجاهلة وجودى تماما :

ـ عاوز ايه ؟

ـ تعالى اقعدى معانا ، لفندى هيكتب عنك ٠٠

ونظرت المرأة نحوى فى استنكار بالغ ، وقالت وهى تتقصع :

ـ هيكتب عنى ايه ، هوه أنا مسخه ؟

وقال حمودة وهو يهبر شعرها بأصابعه الغليظة :

ـ مسخة ايه يابنت المركوب انت تطولى ٠

وجلست المرأة على الارض بجانبى لتتخلص من أصابع حمودة الفولاذية وقالت لى فى دلال :

ـ أوعى تكتب عنى حاجة يافندى ، احنا مش ناقصين بلاوى ٠٠

وطمانتها الى أننى لن أكتب شيئا ، وان حمودة يمزح معها ليس الا ٠٠

ولكن حمودة هاج كالثور ، وقال وهو ينتفض :

ـ لازم تكتب عنها ، دى كانت بتــاعة إنجليز وتابت على ايدى ..

ثم التفت الى المرأة ، وقال وهو يلوح بقبضة يده

ـ حصل والا لأ يابنت المركوب ؟

وصرخت المرأة وقد عادت الى طبيعتها الخشنة

ـ جرى ايه ياحمودة ، مابلاش فضايح أمال ..

وضحك حمودة ضحكة صافية عميقة وقال :

ـ هى دى فضايح ، عنك ماانكتب عنك ، آل يعنى مديحــة يسرى ..

وضحكت المرأة وهى تحاول النهوض .. وقالت وهى تكسب على ساقيها :

ـ واحنا ايه اللى وصلنا لمديحة يسرى ، دى بتاعة سيما .

وعندما همت بالنهوض ، دفعتها يد حمودة وألقت بها عــلى التراب ، وسقطت المرأة على ظهرها كأنها لوح خشب .. وقال حمودة وهو يصرخ فى وجهها :

ـ راحة على فين ؟ أقعدى مع لفندى شويه ، دا الباشــوات يدفعوا فلوس ويقعدوا معاه ..

ونظرت الى المرأة المطروحة على التراب .. ونظرت نحوى هى الاخرى بعينيها الواسعتين كأنهما عينا بقرة ، وكانت عيناهاهما أقبح ما فى المرأة ، عينان واسعتان حقا ، ولكنهما لايحملان أدنى تعبير ، عينان صامتتان لاتتكلمان ولا يدعــوانك الى شىء ، ولا يدفعانك الى شىء ، وأحسست برعشة عندما أطلت النظر اليهما .. فقد خيل الى أننى انظر فى عينى ميت حديث العهد ..

كان الطعام قد حضر وبدأنا نأكل ، والمرأة فى مــواجهتى ، وحمودة الى جوارها .. منصرفا عن كل مافى الوجود بالتهــام

الطعام ، ولم يكن يمضغ ، بل كان يزلط دون أن يتذوق شيئا مما يزلطه ، وخيل الى أن الاكل بالنسبة اليه واجب يؤديه، كان يأكل كل الاصناف مرة واحدة ، فجل ، طرشى ، عيش ، جبنة، سمك ، كل شيء ! وكانت يده تمتد الى كل هذه الاصناف فى آلية منتظمة وكأنه ماكينة مطلوب منها أن تملأ معدتها بأكبر كمية ممكنة من الطعام وفى أقصر وقت !

وانتهى حمودة سريعا من الطعام ، وارتفع صوته يحمد الله، ولكن بطريقة توحى الى السامعين أنه لايشكر المولى على نعمة الطعام ، بقدر مايشكره على انه انتهى من عمل مرهق ،وواجب ثقيل مر على خير والحمد لله ..

وعندما استأذنت من حمودة فى الانصراف ، أقسم بالطلاق اننى لن أبرح الحوش قبل أن يتم الانس والمزاج . وبدأت أوامره تصدر الى رجال جيشه ، وعلى الفور حضرت الجوزة واشتعلت النار فى موقد الفحم ، وكوز الشاى وضع على النار ..

وعندما انتهينا من المزاج ، كان الليل قد هبط على الكون ، والحوش ازداد كآبة ، والبرد أرعش أجساد الحاضرين فاستأذنوا فى الخروج ، ولكنهم توقفوا فجأة على صوت طلقات نار تتجاوب أصداؤها على الناحية الاخرى من البحيرة .

وأصاخ حمودة السمع نحو مصدر الطلقات التى راحت تصرخ وهى تشق الفضاء البعيد . وكان واضحا انها طلقات مدفع برن ، وأنها تطلق من جانب الانجليز ، ولكن على من؟..

وقال حمودة فى همس مسموع :

ـ لازم العيال الشبيحة بتوع عزبة أبو جاموس ..

وساد الصمت من جديد ، وانقطعت طلقات الرصاص، وودعت حمودة فى حرارة .. فمنذ اليوم لن أراه حتى يعود القمر يتوسط قبة السماء ، وصافحنى وهو يذكرنى بالموضوع الذى ينبغى أن

أكتبه عنه ، وتطوع فتحى بدير بتوصيلى حتى الفندق ، وسـار معى نقطع شوارع الاسماعيلية فى صمت ، وصـورة حمودة لاتفارق خيالى ، صورته وهو يطلق الرصاص ، وهو يأكل كأنه حمار وحش وهو يلقى بالمرأة البـدينة ويطرحها عـلى طين الحوش ..

ترى هل ألقت الاقدار على عاتق حمودة هذا أن يحرر مصر ؟ وهل حقا سيزحف على رأس رجاله غدا والدنيا ظلام ؟ ..وهل يتوقف مصيرقضية عظمى مثل هذهعلى اختفاءالقمر وظهوره؟..

أم أن حمودة متأثر بالسينما وابطالها .. وأنه يمثـل فى الحياة دورا شاهده على الشاشة من قبل ؟

الفصل الثالث

كنا قد عبرنا ترعةالاسماعيلية ـ فتحى بدير وأنا ـ فى طريقنا من عش النسر الى فندق فؤاد ، وكلانا صامت ، وقد بدا عليه أنه مسطول وأنه فى حاجة الى نوم عميق ..
وفتحى يجر قدميه الى جوارى فى تكاسل :

ونظرت الى فتحى فىدهشةممزوجة بالحسرة ، فهذا المسطول هو مستشار حمودة ! وها هو يبدو الآن تحت تأثير المخدر طيبا على نحو ما ، وساذجا على عكس مايدعى ، وبائسا فى حاجة الى مستشار يخطط له رحلة حياته التى انتهت الى عكس ماكان يشتهى ويريد !

وفجأة ، مرقت سيارة فى الشارع تسابق الريح ، ولولاأننى جذبت فتحى من قفاه لدهمته السيارة ، وعندما أفاق منذهوله وقف يرقب العربة المنطلقة كالصاروخ فى اتجاه المعسكرات ، وقال وهو شبه نائم :
ـ حمزة بك ومدام ريتا ..

مدام ريتا !! المرأة ذات الشعر الاحمر ! ومع من ؟ حمزةبك عبد المقصود وفى سيارة تنهب الطريق ، والى أين ؟ فىاتجاه المعسكرات !

وقلت لفتحى بدير وأنا أحاول أن أبدو غير مهتم بالامر ؟

ـ رايحين فين ؟ بيت حمزة بك ؟

وأشار فتحى الى الناحية الاخرى وقال :

ـ لا ، بيت حمزة بك الناحيادى ٠

ـ أمال رايحين فين ؟

ـ حد عارف ٠٠

قالها بصوت خافت واهن كمن هو مشرف على الدخول فى غيبوبة طويلة ٠ ثم سار يتدحرج على الطريق ٠

وقلت والغيظ يأكلنى لبلادة فتحى :

ـ أمال رايحين فين ، يكونوا رايحين بيت مدام ريتا ٠٠

ورفع فتحى عينيه الصغيرتين الى وجهى ٠٠ وقال وابتسامة باهتة ترتسم على شفتيه :

ـ بيتها ؟! المدام مالهاش بيت ، بيتها اللوكاندة ٠٠

ـ ساكنة هناك على طول ؟

ـ اللوكاندة بتاعتها ، هيه صاحبة اللوكاندة ٠٠

كنا قد وصلنا الى فندق فؤاد فسحبت فتحى بدير من يده ودخلنا ، وانسحب هو معى دون مقاومة ، وارتمينا على الكنبة التى فى مدخل الفندق ، وجلست أنصت فى اهتمام الى فتحى وهو يحكى لى قصة مدام ريتا ، وقد أدهشنى انه يحكيها وكأنه يقرؤها من كتاب ، ولم يبدأ قصتها من البداية ٠٠ بدأها منقبل البداية بزمان ، حكى لى قصة أبيهــا الايطالى ، كيف جاء الى السويس ؟ ٠٠ كيف اقتنى الفندق وعلاقته بالانجليز ، وعندما

انتهى من قصة ريتا كان قد مضى من الزمان ساعة وهو يحكى بلا انقطاع

ثم سادت بيننا فترة صمت طويلة ، واغمض عينيه ، وراح فى تعسيلة خفيفة أيقظته منها برفق ، وسألته فى اهتمام :

ـ ودلوقت بتعمل ايه مع حمزة بك •

وقال فتحى وهو يتثاءب :

ـ مع مين ؟

ـ مع حمزه بك ••

ـ آه دا أصله راجل على كيفك قوى ، كان كده مع المرحومة أمها ، كانت طليانية طعمة قوى •

ثم أغمض عينيه ونام

وتركت فتحى بدير مكانه وصعدت الى حجـرتى ، وخطفت حقيبتى وغادرت فندق فؤاد الى فندق بالاس •

ولقد كان لدى عشرة أسباب لهذا الانتقال المفاجىء ، فأولا لكى أتخلص من الفراش البائس فى فندق فؤاد ، وثانيـا لأن فندق بالاس هو المكان الذى يجتمع فيه رجال السياسـة فى المدينة • وثالثا ورابعا •• و•• و••

ولكن السبب الحقيقي والسبب الوحيد هو أن أكون على مقربة من مدام ريتا ، البيضاء كأنها المهلبية ، ذات الشعر الأحمر فى لون الشاى !

وعندما صعدت درجات فندق بالاس كان يبـدو خاليا كأنه مهجور ، وبحثت عنها وأنا فى البهو الضيق المظلم الطويل •• وتلفت أبحث عنها وأنا أصعد الى حجرتى ، ولكنى لم أعثر لها على أثر ، وعندما أصبحت داخل الحجرة تذكرت أننى منذ ساعة شاهدت مدام ريتا مع حمزة بك فى سيارة تنهب الطريق •• فى اتجاه المعسكرات ، واكتشفت وأنا أرتمى على السرير أننى

ألهث دون مبرر ، والعرق يتصبب من جبينى والدنيا برد ··

لماذا كل هذا السعى المحموم والحرص الشديد للوصول الى مدام ريتا ؟

هل أحببت مدام ريتا ؟

وطرقع السؤال فى نفسى وانفجر ، وانداح داخل أعماقى كأنه حجر ثقيل ألقى به مجهول فى بحيرة نفسى العميقة ·

صحيح ، هل أحببت مدام ريتا ؟

أنا شخصيا لا أدرى ، الهدف الوحيد الذى أسعى اليـه هو أن أكتشف مدام ريتا ! أو بمعنى أصح اكشف مدام ريتا ، هذه هى مهمتى فى المدينة التى تقاتل بلا سلاح ، وواجبنا الآن أن ننظف البيت من الداخل حتى لانفاجأ بمن يطلق النار على ظهورنا من الخلف !

ولكن لماذا مدام ريتا بالذات ؟ ولماذا مدام ريتا بالتحديد ؟

ولم أستطع الجواب ، فسكت ··

واستلقيت على ظهرى ورحت أستعرض أسماء ووجوه جميع الذين يسهرون على مائدة مدام ريتا حتى الفجر ··

أحمد بك العيسوى المليونير الذى ودع الستين منذ أعوام ، والذى يفقد صوابه بعد ثالث كأس ، والذى يوافق متحمسا اذا وافقت مدام ريتا ، ويعارض متحمسا اذا اعترضت !

وسيد بك عبد الخالق المهذب كأنه جرسون فى مطعم شهير ، الحريص كأنه ثعلب ، ابن الخامسة والخمسين ، صاحب شركات الملاحة التى توقفت أعمالها بعد أن نشبت المعركة فى القناة ··

والخواجا فرانشيسكو الايطالى الوسيم ابن الثلاثين ربيعا ، والذى تؤكد الاشاعات انه عشيق مدام ريتا ، ولكنه عشـيق طيب ، يؤمن بأن مدام ريتا شىء نفيس كالماء والهواء ·· يجب أن تكون للجميع !!

ثم حمزة عبد المقصود ، المليونير الذى يؤمن أن النقود سلعة يجب أن تشتريها بالنقود ، والذى ينفق الألوف ليربح الملايين ، وينفق الملايين ليربح الناس !

وعندما انتهيت من استعراض القائمة كلها ابتسمت ، فهؤلاء جميعا لن يقفوا حائلا بينى وبين مدام ريتا ، فأنا أكثرهم شبابا ، وأكثرهم ذكاء ، وأوسعهم نفوذا ، وهو المهم !

وارتاحت نفسى جدا لهذه النتيجة التى وصلت اليها ، فقد بدا لى الطريق مفتوحا الى مدام ريتا دون قتال ، وحتى لواحتاج الامر الى معركة فلدى كل أسلحة القتال ، وسأدخل المعركة بكل شبابى وكل غرورى ، وكل نفوذى !

نفوذى ؟!

نعم ، ولم لا ، اننى أراسل أوسع جرائد القاهرة انتشارا ، وبكلمة واحدة أستطيع أن أخفض من أشاء ، وأستطيع أن أرفع من أشاء ، ومدام ريتامشبوهة ·· ونحن فىمعركة ، وستحتاج حتما الى من يحميها ، وليس هناك من يستطيع حمايتهاسواى!

استيقظت فى الصباح ، وازحت الغطاء بعصبية وارتديت ملابسى على عجل ، ووقفت أتأمل نفسى فى المرآة أكثر من نصف ساعة كأنى عروس تستعد للزفاف ، وعندما اطمأنت نفسىاننى على خير مايرام ، غادرت حجرتى ورحت أهبط الدرج فى عظمة الطاووس ، وقطعت الردهة الطويلة الضيقة على مهل وأنا ألقى نظرات فاحصة على الصالونات المعطرة المتناثرة على الجانبين ، ثم تسمرت قدماىفجأة عند أحد الصالونات ، فقد أبصرت مدام ريتا فى ثوب أحمر كنار جهنم ، وشعرها الاحمر الذى فى لون الشاى يتهدل على كتفيها العاريتين فى نصاعة بياض العاج ، وشفتاها الوارمتان تطبقان فى دلال على سيجارة مشتعلة ·

وكانت تجلس فى مواجهتى ، وتنصت باهتمام الى رجل

يجلس قبالتها ، وظهره نحو الباب ، يرتدى بدلة زرقاء فاخرة ، ويتكلم بصوت خفيض ، ويستخدم يديه أثناء الحديث • ومضت لحظات وأنا واقف عند الباب أرقب مدام ريتا فى اضطراب •• وفجأة رفعت عينيها نحوى ونظرت الى فى استنكار ، فانحنيت انحناءة خفيفة •• فهزت رأسها فى غير اكتراث ، ثم عادت تنصت الى الحديث من جديد ••

وزاد اضطرابى فلم أدر ماذا أفعل ، وهممت بالانسحاب ولكن خانتنى قدماى •• فلم أستطع الحركة ، وفكرت فى اقتحام الصالون ولكننى لم أكن قادرا على تنفيذ شىء على الاطلاق •• وعندما رفعت مدام ريتا نظرها نحوى مرة أخرى ارتعشت ركبتاى ، فقد كانت نظرتها غير ودية ، بل كانت تحمل احتقارا زائدا لهذا السخيف الذى لايزال ملطوعا عند الباب ••

وابتسمت كالعبيط ، وسألتها فى ارتباك :

ـ حمزة بك مش هنا ؟

وحركت رأسها بالنفى ، ولم ترد وعادت تنصت الى الحديث من جديد ••

ونزعت قدمى وسرت أقطع الردهة الطويلة الضيقة ، وقد أصابنى موقف مدام ريتا فى الصميم ، وعندما وصلت الى باب الفندق كنت قد انهرت تماما ، فدفعت الباب فى غيظ وقفزت السلالم الى الشارع ، وسرت فى غير وعى لا أدرى الى أين أذهب ••

وفكرت فى الذهاب الى حمودة ، وسرت فعلا فى الطريق المؤدى اليه شوطا طويلا ، ثم عدلت عن ذلك ، فاليوم موعد حمودة مع الجبل ، والقمر يختفى اليوم ويظلم الكون ويزحف حمودة على رأس رجاله ليكتب بمداد من دم صفحة جديدة فى تاريخ مصر ••

هل أذهب الى فتحى بدير ؟ ولكن فتحى هو مستشار الكتيبة التى لابد أنها غادرت المدينه الآن فى طريقها الى الجبل لتبدأ زحفها المقدس فى الليل ، ولابد أنه مشغول بتخطيط المعركة ، وتدبير المؤن والذخائر ، واعداد الاحتياطى اللازم ٠٠ وزيارتى له فى هذا الوقت بالذات قد تعطله عن أداء الواجب الثقيل الملقى على عاتقه !!

أين أذهب اذن والمدينة خاوية على عروشها وليس لى فيها صديق ٠٠

وقادتنى قدماى فى غير وعى الى شاطىء البحيرة ، وعلى مرمى البصر كان عش النسر يطل فى خيلاء على البحيرة الفسيحة ٠٠ وتلال سيناء على الشاطىء الآخر تبدو من بعيد ، والجو بارد ولا أحد على الشاطىء والصمت يلف كل شىء ، ولولا طلقات طائشة تنطلق ناحية المعسكرات لظننت أننى فى جزيرة مجهولة وسط المحيط !!

ونظرت مرة أخرى الى عش النسر ، لابد أنه خال الآن فقد هجره حمودة منذ الصباح الباكر فى رحلته المجيدة الى الجبل ، لا يسكنه الا المرأة الدميمة ذات البشرة التى فى لون الفول السودانى المقشر ٠٠

ولكن عبثا حاولت أن أحصر تفكيرى فى مدام ريتا ، كنت كلما تأملت شيئا أو سرحت فى شىء ، انتهى تأملى وسرحانى الى مدام ريتا ، كأنما عقلى الباطن قد تحول الى مؤشر بوصلة ، اينما أدرته ، اتجه مرة أخرى نحو الشمال ٠٠

فى الصعيد يغسلون اهانة مثل هذه بطلقة رصاص ، وفى بلاد أخرى أكثر تمدينا يغسلونها بالمبارزة ، وفى أفلام كثيرة شاهدتها كان البطل يتقدم من المرأة اذا صوبت له نظرة أحتقار كهذه التى صوبتها نحوى مدام ريتا هذا الصباح ، ويصفعها

على وجهها صفعة قوية ، ثم يستدير الى الخلف ويذهب الى غير رجعة ..

ولكن ، ماذا كان ينبغى أن أفعله أنا فى موقف مثــــل هذا ؟ وهل كان فى مقدورى أن أفعل شيئا ؟ ..

الشىء الاكيد أننى ما كنت أستطيع أن أفعل شيئا ، حتى لو لطمتنى مدام ريتا على وجهى أو لطعتنى على قفاى ! .. فهــذه أول امرأة تقتحم حياتى ، وعدا قصص الحب التى قرأتها ، لم أكن جربت حبا على الاطلاق ..

مضت ساعات طويلة وأنا جالس وحدى على الشاطىء أهذى كالمحموم ، وأتحدث مع نفسى كالمجنون ، وعندما أفقت من ذهولى كان المساء يزحف ببطء .. وتلال سيناء تبدو من بعيد وهى تغيب شيئا فشيئا فى عتمة المساء وكأنها تنسحب من مكانهــا الى مكان آخر بعيد ، والسحب السوداء الكثيفة تتوقف بلاحراك فوق قمم التلال ، والسفن الكبيرة تتسلل عبر القنال فى الليل تشع نورا خافتا وكأنها نجوم تتناثر على بعد ملايين السـنين فى الفضاء ..

هذه الاسماك البشرية يأكل بعضها بعضا نتيجة غرور وقح هو أن الانسان سيد الكون !!

وينسى سيد الكون أن مصيره المحتوم الى الموت ، الى العدم ، الى التراب !!

وأرعشنى البرد الشديد الذى هبط فجأة على الكون مــــع الليل فانتبهت الى أننى وحيد على شاطىء الخليج فى الليل .. أتقيأ فلسفة جوفاء ، وأردد كلمات فارغة عن العــــدم والموت ! ولعل الامور تتطور فأهيم على وجهى فى شــــوارع الاسماعيلية كأننى قيس يناجى ليلاه !!

ما الذى حدث حتى أتحول الى مجذوب ؟ نظـــرة احتقار من

امرأة ؟! وما الذى بينى وبين مدام ريتا حتى أحمل الكون على رأسى كأننى الثور فى الاسطورة المشهورة ؟ لقاء عابر فى القطار ، ولقاء عابر فى الفندق ؟

ومن أنا بالنسبة لها ؟ مجرد صبى فى الثالثة والعشرين ، وبتاع جرايد كما قال احمد بك العيسوى وهو يترنح فى أول لقاء ..

وانتصبت واقفا على قدمى ، وألقيت نظرة على المعسكرات البعيدة التى كانت تشع نورا باهتا عبر الصحراء ، وألقيت نظرة أخرى على عش النسر ! واحتقرت نفسى بشدة ، فهناك يزحف الآن حمودة ، على رأس مجموعة من الرجال الطيبين الذين قضوا رحلة العمر يزحفون كالدود على البطون ، ولكنهم وفى الوقت المناسب يصوغون الحياة على النحو الذى ينبغى أن تكون عليه الحياة ، ويموتون لتنبثق حياة أخرى أكثر بهجة وأكثر نفعا للجميع ..

ربما كان عمله هذا نتيجة تهور ، ربما انتهى به الأمر الى مثل المصير الذى انتهت اليه هوجة عرابى !!

ولكن ، ماذا يهم حمودة ؟ ربما كان هذا هو منطق العقلاء ، ولكن من قال أن العقلاء هم الذين يصنعون التاريخ ؟

العقلاء يخططون الشوارع وينظمون حركة المرور ، ويبحثون عن وسائل جديدة لزيادة رقعة الارض المنزرعة ، والمجانين وحدهم يصنعون التاريخ !!

كان فندق بالاس يسبح فى الضوء عندما وصلت اليه ، وموسيقى راقصة تنبعث من داخله ، والخواجة فرانشيسكو يقف عند الباب ينحنى فى أدب للداخلين والخارجين ..

كان البهو عامرا بالرواد ، خواجات فى حلاوة القشطة ، ورجال أعمال فى ثياب السهرة ، والموائد حافلة بكل أنواع

الخمور ، والفرقة الموسيقية تعزف لحنا هادئا ، والضوء يغمر كل ركن ، واتجهت الى مقعد خال فى ركن منعزل ، وجلست أرقب الداخلين والخارجين ، وعيناى تبحثان فى كل شبر عن مدام ريتا ..

وفجأة ، دخل البهو الخواجة فرانشيسكو ، ووقف لحظات يبحث بين الوجوه الكثيرة عن شخص يريده ، وعندما استقر بصره على ، اتجه على الفور ناحيتى ، وانحنى على أذنى يهمس فى أدب بالغ :

ـ فيه ناس عاوزينك ..

ونهضت على الفور ، فقد خيل الى أن « الناس » الذين يريدوننى لابد أنهم مدام ريتا ولا أحد سواها ..

وتوقف الخواجة فرانشيسكو فى نهاية الممر الضيق الطويل وأشار الى صالون جانبى ، نفس الصالون الذى رمقتنى فيه مدام ريتا هذا الصباح بنظرة الاحتقار ، وقال : هنا ... اتفضل ..

ثم انسحب على الفور ..

وعندئذ ، أيقنت أن مدام ريتا هى التى فى الداخل .. لابد أنها أدركت خطأها ، وتريد الآن أن تعتذر لى . ولكن ، هل أقبل اعتذارها ؟ أم أرفض ؟

وترددت كثيرا قبل أن أدخل الصالون .. وهممت أكثر من مرة بسؤال فرانشيسكو عن الناس الذين يريدوننى ... ثم حزمت أمرى وتقدمت عند باب الصالون ، وألقيت نظرة على الناس الذين فى الداخل ، وكدت أسقط من هول المفاجأة ، فلم يكن هناك سوى المعلم حمودة !!

الفصل الرابع

عشرة أيام طويلة عريضة وأنا قائم قاعد آكل شارب فى عش حمودة أتقلب طول النهار تحت شمس الاسماعيلية الدافئـــة ، وأستمتع بمنظر بحيرة التمساح وأحدق فى الفضاء الى التــلال البعيدة ، ومعسكرات الانجليز فوقها كأنها نتوء بارزة من جوف

الصحراء ، والمعلم حمودة الى جوارى يقلب جمرات النار بماشة قضية بقيت له من أيام العز الغابر ٠٠ ويشفط أنفاس الجوزه ويراقب الشاى وهو يغلى فوق نار الدفاية ، ويرســـل أعوانه وأركان حربه لشراء الســـمك بالمدافع ٠٠ ولم أكن أبرح عش

حمودة الا قبيل الفجر ، والدنيا بردوالشبورة تخفى كل شىء ، والاسماعيلية غارقة فى الظلام ٠ وكان حمودة يتطوع بتوصيلى الى الفندق ومعه ثلاثة من أفراد جيشه ومدفع كل منهم يتدلى من فوق كتفه ، وأحيانا كانوا مبالغة منهم فى الحرص على حياتى وحياة حمودة يحيطون بنا طـوال الطريق ومدافعهم مصـــوبة

وأصابعهم فوق الزناد ·· وكان منظرهم يبدو غريبا أحيانا فانفجر فجأة ضاحكا ، فيسألنى المعلم حمودة عن سبب ضحكى المفاجىء فأنتحل له أسبابا شتى ، وكان يستمع اليها فى هدوء ، وهو يسير الى جوارى منكس الرأس ساهما على الدوام ··

والحق أن حمودة كان لا يتصور نفسه سائرا فى الليل بدون حرسه الحديدى ·· فقد كان يتصرف خلال الايام التى أعقبت تكوين الكتيبة كقائد كبير ، له نفس الاهمية التى للقائد البريطانى فى المنطقة ، ولم لا ·· وهو وحده الذى يواجه هذا القائد بجيش من الفدائيين !!

وكان يتوهم أحيانا أن الانجليز ترصد عشرة آلاف جنيه لمن يقتله ، وحكى له واحد من أفراد الكتيبة أن الانجليز أنشأوا داخل معسكر الاسماعيلية متحفا أسمه متحف حمودة ، وأن المتحف عامر بصور حمودة فى كل الاوضاع وبجميع الاحجام حتى بالحجم الطبيعى ·· وأن المتحف مفتوح لجنود الجيش الانجليزى ، للفرجة على حمودة كى يسهل عليهم بعد ذلك اصطياده عندما تنشب المعارك بينه وبين الانجليز ، وذات مرة ونحن نشفط أنفاس الجوزة على شاطىء البحيرة ·· والوقت مغرب والبحيرة شديدة الهدوء والسحر ·· قال المعلم حمودة وهو يعبث فى شاربه :

ـ لنجليز فرقوا صورى النهاردة ··

ـ فرقوا صورك ؟ فين ؟

ـ جوه الكامبات ··

ـ ليه ؟

ـ فرقوها ع العساكر عشان تعرفنى ··

وكتمت فى نفسى ضحكة كادت تطرقع رغما عنى ، وقلت بعد فترة صمت قصيرة :

ـ ومين قال لك الحكاية دى ٠٠ ؟

ـ الواد سعيد ٠٠

وكان سعيد هذا هو الذى يقوم بمهمة جمع الاخبار للمعلم حمودة ٠٠ وكان عبقريا فى المهمة التى اضطلع بعبئها ٠ فكان يحصل فى اليوم الواحد على نشرة أخبار كلها من هذا النـوع الذى يهز المعلم حمودة ويثير خياله ، ويستفز فيه عرق العظمـة والبطولة ٠ وكان المعلم حمودة يثق فى أخبار سعيد ثقة عمياء ، بالرغم من أنه ـ أى سعيد ـ لم يكن يفارق عش المعلم حمـودة الا ليشترى أحيانا مزيدا من ورق المعسل ، فقد كان على صلة صداقة بتاجر يبيع صنفا جيدا يصلح دون غيره لهذا اللـون من المزاج !!

وذات فجرية ونحن نتأهب للخروج من العش الى الفنـدق فوجئت بالحراس الثلاثة وقد ارتدوا زيا موحدا ، بنطلون وبالطو أصفر ، وثبتوا فوق صدورهم قطعة قماش خضراء من الجـوخ تحمل حرفين باللون الابيض هما : ح ٠ ح ٠

وعندما سألت حمودة عن معنى الحرفين قال فى أهمية بالغـة كمن يدلى بسر خطير :

ـ ح ٠ ح ٠ يعنى حرس حمودة ٠

وعلشان ايه دا كله ؟

ـ عشان ايه ازاى ، دول زى البوليس الحربى الانجليزى ٠٠٠

والحق ٠٠ انه حدث تطور غريب فى بسـلوك حمـــودة وفى شخصيته أيضا منذ أن جاء الى الفندق بالاس فى ذلك المساء الذى تخيلته فيه زاحفا على بطنه فى الجبل على راس رجاله ٠٠ فعندما دعانى الخواجة فرانشيسكو من بهو الفندق الى مقابلة الشخص الذى يريدنى فى صالون جانبى صغير ، والذى توهمتـه أول

الامر مدام ريتا تريد أن تعتذر عما بدر منها فى الصـــباح .. :
فوجئت بالمعلم حمودة جالسا فى الصالون ، وبنفس ملابسه التى رأيته فيها أول مرة ، ومسدسه الضخم يحتل مكانه تحت طيات ملابسه عند القلب بالضبط ..

ووقفت برهة أنظر نحوه مندهشا • والارض تدور بى كأننى على صينية فى لونوبارك .. أين الجبل اذن ؟ والزحف فى الليل عندما يختفى القمر ؟ وهل كان الامر كله مجرد مزاح ؟ الجيش المتحفز .. وطلقات الرصاص ، وكلمات الوداع وهو يصافحنى فى الليل وسط الحوش قبل أن يبدأ رحلته المقدسة نحو الجبل ؟ ونظر حمودة نحوى كما اعتاد أن ينظر الى كل الناس ، بعينيه اللتين فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وقال وكأننا كنا على ميعاد :

ـ مراحب ..

وقلت وأنا أجلس فى مواجهته وبنبرة لم تخل من السخرية :

ـ هوه دا الجبل اللى انت طالعه ؟

وتجاهل حمودة سخريتى تماما وقال فى حده :

ـ ملعون أبو الجبال اللى فى العالم كله ، مش طالعين جبـال .. من غير مؤاخذة ..

ـ ليه ؟

ـ لما أصفى حسابى مع الحكومة أبقى أطلع الجبل ..

ـ وهوه فيه حساب بينك وبين الحكومة ؟

ـ معلوم فيه حساب .. أما أشوف دى حكومة بتاعتنا ولا بتاعة الانجليز •

ـ طيب ماتقولِّى ايه اللى حصل ..

قال وصوته يعلو :

ـ أهو اللى حصل حصل .. حكومتك وقفت قصادى ، مش عاوزانا نطلع الجبل ..

ثم أمسك بطرف شاربه وجذبه بشدة وقال وهو يهدد :
ــ ما يبقاش دا على راجل ، ان ماحاربتش الحكومة !!
اذن ٠٠ هدا خبر جديد ، وهو خبر لو صح لأحدث هـــزة في الدنيا كلها ٠٠ حمودة لم يطلع الجبل لأن الحكومة منعته ٠٠ وقفت قصاده ٠٠ حالت بينه وبين الموت في أشرف مهمة ٠٠
وسألت حمودة في لهفة :
ــ ايه اللى حصل بالضبط ؟

وأزاح حمودة الثوب قليلا من فوق عينيه وراح يحـــكى لى تفاصيل ما حدث ، فقد رأى حمودة أنه لابد من تنظيف البيت من الداخل قبل أن يذهب الى الجبل ، ورأى أن الخطوة الحاســمة لانجاز هذه المهمة هى الهجـوم على بنك باركليز الذى يقــع فى قلب المدينة والذى يقـــوم بحراسته جنــــود البوليس المصرى والاستيلاء على كل ما فيه ٠٠ مادامت اموالة انجليزية ، ولكنه فوجىء فى اللحظــة الاولى للهجوم بمئـــات من جنود البوليس يحيطون به ويقبضون عليه ، متلبسا بالسطو على البنك ٠ وخاف المحافظ من الفضيحة فأطلق سراحه ، وسراح رجاله بشرط الا يعاودوا الهجوم على المنشآت التى تقع فى قلب المدينة ، حتى لو كانت تابعة للسلطات البريطانية !!
وسألت حمودة بعد أن سرد القصة :
ــ وبعدين ؟

ــ ولا بعدين ولا قبلين ، هنطلع الجبل نعمل ايه ؟ اذا كانت الحكومة مستخسرة فينا فلوس الانجليز اللى ملقحـه فى البنك يبقى هنطلع نعمل ايه ، يعنى عاجبك أطلع أنا الجبل وأمـوت ، والمحافظ قاعد مبسوط أربعة وعشرين قيراط !!

وقال وهو يحدق فى عينى ، ويده تهرش فى قفاه
ــ ايه رأيك ؟

ولزمت الصمت ، لم أتكلم ، تمنيت لو كانت لدى القـوة لأصفع حمودة على قفاه ·· هذا الثور البليد !!

ترى أين فتحى بدير هو الآخر ؟ ·· مستشار حمودة الـذى ظننته وأنا جالس وحدى على شاطىء البحيرة منهمكا فى تخطيط المعركة وتدبير الذخائر والمؤن لجيش حمودة الصغير !! عن أى شىء يبحث هو الآخر ؟ وفى أى مكان موجود هـذه اللحظة ؟ مخمورا أو مسطولا يتحدث فى براعة عن جيش حمودة العظيم !

وقطع المعلم أفكارى وقال فى لهجة آمرة :

ـ أنت تكتب حاجة عن الموضوع ده ··

ثم ثنى أصبعه وعض عليه بقسوة ، ثم قال :

ـ الحكومة تحارب حمودة ·· ايه رأيك ؟

وعند ما أبطأت فى الرد عليه ، استأنف حديثه على الفور :

ـ بكره نقراها انشاء الله ؟

قلت وأنا أتعمد الهدوء :

ـ بعدين يامعلم حمودة ··

وهب حمودة ثائرا ، وقال فى غيظ شديد :

ـ بعدين أمتى ؟ لما يغرقونا ، الكتيبة عاوزة فلوس ، نجيب منين ، والا يعنى خسارة فينـا ·· طيب ودين النبى أدردكها هيه أيه الحكاية ·· مادامت الحكومة هتحاربنا ، هنحاربها ··

ارتفع صوت حمودة حتى أصبح كالرعد عندما وصل بحديثه الى تهديده للحكومة ·· وكان الحماس قد استبد به فقـذف المائدة الصغيرة التى تتوسط الصالون بقدمه وألقى بها بعيدا · وقد تناثر ما عليها فى كل اتجاه ·· وجاء فرانشيسكو عـلى الضجة ، ثم تراجع مذعورا عندما رأى حمودة ، وانحنى عـلى الارض يجمع أعقاب السجائر وأعداد الجرائد وفناجين الشاى ·

ولكن ثورة حمودة لم تهدأ ، بل ازدادت لهيبا وقال وهـو

يضرب المقعد بقبضة يده :

ـ طيب يا حكومة ·· أما أشوف أنا راجل وهنفذ اللى فى بالى والا لأ ؟ ··

وعندئذ فتح الصالون ضابط كبير ·· وقف برهة على الباب ينظر نحونا فى دهشة ، وعندما رفعت بصرى الى وجهه اكتشفت أنه الضابط الذى كان رفيق الديوان فى قطار الليل ·· ونهضت على الفور ومددت يدى نحوه مصافحا ··

وذابت ثورة حمودة فجأة ونهض هو الآخر ، وصافح الضابط الكبير وهو يحنى رأسه ، ثم جلسنا والضابط بيننا يستفسر عن سر الضجة التى كانت منبعثة من الصالون ، وقدمت له المعلم حمودة على أنه قائد كتيبة وحوش الجبال ·· وزعمت له أن سر ثورته هو حاجته الشديدة الى السلاح ليدخل المعركة ضد قوات الاحتلال ··

ومط الرجل شفتيه ، ثم قال والاسى يبدو عليه :

ـ عرفت ايه اللى حصل دلوقت ؟

ولما أجبته بالنفى ، قال فى أسى حقيقى :

ـ عشر عساكر ماتوا دلوقت ··

قلت وقد غمرنى فرح شديد ··

ـ انجليز ؟

ورد الضابط فى هدوء :

ـ لا ·· عشر عساكر بوليس ·· ماكانش معاهم سلاح ·· كان معاهم شوم ·· كانوا رايحين نقطة بوليس فايد الانجليز ضربوهم بالنار ··

وضغط الضابط على أسنانه كأنه يطحن شيئا صلبا تحتها ، ثم قال وهو يدق على فمه ، بقبضة يده :

ـ دى مش حرب •• دى جريمة ••

وظل يكـــرر كلمة جريمة • ثم ســـكت وعض على شفتيه بقسوة ••

ثم زفر بشدة قبل أن يضطجع على مقعده واضعا ساقا عـلى ساق ••

وهزتنى ثورة الضابط العجوز الذى لم يبق أمامه سوى عام أو بعض عام ، قبل أن يهجر منصبه الى الابد • ولكنه بالرغم من ذلك لايزال يحتفظ بحيوية الشباب ، ويحرص على اعلان رأيه فى حدث خطير مثل هذا ، وهو رأى قد يغضب السادة الكبـار فى القاهرة !!

وانتزعت قلما من جيبى ودونت تفاصيل الحادث •• ثم قلت للضابط الكبير وأنا أطوى الورقة :

ـ هل أكتب الحديث منسوبا اليك أم أنسبه الى مصـــــدر مسئول ••

وقال فى غير مبالاة :

ـ أكتب ماتشاء •• اذا أردت أن تكتب اسمى فاكتبـه ثم قال على الفور :

ـ اسمى زكى مراد ••

ونظرت الى حمودة الذى كان ينصت الى الحديث الدائر بيننا فى اهتمام •• وعندما التقت عيناى بعينيه قال وهو يهز رأسه فى أسف وعيناه تلمعان ببريق غريب :

ـ الله يرحمهم ، دول عساكر غلابة ، وهمه دول قد الانجليز ، طيب يدونى اللى أنا عاوزه وأنا أوريك ••

ثم هب واقفا على قدميه ، وأعاد طرف العمامة الى مكانهـا فوق عينيه ، ثم صافح الضابط فى أدب ، وسحبنى من يدى الى الخارج •• ثم قال وهو يضغط على يدى بشدة ليؤكد لى قوته :

ـ لازم تشوف حل في الموضـوع ده أنا مش طالـــع الا اذا سنحت انبنك ده ٠٠

ثم سكت قليلا وقال فى مودة :

ـ انت وراك حاجة دلوقت ؟

وقلت وأنا أسحب يدى من قبضته الفولاذية :

ـ أيوه ، عندى شغل مع اللواء زكى مراد ٠٠

ـ شغل مهم يعنى ؟

ـ أيوه ، ليه ؟ فيه حاجة ؟

وقال وهو ينصرف نحو الباب :

ـ أبدا ٠٠ كنا نروح نشرب نفسين ٠٠

وشكرته ،وودعته عندالباب وصعدت وثبا الى غرفتى بالفندق ٠ ولم يمض نصف ساعة حتى كنت قد انتهيت من ابلاغ الجـريدة تفاصيل الحادث ، ورأى اللواء زكى مراد فى الموضوع ، ثم غادرت غرفتى وهرولت الى حيث كان يجلس اللواء زكى مراد ٠٠

وتملكنى غيظ شديد وأنا أهبط الدرج لانى لم أكتشـــف حمودة عند أول لقاء ، هذا الثور الذى يشترط للدخـــول فى المعركة أن ينهب البنك ، والذى يصـــافح الضابط الكبـــير ، وينصرف فى هدوء ليشرب نفسين مع أفراد جيشه الصغير وتنتهى القعدة آخر الليل باطلاق النار فى الهواء !!

كنت قد وصلت الى باب الصالون الذى يجلس فيـه اللواء زكى مراد ٠٠ ولكننى ترددت فى الدخـــول عندما جلجلت فى جنبات الحجرة ضحكة ناعمة ٠ وعندما اختلست نظرة من الداخل اكتشفت أن الضابط الكبير لم يكن وحده ، كان الى جواره حمزه بك عبد المقصود ، وفى مواجهته مدام ريتا ، وفى نفس الثوب الاحمر الفاقع فى لون النار ، وشعرها الذى فى لون الشـــاى ينسدل على كتفيها البضتين ، وعنقها العاجى الدقيق ٠٠ وكانت

تضحك في دلال ، وزكي بك يبتسم في وقار ، وحمزة بك يصب
في جوفه ما تبقى من كأسه ، وتوقفت دقيقة لاأدرى ماذا أفعل
.. ثم انسحبت في هدوء واستدرت الى الخلف وهرولت نحو
الشارع .. وزحت أعدو في طريقى الى البحيرة .. الى عش المعلم
حمودة ..

وهكذا مضت عشرة أيام طويلة وأنا مرابط في عش المعلم
حمودة لا أكاد أفيق لحظة حتى يبزغ الفجر فأخرج في موكب
حمودة المسلح الى فندق بالاس . لأعود اليه بعد ساعات أواصل
مع المعلم حمودة ورفاقه ما انقطع بالامس ..

وخلال الايام العشرة لاحظت تطورات خطيرة بدأت تطرأ
على شخصية المعلم حمودة .. فقد بدا خلال تلك الايام ، وكأنه
نسى كل شيء عن المعركة وازداد اهتمامه برجاله .. وازداد
اهتمامه أكثر بنفسه .. وظهرت عليه فجأة آثار النعمة حتى
خلت أنه سطا فعلا على البنك .. وأنه لفق قصة محاصرته
والقبض عليه !!

وفى خلال الايام العشرة التى قضيتها مع حمودة في عش
النسر ، كانت عربات الكارو تحمل الى العش قطعا شتى من
الاثاث . سرير فاخر ومكتب ، وطقم مذهب . وكلها لاستعمال
المعلم حمودة .. وكان البناءون خلال النهار يواصلون العمل
بشدة في بناء حجرة تليق بمقام المعلم حمودة ، وعندما انتهوا
منها .. انهمك حمودة في تأثيثها ، وثبت على بابها لافتة نحاسية
تحمل كلمتين « ممنوع الدخول » ..

واستطاع حمودة بطريقة ما أن يحصل على بدلة ضابط
انجليزى برتبة بريجادير .. والتقط لنفسه صورة ضخمة وهو
داخل البدلة ، وعلقها على جدار في الحجرة .. وكان يرتديها
أغلب الاوقات حتى وهو منهمك في اعداد النار وتدخين الجوزة

.. ولما سألته عن سر تمسكه بارتداء البدلة داخل العش قال وهو يغمز بعينيه :

ـ عشان ماحدش يعرفنى !

وكان شديد الحرص على شراء أجود أنواع السمك ، وأفخر أصناف الحشيش وباع مسدسه القديم واشترى مسدسا آخـر مطعما بالصدف ، وكان رجاله أحيانا يفدون الى العش فى أول الليل ومعهم نساء متخفيات لم أتبين حقيقتهن أول الامر .. وكان المعلم حمودة يختلى بهن كثيرا داخل حجرته الجديدة ، تاركا اياى مع رجال الكتيبة فى الحـوش نباشر اعداد الشـاى للمعلم وضيوفه ..

وذات مساء تطوع هو بالحديث عن وفود النساء التى كانت تفد الى العش فى الليل وقال وهو يلعق شفتيه بلسانه :

ـ دول نسوان خواجات ..

ولما فتحت فمى دهشة من المفاجأة ..

قال وهو يربت على كتفى برفق :

ـ لأ .. دول مش لعب . دول بيجيبولى أخبار المعسكرات .

ولم يبد المعلم حمودة أى اهتمام خلال هذه الايام بالمعـركة الناشبة فى القناة .. خيل لى أنه نسيها تماما ، أو أنه يحاول تسيانها بحرق أكبر كمية ممكنة من الحشيش ..

وكما نسى المعلم حمودة المعركة أو حاول أن ينساها .. كنت أنا الآخر أحاول أن أنسى مدام ريتا .. ولكنى كنت أحيانا أوجه أسئلة أحرص دائما على أن تبـدو أنها عابرة عن مـدام ريتا ، وكان هو يجيب عليها باقتضاب وفى غير اهتمام .. وذات مرة نظرت الى حمودة عقب سؤال وجهته اليه عن مدام ريتا ... وارتعش حاجباه ، ونظر الى وهو يتفرس بعينيه اللتـين فى لون العسل المخلوط بالطحينة . وقال :

ـ ايه الحكاية ·· مدام ريتا ·· مدام ريتـــا ·· انت ايه مغرم صبابة قوى ··

وقلت له وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا :

ـ أبدا ·· بس أنا عندى خبر عنها يهز الدنيا كلها ··

وانتفض حمودة وهب من فوق مقعده وقال وهو يجز عـــلى أسنانه :

ـ خبر ·· خبر ايه ؟

ـ كانت سهرانه من أسبوع فى معسكر الانجليز بالاسماعيلية·

ـ سهرانة مع مين ؟

ـ مع كابتن اسمه ويليامز ··

وبلا وعى ، اندفع حمودة يكذب الخبر ·· ويؤكد لى أن مدام ريتا طيبة للغاية ، ووطنية مخلصة ، وأن أعداءها فى المدينـة يشيعون عنها مثل هذا الكلام الفارغ ·· وفى النهاية طلب منى عدم نشر هذا الخبر لان فى نشره اساءة بالغة لحمودة !

وتملكتنى الدهشة لموقف حموده ·· فما علاقة مدام ريتـا بحمودة وكيف يسىء خبر عن مدام ريتا لحمودة شخصيا ؟

ولما استفسر منه عما يقصده بالضبط قال وهو يهز رأسه بطريقة توحى أنه يعلن أسفه لخيبتى العريضة :

ـ لو ماكنتش مدام ريتا ، كناقفلنا الكتيبة دى من زمان ··

ـ ليه ؟

ـ ليه ايه ؟ هيه اللى بتصرف عليها ياأســـتاذ ، دى أجدع الراجل ··

مدام ريتا تصرف على الكتيبة ؟ ولماذا ؟

ماشأنها هى بهذه القضية · الحسناء الايطاليـة التى تؤكد الاشاعات انها على علاقة وثيقة بقوات الاحتلال ؟

وهل كل مظاهر البذخ التي يعيش فيها حمودة وأفراد جيشه الآن من خير مدام ريتا ، وهل هى ثرية الى هذا الحد ؟ أم انها واسطة ، والنقود التي يحصل عليها حمودة من مدام ريتا مصدرها مجهول ، ولعلها سلطات الانجليز فى المنطقة ؟

أشياء متشابكة وغريبة ومريبة فى نفس الوقت ؟

هل الامر جد أم هزار ؟ وكيف يمكن أن يكون جد ، وحموده يدخن الحشيش طول النهار ، وفى بدلة الجنرال وينفق عن سعة من خير مدام ريتا ؟

المسألة الآن هزار فى هزار .. والمعركة الناشبة لاتحتمل هزارا سخيفا من هذا النوع ، وأنا أيضا مسئول عن هذه النهاية الغريبة التى تطورت اليها المعركة ، أنا شخصيا خاطىء مثل حمودة ومثل الايطالية الحسناء !

والحكومة التى فى القاهرة ، ألغت المعاهدة ووقفت تتفرج ، والأحزاب كلها تتآمر على المعركة ، والملك يتربص بها وبالشعب .. وحمودة خاض المعركة للحصول على أجود اصناف الحشيش، وأفخر أنواع السمك .. وأنا هنا فى المعركة أتفرج ، لا .. أتأمل . فالمسطول لايتفرج ، انه يتأمل وعيناه نصف مفتوحة . ونصف عينى المفتوحة يبحث فى نهم عن المرأة ذات الشعر الاحمر فى لون الشاى !

وافقت على يد المعلم حمودة تهزنى فى عنف .. وقال وهو يصرخ فى وجهى :

ـ أوعى تنشر حاجة . لازم تقابلها الاول .. قابلها وافهم كل حاجة ..

وعندما سكت ، ولم أتكلم ، استأنف حديثه قائلا :

ـ ايه رأيك ، تقابلها بكره ..

وقلت وأنا لازلت ساهما :

ـ فين ؟

ـ فى اللوكاندة ، ايه رأيك ؟

وتمتمت فى همس :

ـ اتفقنا ..

ومد المعلم حمودة كفه الغليظة نحوى وقال :

ـ كفك ..

ومددت كفى أنا الآخر .. وتشابكت أصابعنا فى ضمةقوية، ورائحة الحشيش تنفذ فى الخياشيم ، وأصوات الطيور المهاجرة نحو الغرب تملأ الجو .. والليل بدا أشد بهجة عن ذى قبل .. والبحيرة بدت أكثر اتساعا ، وأحسست كأنى أهم بالطيران ..

الفصل الخامس

قبل أن ألتقى بمدام ريتا ذلك المساء الرائع من نوفمبر فى جناحها الانيق بفندق بالاس ، لم أكن قد التقيت بامرأة جميلة فى مغامرة مثل هذه من قبل • ولم تكن لى مغامرات من هـــذا النوع تعيننى على مواجهة الموقف ، وكانت كل تجاربى فى هذا الميدان محدودة وتافهة ، لم تكن تجارب ، كانت شقاوة وكانت بطلتها ، تلميذة فاشلة تعلمت الحب فى السينما ، وكانت تصر كلما التقيت بها على سلم البيت المظلم على اتهامى بالخيـــانة ، وكانت تنطق بالكلمات على طريقة عزيزة أمير وكل عضــلة فى وجهها تختلج ، وكأنها تمثل الدور أمام كاميرا غير منظـورة ، وكانت تحدق طويلا فى وجهى ونحن نجلـس على درجات السلم المكسورة ، ثم تقول بنفس اللهجة التمثيلية :

ـ حلمى ، أنا خايفة •

وكنت أهب واقفا من شدة الذعر أتلفت هنا وهناك ثم أعود الى الجلوس وأهمس فى أذنها أحاول أن أدخـل الطمأنينة عـلى قلبها :

ـ ماتخافيش ، مافيش حد ..

وعندئذ كانت تغلق عينيها ، وتلقى برأسها على صدرى وتقول فى دلال شديد :

ـ أنا خايفة أحسن سعادتنا تنتهى قوام .

ولم تكن ثمة سعادة نحس بها على الاطلاق ، فالسلم مكسور ، ورائحته الخبيثة تفوح فى الجو ، وتبعث على الغثيان . ولم أكن أحمل فى جيبى مايكفل ثمن فنجان قهوة واحد ، ولم يكن هناك أمل فى أن نلتقى يوما ما فى مكان آخر غير السلم ، فلم تكن ملابسها تسمح بدخول مكان آخر ، ولم تكن نقودى تسمح بتحقيق هذا الأمل الجميل .

وكانت المسكينة كلماانتهى لقاؤنا طوقت عنقى بيديهاوبكت وكانت تبكى فى حرقة وهى تتشنج فى عصبية وكنت أتخلص من يديها باستعمال العنف أحيانا ، وكانت تقف على السلم وأنا صاعد للشقة تلوح لى بمنديل رخيص مكرمش وصوتها يتهدج من فرط التأثر :

ـ مع السلامة ياحلمى .

وكان هذا الوداع الحار يتكرر كل يوم ، وكأننى مسافر الى أقصى الارض .

كانت المسكينة تمثل معى دورا غراميا عنيفا شاهدته على الشاشة ، وكانت لفرط اندماجها فى الدور تصر على أننى أشبه تماما حسين صدقى ، بالرغم من انعدام الشبه بينى وبينه ، ثم هجرتنى بعدذلك ، عندماالتقت بشاب ظهرمرة فى دوركومبارس فى أحد الأفلام .

وتجربة أخرى خضتهامع خادمة كانت تعمل لدى أحد القضاة العظام . وكان القاضى يعيش مع أسرته فى قصر كبير على حافة

المزارع • وكنت ألتقى بها كلما خرجت لشراء اللحم والخضر كل صباح • وفى المساء كانت تنتحل ألف عذر لتحصل على أذن بالخروج • وكانت تنزع منديلها المحلاوى من فوق رأسها قبل أن تقفز سلالم القصر الى الشارع • وكانت تصر على أنها ابنة البيه القاضى وكنت أتظاهر بتصديقها بالرغم من قدميها الحافيتين • وكانت تنطق بالكلمات كأنها بنت فى الثالثة تتعلم النطق بالكلام • وكانت تظن أنها لغة بنات الذوات • وكنت أصحبها

أحيانا الى محل طرشى بلدى ، فقد كان القاضى مغرما بالطرشى الى حد كبير ، وكانت مائدته لاتخلو أبدا من سلطانية الطرشى، وكان اذا افتقد السلطانية على المائدة لايتذوق الطعام • وكانت تزعم

انها هى التى تحب الطرشى ، وانها تذهب بنفسها لتشتريه كل يوم لانها وحدها هى التى تأكل الطرشى، ولم تكن بالطبع تجد ما يبرر شراءها هى بالذات دون أخواتها أبناء القاضى ، اللحم والعيش والخضار !!!

وذات مرة ونحن فى طريقنا الى محل الطرشجى قالت تسألنى بلغة الذوات :

ــ انت بتحب الطلسى

وقلت أسألها وأنا فى منتهى الدهشة :

ــ باحب ايه ؟

وقالت وهى تتثنى :

ــ الطلسى ؟!

ــ آه قصدك الطرشى

ــ أيوه ••

ــ أيوه باحبه •

وقالت وقد أخذتها موجة من الدلع البايخ :

ـ فيه حاكة «حاجة» كمان أنا باحبه ٠

ونظرت اليها فى غيظ فاضطربت وهممت لشـدة غيظى أن أصفعها قلمين على وجهها الكالح الشاحب ، ولكن أنقذ الموقف صرخة رهيبة انطلقت من فمها فجأة ، ثم ركعت عـلى الارض تتحسس قدمها وهى تصرخ وتبكى ٠ وعندما انحنيت على قدمها اكتشفت أن قطعة زجاج حادة شطرت جلد قدمها فتدفق دمهـا كالنافورة ٠ وأشفقت عليها جدا فحملتها معى الى الشـقة ، وضمدت لها الجرح ولففته بقطعة قماش من قميص ممـزق ٠ ومنحتها حذاء قديما مثقوبا من أسفل فقبلته شاكرة والفرحـة تلمع فى عينيها ٠ وعندما هدأ الجرح قليـلا عادت الى طبيعتهـا الاولى ، فجلست تحكى لى عن قسوة أبيها القاضى لانه متزوج من امرأة غير أمها التى ماتت وهى طفلة ٠ وقصت رواية محبـوكة توحى بموهبة قصصية فذة ٠٠ وبعد أن انتهت منها بكت فى أسى حقيقى ، ثم خطفت السلطانية وهرولت نحو بائع الطرشى

وذات مساء كنت أسير معها نحو قصر القاضى وكان الظـلام شديدا ، فلم نتبين الذى كان يقف فى الشرفة يترقب عودتها وقد أقلقه غيابها الطويل ٠٠

وعندما اكتشف القاضى اننى معها شخط فى لهجة آمرة :

ـ بت ياسيدة ٠

وارتاعت البنت جدا للمفاجأة ونسيت نفسها وسقط قنـاع الكذب من فوق نفسها ، فقالت والرعب يأكلها :

ـ نعم ياسيدى ٠

ولم أسمع بقية الحوار ، فقد أطلقت ساقى للريح وكان هذا آخر عهدى بسيدة ، فقد طردها القاضى فمضت الى حيث لايعلم أحد !

كانت هذه كل تجاربى فى الغرام وأنا طالب مفلس ولم يكن فيها ما يفيدنى مع مدام ريتا ، الحسناء المجـــربة التى احترفت عشق الرجال ٠

وكان حموده قد جاءنى فى الصباح وقال وهو يرسم ابتسامة عريضة أكلت معالم وجهه كله :

ـ ابسط ياعم ، الست هتقابلك بالليل ٠

ثم غمز بعينيه وهو يزغدنى فى جنبي ولم ينس وهو خارج أن يدس فى يدى بقطعة أفيون ، ثم التفت نحوى وقال فى فخر شـــديد :

ـ عشان تبقى تدعيلى

ولكننى رغم كل شيء أحسست وأنا أقطع الطريق نحوجناح مدام ريتا أننى مقبل على مغامرة مجهولة محفـــوفة بالمخاوف ، وأحسست فى الوقت نفسه بزهوعظيم كأننى أول رجل فى العالم اختارته الأقدار لعبور المحيط وارتديت قناع الاهمية ، وطرقت الباب فى رفق وفتحت مدام ريتا ، وابتسمت فى حلاوة ثم أغلقت الباب ، ووقفت تنظر نحوى قليلا ، ثم قهقهت وصوتها يرن كأنه كئوس ذهبية يقرعها بعض السكارى فى ليلة مكتملـة الأنس والانسجام ٠

وسابت مفاصلى وتفككت لضحكتها واجتاحنى رعب هائل ، لقد خيل الى أن شيئا ما فى وجهى انتزع منهـا هذه الضحكة المجلجلة ٠ ترى هل هو شاربى الرفيع كأنه حاجب غانيـة لها وجه مرسوم ؟ أم أنفى الضخم أم فمى الواسع ؟ ٠٠

وعندما دعتنى للجلوس ، جلست كأننى تلميـذ خائب فى مدرسة أولية ٠ وسادالصمت بيننا فترةحاولت أن أبدده بالكلام

أكثر من مرة ، ولكنى فشلت وعندما نجحت محاولاتى فى النهاية قلت كأننى فلاح منوفى لم يغادر قريته قط ٠

ـ أزيك يامدام ريتا ٠

وهزت رأسها واكتفت بالابتسام ٠

وبعد فترة صمت أخرى ، قلت لها وبنفس اللهجة الرسمية ـ

ـ سلامات ٠٠

ويبدو انها لم تفهم معنى الكلمة فاستفسرت عما أطلب فقلت وأنا أرتعش من شدة الاضطراب :

ـ أهلا وسهلا ٠٠

ومضت نصف ساعة ثقيلة قبل أن تنهض مدام ريتا وتحضر زجاجة ويسكى وكاسين ٠ وعندما أفرغت الكأس الاول فى جوفى أحسست بنشوة عارمة ، وبعد نصف ساعة أخـــرى كنت قد أفرغت نصف الزجاجة فى جوفى ، وعندئذ أخذت راحتى أكثر ومددت ساقى الى آخر ما أستطيع ، وألقيت برأسى الى الخلف ٠ وجلست أدندن بأغنية قديمة وحاولت فى كل ماأفعله أمام مدام ريتا أن أبدو كأحد رعاة البقر المغامرين فى أفلام أمريكا ٠

ونظرت مدام ريتا نحوى وهى تبتسم نفس الابتسامة الحلوة، وقالت فى نغم :

ـ انت زعلان ليه ، المعلم حموده حكى لى كل حاجة ٠٠

ونظرت اليها فى استهتار ، والخمر تكاد تفقدنى وعيى وقلت لها وأنا أهز قدمى :

ـ أنت حلوة ، شعرك حلو ٠

وضحكت المرأة الجميلة وهزت رأسها الجميـل فى رشـاقة ٠ فاهتز شعرها كله ، ثم وضعت ساقا عـلى ساق وكشفت عـن فخذها فى حركة غير مقصودة ٠ وحدقت فى الفخذ العارية بعين

نهمة مجنونة واشعلت النار فى نفسى ، فمددت يدى المرتعشة ولمست الفخذ الجميلة ، وأحسست بها تحت أصابعى المرتجفة طرية كأنها طبق بلوظة حارة أو كأنها رغيف عيش خارج من الفرن

وأرعشت مدام ريتا ساقها ومدت يدها تبعد يدى فى دلال ، وقالت وهى تضحك :
ـ لأ .. مش وقته !

كانت رأسى قد دارت من أثر الخمر وفقدت توازنى تماما ، ولم أعد أميز الأشياء بوضوح ، وكل شىء بدأ يتحرك أمامى ويرتعش . وسقط القناع الزائف الذى كنت أرتديه لحظة وصولى الى جناح مدام ريتا . وعدت الى حقيقتى صبيا فى الثالثة والعشرين يلتهب رغبة وشبقا . وأحسست بضعفى أمام المرأة الجميلة وشعرت بأننى أتفه مما قدرت . وأهيف مما ظننت . وتمنيت لو أخرج من حجرة مدام ريتا الى الشارع . وأنزوى فى عش المعلم حمودة ، أدفن ضعفى فى ضباب الحشيش ، ولكن حتى هذه الأمنية لم أكن قادرا على تحقيقها ، كانت أى حركة من هذا النوع تستلزم شجاعة لم أملك منها شيئا .

وأخذت أبحث عن موضوع أتحدث فيه مع مدام ريتا ، وكان لابد من اختيار موضوع أجيده ، لكى أؤكد تفوقى على المرأة الجميلة ، وأنا لا أجيد الحديث الا فى السياسة . وبدأت أتحدث عن الأحزاب ومناوراتها والملك وخيانته . وظللت أتكلم بلا انقطاع كأننى حنفية مفتوحة ، والمرأة الجميلة لاتبدى اهتماما بالحديث، وبدا عليها أنها لاتفهم شيئا مما أقول . واضطربت مرة أخرى فغيرت مجرى الحديث الى الصحافة ، وتحدثت طويلا عن الصحف، وموقفها من المعركة ، وعن الصحفيين، ودورهم فى حرب التحرير . وكنت حريصا بالطبع على أن أؤكد خلال الحديث أننى صحفى كبير ومرموق ومسئول وقادر على صنع المعجزات . وسألتها فى

نهاية حديثي عما اذا كانت قد قرأت مقالاتى الاخيرة ٠٠ هزت رأسها الجميل بالنفي ٠٠ وقالت في بساطة :
ــ أنا ماعرفش أقرا عربى !! ٠٠

وعندئذ انهرت تماما ورحت أتكلم فى كل شيء وعن كل شيء٠ كلاما فارغا للغاية ، ورحت أشتم كل شيء وأى شيء ، حمزة بك عبد المقصود ، والمعلم حمودة والانجليز ، والنســاء ، ولم أترك شيئا الا وشتمته كأننى سكران مفلس نهض آخر الليل يحطم كل شيء فى الحانة !

وقالت مدام ريتا وقد بدا عليها الضجر الشــديد والقــرف أيضــا :
ــ بتحب المزيكة ٠٠

قلت وأنا أهز رأسى كأننى أستاذ فى معهد الموسيقي :
ــ طبعا
ــ بتحب مزيكة مين ؟ ٠٠
ــ بتهوفن ، وجوهان ستراوس
ــ تحب تسمع ايه لستراوس
ــ الدانوب الازرق ٠

ونهضت مدام ريتاوأدارت أسطوانةالدانوب الازرق ،ورحت أستمع الى الاسطوانة فى شغف مصطنع ٠ وأنا أرسم على وجهى علامات الرضا أحيانا ، وعلامات الاهتمام أحيانا أخرى ٠٠

وفى الحقيقة لم أكن من المهتمين بسماع الموسيقى من قبل ولم أكن من الخبراء فى علم المزيكة ، صحيح أنا أحب الاستماع اليها دون أن أفهمها ، ولم أكن أحب موسيقى بتهوفن ٠ ولــكننى كنت أعلم أن الناس تحب موسيقاه ، وقدرتأن مدام ريتامادامت من هواة الموسيقى لابدتحبها هىالاخرى ، ولم أكن قداستمعت

الى موسيقى لجوهان سنراوس غير الدانوب الازرق، واستمعت اليها مصادفة ، غير أن حركاتى التمثيلية أقنعت مدام ريتا بأننى من هواة الموسيقى ، ولكن نتيجة هذا التمثيل وهذا الاقتناع كانت وبالا على . فقد ظلت تسقينى من موسـيقى ستراوس حتى تصدع رأسى وكرهت اليوم الذى سمعت فيه اسم ستراوس !

وعندما انتهت الموسيقى ، قالت مدام ريتا وهى تشـير الى مكان بالقرب منها على الكنبة التى تجلس عليها :

ـ تعالى جنبى هنا .

وزحفت على الفور الى المكان الذى أشارت اليـه ، وجلست أنظر نحوها كالعبيط دون أن أجرؤ على لمسها بيدى .

وكأنما أدركت المرأة المجربة اننى أعبط من درويش وأخيب من فلاح . فانحنت على شفتى وقبلتنى ثم مدت أصابعها وراحت تعبث بأظافرها الطويلة فى شعرى ، وأحسست عندئذ أننى فى حلم، واستسلمت للمرأة كأننى عـذراء وقعت بين يدى ذئب ، وأغلقت عينى واضطجعت فى انتظار قبلاتها ، ولكنها كفت عن ذلك . وترامى الى أذنى صوت شفتيها وهى تمتص الـكأس ، وعندما فتحت عينى اكتشفت انها قد انتقلت من مكانها الى مقعد آخـر .

وبعد أن أفرغت كأسا آخر فى جوفها ، قالت وهى تنظر نحوى ويدها تسند خدها :

ـ انت كنت زعلان ليه ، معلم حمودة حكى لى انك زعلان ..

وحكيت لها يوم لقائى بها فى القطار ، ثم فى صالون الفندق مع حمزة بك عبد المقصود ، ثم فى اليوم التالى عندما رمقتنى بنظرة احتقار .

وابتسمت المدام فى خبث شديد ، وقالت ولسانها يلعق شفتيها :

ـ صدقنى أنا ماكنتش أعرفك ..

ونظرت اليها ولم أتكلم ، ثم أشعلت سيجارة ورحت أدخن فى هدوء . ونهضت هى من مكانها وانتقلت الى جانبى ، وربتت بيدها على خدى ، وقالت فى صوت كالمنكجة :

ـ انت لسه زعلان ..

ـ أبدا

ـ طيب احلف

ـ والله العظيم تلاتة ..

ونطقت بالقسم كأننى فلاح فى دوار العمدة يقسم أن جاموسته لم تقترب من الحقل ، ولم تذق طعم اللفت الذى زرعه بسطويسى .

وقالت تسألنى وظفرها المدبب يعبث بشاربى الخفيف :

ـ انت منين ؟

ـ من كفر ناموس مركز الباجور منوفية

وطرقعت ضحكة مدام ريتا وجلجلت فى الجو ، وكتمت فمها بيدها ، ويدها الاخرى على صدرها وظل جسمها يهتز كأنها شجرة توت رقيقة دهمتها رياح الخماسين .

وعندما انتهت من نوبة الضحك عادت تسألنى من جديد :

ـ أنا موش قصدى كده ، أنا قصدى انت ساكن فين ؟

ـ فى مصر ..

ـ فى أى حته ؟

ـ فى الروضة ..

ـ عندك شقة جميلة ؟

ـ أنا ساكن مع أبويا ..

وحدقت مدام ريتا فى وجهى وقالت :

ـ انت ظريف خالص ..

وعلى الفور ، وبلا مقدمات ، طوقت مـــدام ريتا بذراعى ، ونكشت شعرها فىعنف ، ومزقت ثوبها من فوق الكتف ،ورحت أطبع مئات القبل فوق شفتيها وعنقهاوكتفها وشعرها ،وكانت أحيانا تتأوه ، ثم اضطررت الى التوقف عندما صرخت مدام ريتا، وعندما تخلصت من ذراعى تماما اكتشفت أنها كانت تتأوه من شدة الالم .. ولم تكن اللذة هى السبب كما خيل الى !! ..

وملأت لنفسها كأسا ، وملأت لى كأسا آخر قدمتـــه الى ، فأمسكت بيدها .. وانحنيت عليها فقبلتها فى شـــغف .. وجلست أرشف من كأسى وعيناى سارحتان على مدام ريتا مـن شعرها الى كعب قدمها . وفجأة وضعت ريتا كأسها وقالت وقد ضاقت عيناها جدا :

ـ مين قال لك أنا كنت عند الانجليز ..

وكان السؤال صدمة فأفقت ، فالحقيقة اننى لم أسمع مـن أحد أن مدام ريتا كانت عندالانجليز ، كل ماهنالك أن اشاعات كثيرة تترثر بها ألسنة أهل المدينة عن علاقاتمدامريتا بالانجليز قبل الغاء المعاهدة ، وسهرات كبار القواد معها فى بار فنـدق بالاس .. والصفقات التى كان يعقدها حمزة بك عبد المقصود مع هؤلاء القواد أثناء الليل والتى درت عليه ألوف الجنيهات .. ولكن لم أكن قد سمعت من أحد فى الاسماعيلية كلها أخبـارا تؤكد أن ريتا التقت بالانجليز أو ذهبت عند الانجليز بعد الغاء المعاهدة . وكنت أكذب على المعلم حمودة عنـدما هددت بنشر أخبار اجتماع ريتا بالكابتن ويليامز فى معسكر الاسماعيلية . وعندما نظرت الى مدام ريتا لمحت الخوف واضحا فى عينيها ..

وأحسست بالقوة لأول مرةمنذ التقينا .. فهآنذا أقوى ومدام ريتا تبدو ضعيفة وخائفة ، ، وقلت لها وأنا أتصنع الاهمية :
ـ ناس ..

قالت وهى تهرش فى خدها بلطف شديد :
ـ ناس مين ؟
ـ ناس كتير ..
وقالت مدام ريتا فى عصبية :

ـ كذب ، كذب ..

ثم أفرغت كأسها كله مرة واحدة ، ومسحت بأصابعها على شعرها ، وعادت تقول بنفس الثورة :
ـ ناس كذابين ، ولازم تقوللى مين همه .

قلت وأنا أحاول أن أهدىء من ثورتها :
ـ على كل حال المسألة انتهت ، أنا مش هانشر حاجة .

وفجأة أيضا وبلا مقدمات ، بكت مدام ريتا ، بكت بشدة كأنها طفل ، ونهضت من مكانى ، وجلست عند قدميها ورحت أربت بيدى على ظهرها ، وأحاول أن ألمس كتفها العارية ، وعندما كفت عن البكاء ،انتزعت من صدرها منديلامعطرا ومسحت بهوجهها، ونهضت من مكانى وملأت كأسا وقدمته لها ، وعنـدما انتهت من الكأس رفعت رأسها فى كبرياء ، وقالت فى جلال الملكات:

ـ أنا هقولك الحقيقة ، أنا فعلا كنت فى الكانب ..

ودق قلبى بعنف ، وشعرت به ينزلق الى ركبتى ، مدامريتا كانت فى الكانب ، وأكاذيبى كانت حقـــائق دون أن أدرى ، وتهاويت على أقرب مقعد وقلت فى لهفة :
ـ كنتى فى الكامب امتى ؟

ـ من أسبوع ..

ـ ليه ؟

ـ كنت باحصل فلوس ، كان ليه فلوس عند ميت ظابط انجليزى شربوا بيها خمرة فى اللوكاندة ..

ـ وجبتى الفلوس ؟

ـ مش كلها ..

ـ يعنى هتروحى تانى ؟

وصمتت لحظة قبل أن تقول :

ـ لأ ، مش رايحة تانى ، فى داهية الفلوس .

وسكتت ريتا ، وسكت أنا الآخر ، وأشعلت لنفسى سيجارة، ورحت أنفث حلقات دخانها فى فضاء الحجرة وألقيت نظرة على زجاجة الويسكى الفارغة ، وقطع الأثاث المتناثرة فى الحجرة ، وصورة مدام ريتا المعلقة على الحائط ، وتعجبت لهذا الذى يدور كله على ضفاف القناة . حمودة وجيشه وقعدات الحشيش الخرافية على شاطىء البحيرة ، ومدام ريتا التى تنفق على الكتيبة، وتذهب الى معسكر الانجليز لتحصيل نقودها كأن مهمتها فى الفندق هى تحصيل النقود !! ولماذا لم ترسل مدام ريتا موظفا فى الفندق لقضاء هذه المهمة ، لماذا ذهبت بنفسها الى معسكر الانجليز والمعركة قائمة فى المدينة على قدم وساق .

والنقود التى حصلت عليها مدام ريتا ! هل هى ثمن خمر كما تزعم المدام الجميلة ؟ أم هى ثمن شىء آخر ؟ لعله حموده وجنوده ؟ والى أين سوف تمضى المعركة وهذه ظواهرها العجيبة؟ حموده على شاطىء البحيرة فى زى بريجادير يشوى أجود أنواع السمك على النار ، ويقلب الجمرات بماشته الفضية ، وريتا فى الكانتين تبحث عن ثمن الخمر ، وأنا فى حجرة مدام ريتا فى منتصف الليل وزجاجة ويسكى فارغة بيننا ، ومدام ريتا تجلس

أمامى نصف عارية ، ومخدعها يبدو مرتبا ونظيفا من خـــلال فتحة الباب .

وعندما ارتفع صوت مدام ريتا بالحديث انقطع حبل أفكارى وانتبهت اليها ، كانت مدام ريتاتسألنى عن سر وجومى ،وقلت لها وأنا أحاول أن أبدو طبيعيا :

– لأ ، مفيش حاجة ..

وقالت فى صوت ضعيف :

– أنا آسفة اذا كنت ضايقتك بعياطى ..

– لأ أبدا ..

– يعنى انت موش مضايق ؟

– أبدا ..

– طيب تعالى هنا ..

ورحت الى حيث تجلس ، وجلست الى جوارها كقطـة بلدى مريضة .. وانقضت ريتا كالصاعقة تقبلنى ، وطوقتها بذراعى ثم حملتها وأجلستها على ركبتى ، ورحت أغمر عنقهـا ووجهها بقبلاتى المحمومة . وشعرت كأن حمى رهيبة تجتاح جسمى كله، والدم يتصاعد الى رأسى ويكاد يقفز من عروقى وارتفعت ساعة الكنيسة الفرنسية تدق الثانية بعد منتصف الليل ، وكانت مدام ريتا لاتزال على ركبتى مستسلمة بين ذراعى كأنها مغمى عليها، وألقيت نظرة على المخدع الذى يبدو من فتحة الباب ، ثم حملت مدام ريتا واتجهت نحو حجرة النوم ..

وعندما ألقيتها على السرير فتحت عينيها فى ذعر .

وعندما ألقيت نفسى عليها دفعتنى بقسوة ، ونظـرت اليها والشرر يتطاير من عينى ، ثم هجمت عليها ولويت ذراعيها بشدة فندت عنها صرخةمرعبة ثم أمسكت بشعرها الاحمربين أصابعى وجذبته بوحشية ، ثم ألقيت بنفسى فوقها وكتمت أنفاسها بفمى

وحاولت المرأة التخلص من قبضتى دون جدوى ، وعندما أيقنت انها لن تستطيع التخلص منى بسهولة لجأت إلى أسلوب آخر ، فقالت وهى تحاول رغما عنها أن ترسم إبتسامة على شفتيها :

ـ حلمى ..

قلت وأنا منهمك فى التقبيل

ـ ايه ...

ـ بلاش ..

ـ ليه ؟

ـ عشان خاطرى ...

ـ وعشان خاطرى أنا ...

ـ موش النهاردة ..

ـ أمال امتى ؟

ـ بعدين .. لما تعرفنى كويس ، موش معقول كده ..

وأحسست بالخجل ، ونهضت من فوقها وجلست على مقعد الى جوار السرير ، ورحت أرتب ملابسى ، وأعيد تسوية شعرى المنكوش ، ورمقتنى زيتا بنظرة فاحصة ، وقالت :

ـ انت بتحب ؟

ـ لأ ..

ـ ليه ؟

ـ كده ...

وتقلبت فى الفراش كالسمكة ، وقالت وهى تضحك :

ـ انت زعلت ...

ـ موش قوى ..

ـ طيب ماتزعلش ، بكره نعرف بعض كويس ..

وهززت رأسى وابتسمت فى سخرية وقلت :
ـ ان شاء الله ..

وقالت المرأة وهي تخفي بملاءة السرير ماتعرى منها :
ـ لا ، دا انت زعلان قوى ، طب حقك على راسى ، تعا هنا ..

وقلت فى حدة :
ـ لأ كفاية كده ..

وضحكت ضحكة عالية وقالت :

ـ عشان خاطرى ..

وقمت كعبد حبشيوجلست تحت قدميهاعلىالفراش . ولكنها أشارت الى بأصبعها . وقالت :
ـ لأ ، تعالى هنا ..

ونهضت مرة أخرى وذهبت الى حيث أشارت ، وأغمضت عينيها وقالت فى حنان :
ـ بوسنى ..

واضطربت لحظة ، ثم هجمت على شفتيها وأكلتهما أكلا ، وغبت عن الدنيا دقائق ، ثم أفقت على طرق خفيف على الباب. ونهضت واقفا أنظر نحو الباب فى قلق ، ولكن ريتا بدترابطة الجأش متزنة ، وان كانت قد ظلت صامتة مثليلاتتكلم ، ولمينقطع الطرق على الباب ، وأحسست أنى فى مصيدة ، لابد أنها أعدت كمينا لى حتى تنتقم ، ونظرت اليها فى غيظ وقد خيل الى أن شكوكى ليست الا حقائقثابتة .. وعندماالتقت عيناى بعينيها لم أستطع أن أتبين فيهما شيئا على الاطلاق .. كانت هادئة كعادتها ، بريئة كأنها طفلة لم تتعود المشى بعد ..

وفجأة ، دار مقبض الباب ثم انفتح ، ودخل حمزة بك عبد المقصود ، بينما كانت ساعة الكنيسة القريبة تعلن الرابعة ، والفجر تتعلق أهدابه بالافق البعيد . ويبدو من خلف قمم الأشجار العالية كأنه قطعة من الليل خفف لونها الدامس فنان عبقري بفرشاة مغموسة في الماء .

ونظر حمزة بك نحوي في مودة ، وقال وهو يرفع يده في الهواء ..

ـ سعيدة ..

وردت مدام ريتا ، وهي لاتزال تتقلب في الفراش ..

ـ هاللو ..

ولم أتكلم ، وعدت الى المقعد في وجوم ..



الفصل السادس

انقضى شهر على ذلك اللقاء الاول مع مدام ريتا ، وأصبحت فى النهاية عضوا فى الشلة التى تحيط بها ليل نهار ، وأحيانا كثيرة كنا نقضى الليل معا فى حجرتها بالفندق ، وكنت أفترش الارض تحت أقدامها وخصلة من شعرى تتهدل على جبينى وتخفى عينى ، وكنت أقضى الساعات الطويلة صامتا لاأتكلم ، وكئوس الوسكى تمتلىء لتختفى بسرعة فى جوفى ، وأذناى المرهفتـــان تلتقطان كل كلمة تهمس بهاريتا ، وهى فى روبها الاسود الشفاف وقد تمددت على الفراش الوثير . وشعرها الاحمر يتهـدل عـلى عنقها وينام على صدرها ، وكنت اذا أفرطت فى الشراب أحيانا أتخيل نفسى شهريار .. وشهرزاد تحكى له قصصها العجيبة .

وكنت قد اكتفيت من علاقتى بها بالجلوس اليها ، والنظر الى عينيها ، والاستماع الى قصتها الغريبة .وأحياناكانت تستقبلنى بقبلة ، وتودعنى بقبلة ولم يكن هذا يحدث دائمـا ، بل كلمـا أبدت مدام ريتا رغبة فى ذلك .

وخلال تلك الليالى الطويلة التى كنا نقضيها معا عرفت أن مدام ريتا ليست سعيدة كما كنت أتوهم ، وتعجبت اذ اكتشفت انه حتى هؤلاء الذين يلفهم النعيم كما يلف ورق السلوفان قطع الملبن يعانون من الحياة كما يعانيها هؤلاء الذين يقطعون رحلة العمر وأنظارهم مشدودة نحو الارض بحثا عن رغيف ٠

ولقد كان فى ضمير مدام ريتا شىء ما يشدها نحو الماضى ، وكانت اذ تحكى هذه الفترة من حياتها تبدو تعيسة بشـــكل ملحوظ ، بل انها كانت تتوقف عن الحديث أحيانا وتبكى بعنف كأنها طفلة صغيرة ٠ ثم تتوقف عن البكاء فجأة ، وتقذف بكأس الوسكى فى حلقها الضيق ثم تضحك وتبدو سعيدة وكأن شيئا لم يكن على الاطلاق ٠ ولم يكن أروع منها فى تلك اللحظات التى تعقب بكاءها ٠ كانت تبدو شديدة البهجة وكأن السعادة تتدفق فى عروقها بدل الدم ! وكنت أنهض فى تلك اللحظات من مكانى وأهم بتقبيلها ولكنها كانت تصدنى برفق ، وتقول وقد ازداد وجهها لمعانا :

ـ حلمى ، مش وقته ٠٠

وكان أشد ما يعذب ريتا هو ذكرى السنوات الاولى التى عاشتها مع أبيها وأمها ، وكان أبوها ايطاليا قصير القـــامة ، ذا كرش ضخم وعينين ضيقتين غشاشتين ، وكان شديد النهم الى كـل شىء ٠

وقد ظل حياته كلها يلهث وراء جمع المال ، حتى فى الفترة التى أصبح فيها ثريا ، لم يكف لحظة عن ارتياد طرق جـــديدة توصله الى أن يجمع رصيدا أكبر من النقود !

وكانت أمها على عكس أبيها ، نحيفة عصبية جميلة ، وقـد صرعت قلوب أكثر الرجال وسـامة وجاها وثراء فى مدينـــة

الاسماعيلية . ولقدكانت مطمع كل الرجال الذين يلتفون حولها وكانت حلم كل من يراها . وكان الرجل السمين البليد زوجها لايهتم كثيرا بها ، بل كان لايراها الا عندما يدخل غرفتـــه فى الفندق آخر الليل ويتمدد الى جوارها على الفراش كالقتيـــل ، وشخيره يتردد صداه فى جنبات الفندق الهادىء !

وكانت المرأة الحسناء التى تزوجت بعد قصة حب عنيفـــة لاتكف عن الشجار مع فتى أحلامها الذى تحول الى خنزير ،وكان يواجه شجارها بالاختفاء من وجهها الى درجة انه فى نهاية الامر خصص لنفسه حجرةمستقلة ، وكانا لايجتمعان معا الا على مائدة الطعام الرئيسية فى حفل عيد رأس السنة .

وعندئذ كان ينحنى على يدها يقبلها كأنها زبونة طيبة مـــن زبائن الفندق !

وأخيرا ، اختفت المرأة من الفندق ، ثم عرف هو بعد أسبوع أنها هربت مع شاب وسيم كان يتردد على غرفتها أحيانا ولكنه لم يهتم حتى بالبحث عنها ، وذهب حمزة بك عبد المقصود يبحث عنها فى كل مكان ، ولم يمض شهر على فرارها حتى ماتت قتيلة، صدمتها شجرة جميز عتيقة على جانب أحد الطرق الزراعية . وهى الى جوار عشيقها الشاب فى سيارة كانت تنهب الـطريق فى سرعة الريح ، ومات الشاب أيضا بعد أيام من الحـادث فى مستشفى ريفى .

ولم يبد على الزوج أى انفعال حتى وهو يسير عارى الرأس خلف الجنازة ، وفى مساء نفس اليوم ظهر فى الفندق جم النشاط، شديد السعادة ، وكأن شيئا لم يحدث . ولكنه بعد أيام قليلة أصابه تغيير مفاجىء . فقد لزم حجرة زوجته ولم يغادرها أبدا ، وأحيانا كان خدم الفندق الذين خصصهم لخدمته يستمعون الى نحيبه فى الليل ، ثم أدمن الشراب بعد ذلك ،وكان يغنى بصوت

عال ، ثم يمزق ما يقع بين يديه ، ثم يرتمى على الفراش وصوته يشحط كأنه وابور جاز فاسد !

وعندما أصابه المرض رفض أن يستدعى طبيبا لعلاجه ،وظل على عناده حتى مات • وفى اليوم الذى سبق وفاته استدعى قسيسا على عجل ، وارتدى أجمل ملابسه وهى ملابس أنيقة كان يستعملها فى مناسبات خاصة ، ثم نسيها بعد ذلك خلال بحثه المميت عن مزيد من المال •

وبعد أن أفضى باعترافه للقسيس ، طلب أن يجتمع بحمزة بك عبد المقصود لمدة دقائق ، ثم سمح لابنته ريتا بالدخول عليه، وعندما وقفت الى جانب فراشه تطلع الى وجهها طويلا ، ثم أشار اليها فانحنت عليه ، وعندئذ أحاطها بذراعه وطبع على خدهاقبلة ثم أمر الجميع بالانصراف • وفى الصباح وجدوه ميتا وهو فى نفس ملابسه التى كان يرتديها بالامس •

وكان على ريتا وهى بنت العاشرة أن تكافح وحدها لتحتفظ بالفندق ، ولكن الخسائر المتتالية التى منيت بها ابتلعت ثروة أبيها ، وأشرفت على الافلاس فعلا ، ولكنها رغم ذلك ظلت تكافح بلا هوادة حتى انقذت الفندق من الافلاس ، ثم استطاعت بعدذلك أن تسترد ثروة أبيها ، وقالت بعد أن انتهت من سرد قصتها وهى تغمز لى بعينيها ••

ـ البركة فى حمزة بك ، هوه اللى وقف جنبى !

ولقد كنت أكره حمزة بك كراهية شديدة باعتباره غريمى ، وعندما استمعت الى قصة مدام ريتا ازددت كراهية له •فعلاقته بها ليست مجرد مغامرة عاطفية مثيرة ، ولا هى نزوة ، وانما جذورها تضرب فى بطن الماضى الى غور بعيد••ليس هذافحسب وانما هى علاقة شاملة كاملة ، فهو الذى أنقذها من الافلاس ،

وهو الذى استرد لها ثروة أبيها ، لولاه من يدرى ، لعل مدام ريتا كانت تبيع المناديل فى متجر شهير بالقاهرة ، لعلها كانت تعرض نفسها الآن تحت أعمـــدة النور فى شـــوارع روما الفسيحة ..

ولكن مسلك حمزة بك تجاهى خفف هذه الكراهية .. كان مسلكه طيبا للغاية وكان ودودا ومخلصا على نحو ما .

وقد تبدلت هذه الكراهية بعد ذلك فانقلبت الى عطف متبادل، كان ذكيا ، وكان ذكاؤه من هذا النوع الهادىء الذى لايصدمك فجأة ، ولكنه يتسلل اليك فى رفق ، ثم يبهرك ويجبرك عـلى الاعتراف به .

وعندما اقتحم غرفة مدام ريتا ذلك المساء وأنا معها توهمت أن فى الامر مؤامرة . وأن حمزة بك سيستغل المسألة ضدى ، ولكنه ورغم المرات العديدة التى التقينا فيها بعد ذلك لم يشرالى ذلك ولو من باب التلميح . بل كان حريصا دائما على ألا يذكر اسم مدام ريتا على الاطلاق . وبدا لى خلال تعارفى به كانه بئر عميق ، وانه يخفى فى صدره رصيدا مـن الاسرار يكفى عشرة بنوك ، وأن انتزاع روحه أسهل من انتزاع سر من صدره، والحق أقول اننى أحببته ، لم يكن هذا حمزة بك الذى رسمت صورته فى ذهنى عند أول لقاء ، لقد أصبح شيئا آخر !

والحق اننا نكره الناس بلا أسباب ، نحكم عليهـــم دون أن نعرفهم ، ونصدر هذه الاحكام غيابيا دون روية ، وتظل هـــذه الاحكام مقدسة لاتقبل نقضا وكأنها انزلت فى كتب مقدسة . والعجيب أننا نتشبث بأحكامنا ضد الناس فى رعونة ، وذلك لأننا نقدر ذكاءنا تقديرا غير صحيح ونتوهم أننا نحن الملائكة ونحن غارقون الى آذاننا فى الخطيئة ، ان ادانة الناس نوع من حكم البراءة لنا ، والأغبياء يبالغون فى التحدث عن أنفسهم ، ولكن الخبثاء

هم الذين يهاجمون الآخرين ويحاولون تحطيمهم ، دون أن يشيروا ولو من طرف خفى الى انفسهم، الايكفيكهم هدم الآخرين، ليبقوا هم عمالقة فوق تل من جثثهم ..

كان شهر نوفمبر قد أوشك على الانتهاء ، والحالة فى المدينة تزداد سوءا ، والمعركة تتطور فى عنف شديد والانجليز يقطعون الطريق على الناس ، ويطلقون النار بلا حساب ، وأفواج العمال الذين هجروا العمل فى المعسكرات أخذوا يفدون الى المدينـة ، كلهم بلا نقود ، وبعضهم بلا ثياب ، وأسواق المدينة خلت من الطعام ، والنقود شحت فى ايدى الناس وبالرغم من ذلك لم تنقطع

عادتى فى السهر مع مدام ريتا حتى الصباح ..

ونسيت حمودة فى غمار حياتى الجديدة ولم أعد أهتم به ،ولم يعد هو يهتم بالسؤال عنى ، وكانت ثمة معارك شديدة نشبت فى المدينة خلال تلك الايام ، فهاجم النـــاس كانتين النـافى وأحرقوه ، ودمروا مركزقيادة الطيران ، وأشعلوا النار فى مكتب البوليس الحربى وأطلقوا النار على جماعات من جنود الانجليز فقتلوا عددا منهم ، وكان من بين القتلى ضابط بريطانى كبير . واضطرب الانجليز لمصرع هذا القائد الكبير فهاجموا المدينـــة بالدبابات ومدافع الميدان ، وأطلقوا النار بلاحساب على جموع الناس ، ودكوا بقنابلهم الثقيلة البيوت القديمة الآيلة للسقوط، وسقط المئات قتلى فى المعركة وانتشر الجنود الانجليز فى المدينة واحتلوا الشوارع الهامة ، وعزلوا أحياء المدينة بعضها عن البعض الآخر بأسلاك شائكة ثم فرضوا حظر التجول فى الليل الا لمن يحمل ترخيصا منهم بالمرور ، وران على المدينة شـبح الموت ، وخلت طرقاتها من الناس ، فأصبحت كأنها مدينة مهجورة

كل هذا الذى حدث ، ولم يظهر حمودة ولم أسمع باسمه ، وذات مساء فوجئت بمن يطرق الباب بشدة ، وتوقعت شرا ! فلم

يكن مسموحا لأحد بالمرورفى تلك الساعة من الليل الا للجنود الانجليز ورجال الاسعاف ، والموظفين الذين تستدعى أعمالهم السهر فى الخارج !٠٠ وعندما استفسرت مـــن الطارق جاءنى همس من خلف الباب ٠٠

ـ افتح ٠٠

ولم أتبين الصوت فى البداية ، ولكنه بعد أن كرر النـــداء اكتشفت انه فتحى بدير !

ودخل فتحى بدير بقامته الطويلة الهزيلة ، ثم جلس عـلى المقعد ولزم الصمت ٠ كان يبدو أنه يلهث ، وأنه قطع الطريق جريا بأقصى سرعة ، وأنه واجه أثناء رحلته الى الفندق متاعب شديدة ، ولكنه عندما بدأ يتكلم نفى بشدة بأن شيئا من هذا قد حدث ، وقال وهو لايزال يلهث :

ـ أصلى اتخانقت مع البواب بتاع اللوكاندة ٠٠

ـ ليه ٠٠

ـ ماكانش عاوز يفتح ٠٠

ـ أمال جيت ازاى ٠٠

ـ جيت ماشى من عند البحيرة لحد هنا ، دا الجو بره جميل ، الميلادى حلوة ٠٠

الجو بره جميل ؟! هذا المجنونمستشار حمودةيأتى فىجوف الليل الى فندقى والانجليز يحتلون المدينة ويطلقون النار لاهثا ويتغنى بجمال الليل ٠٠

ـ طيب والعساكر الانجليز ؟ ٠٠

ـ مالهم ؟

ـ ماحدش قابلك منهم ؟

ـ كتير ٠٠

ـ ماحدش قالك حاجة ؟

ـ همه مالهم ومالى ..

ثم ضرب يده فى جيب بنطلونه الخلفى وانتزع ورقة نشرها بالقرب من عينى ، وقال فى هدوء شديد :

ـ معايا تصريح ..

ودق قلبى للمفاجأة ، فتحى بدير مستشار كتيبة وحوش الجبال معه تصريح بالمرور فى الميل ، انها ضربة معلم ، ولاشك، وحيلة لم يستطع أن يفطن اليها رجال المقاومة أيام الاحتلال النازى فى باريس !

وخطفت التصريح من يد فتحى ودققت النظر فيه ،وتملكنى الاعجاب ، فلقد كان متقنا الى درجة أن الانجليز أنفسهم لايستطيعون أن يكتشفوا انه مزيف .. وعندما أبديت دهشتى لفتحى لبراعة الذى قام بتزييفه ، قال وهو يتناول التصريح منى :

ـ ومين قال انه مزيف ؟ دا حقيقى .

ـ حقيقى !!

هتفت بها مشدوها .. اذ كيف يحصل فتحى بدير على تصريح حقيقى من الانجليز وأى حيلة شيطانية لجأ اليهاليحصل على التصريح وباسمه الحقيقى ، وهو مستشار كتيبة حمودة ، ولا بد ان مخابرات الانجليز تعلم كل شىء ، وقال فتحى وهو يخلع جاكتته :

ـ حمزة بك اللى جاب التصريح ، كل واحد فى الكتيبة معاه تصريح !

وانتفض جسمى كله كأنما أصابتنى رصاصة ، فها هو حمزة بك مرة أخرى يقتحم الاحداث ويصيب نفسى بالاضطراب ..

اننى لا أكاد أفهمه ، لقدأحببته فعلا خلال الايام التى صادقته فيها ، ولكن ها هو خبر جديد يمتد نحو حمزة بك كأنه أصبع

الاتهام قاس لايرحم .. انه يوزع تصاريح المرور على كتيبة وحوش الجبال ، وأفرادالكتيبة لابد انهم يتجولون الآن فيالمدينةوبحرية كاملة ، والانجليز ليسوا من السذاجة بحيث يمنحون تصاريح لمن يطلق عليهم الرصاص ، فأى مهمة يقوم بها رجال حمودة فى الليل بهذه التصاريح التى منحهم اياها الانجليز عن طريق حمزة بك ..

وكأنما قرأ فتحى بدير مايدور فى نفسى من شكوك فقال وهو يملأ لنفسه كأسا ..

– احنا اتفقنا مع حمزة بك يجيب التصاريح دى عشان نعرف ننسف استحكامات الانجليز ؟

– ونسفتوا حاجه ؟ ..

– لسه ..

– وحمودة فين ؟

– راح بركة أبو جاموس ..

– ليه ؟

– معزوم هناك !!

وعندما بدا الامتعاض على وجهى ، قال فتحى مستأنفا حديثه على الفور ..

– فى الحقيقة أنا جى أشكيلك ..

– من ايه ؟

وشكا فتحى من حمودة . من تصرفاته فى الايام الاخيرة ، من سلوكه مع أفراد الكتيبة . من تقاعسه عن القتال . من مغامراته مع البنات الخواجات اللاتى يفدن الى عشه فى الليل ، ثم أبدى يأسه من اصلاحه ، فحمودة لايستمع الى النصح ، وهو مندفـــع فى الطريق الذى يسير فيه بكل قوة والى مالانهاية ، ثم قال بعد أن صمت قليلا :

ـ أنا هافتح كتيبة تانية ..

ورنت فى أذنى كلمة « أفتح كتيبة ، كأنما فتحى بديرسيفتح محلا للبقالة ، ولكنى تجاهلت هذا المعنى وقلت أساله :

ـ ليه ؟

ورد فى أسف بالغ :

ـ مافيش فايدة ، حمودة مش ناوى يحارب ..

ـ طيب وعندك الرجالة ..

ـ موجودين .. بس لازم تحمينا ..

ـأحميكم ، من ايه ؟

ـ من حمودة ، حمودة مش راح يسكت ..

ـ وحمودة ماله ومالكم ؟

ـ ماله ومالنا ازاى ، حمودة بيكسب دهب م الكتيبـــــة ، النهارده بقى بتاع ألف جنيه شهرى ، دا عقبال أملتـــك بقى ألفى ..

وأدركت عندئذ معنى « افتح كتيبة » لابد أن فتحى سيفتح الكتيبة ليصبح «ألفى» هو الآخر مثل حمودة ، وبالطبع حمودة لن يسكت على هذه المنافسة ، وفتحى بدير يطلب حمـــايتى !! ودورى فى المعركة سيقتصر على حماية فتحى لتتسع تجارته وتبور تجارة حمودة ..

واذ أفرغ فتحى كأسه الثالث فى جوفه كان قد أصبح أكثر استعدادا للحديث ، فقال وهو ينفجر من النشوة :

ـ مش كده بس ، داراح جاب مستشار تانى ، واحـد كان بيشتغل فى الجيش الانجليزى وساب الشغل ، وطول النهـار والليل مع حمودة دلوقت ..

ثم هز رأسه ومصمص شفتيه فىأسىشديد ، وقال وهويخبط كفا بكف :

– بقى دا معقول ، داكان بياخد ميت جنيه عنـد الانجليز ، فيه حد يسيب ميت جنيه ويشتغل فدائى ، بقى دا معقول ؟!

ثم توقف عن الحديث وخطف جاكتته وارتداها على عجل،وقال وهو يهم بالانصراف ..

– عاوز أشـوفك بكره . انت لازم تكون معانا فى الكتيبة الجديدة ..

وفتح الباب ومضى . وفتحت النافذة وألقيت نظرة عـلى الشارع ، كان الظلام شديدا ، والريح باردة ، والمدينة ساكنة كأنها مقبرة هائلة ، ولم يلبث أن ظهر فتحى على الرصيف تحت النافذة يخطو فى ثبات واطمئنان فى طريقه نحو الترعة . ومن بعيد كان يبدو كشك الحراسة الانجليزى عند نهاية الشارع ، وضوء المصباح يشع من داخل الكشك ، وحارس واحـد يروح ويجىء أمام الكشك فى حركات منتظمة وروتينية ، كأنه أسـد حبيس فى قفص . وأغلقت النافذة فى هدوء وعدت الى الفراش ،



الفصل السابع

كان يوما من تلك الايام الباردة الكئيبة ، حيث يبدو السحاب أسود كالحا كأنه سقف مشروخ من الاسمنت لن يلبث طويلا حتى يتهاوى فوق الرءوس ٠٠ وكنت منذ الصباح الباكر أواصل السير وحدى على شاطىء بحيرة التمساح فى طريقى الى عش النسرلمقابلة حمودة ٠ وكان خبر انقسام الكتيبة وخروج فتحى بدير على طاعة زعيمه قد انتشر فىالمدينة ٠٠فقد حدث ما توقعه فتحى بدير ، فلم يكد حمودة يسمع بالنبأ حتى ثار بشدة وأقسم أن ينتقم ٠٠

وكان انتقامه سريعا وحاسما ، فلم تكد شمس ذلك اليوم تختفى حتى قاد حمودة هجوما خاطفاعلى مقر الكتيبة المنافسة ، حيث اختار فتحى لها معسكرا مهجورا على شاطىء بركة أبو جاموس ٠٠

ولم يصمد فتحى طويلا أمام هجوم حمودة ، فلم يكن فتحى خبيرا بالحرب ، ولم يكن قد اشترك فى أى نوع من أنواع

القتال ، وكان لسانه هو السلاح الوحيدالذى يجيد استخدامه ، فما أن أحاط حمودة ورجاله بالمعسكر وأطلقوا النار فى الهواء حتى انهار فتحى وبعث يفاوض حمودة فى الصلح . ولكن حمودة رفض كل عروض الصلح التى عرضها فتحى . وأصر على أن يتم التسليم فورا وبلا قيد ولا شرط ، وأن يغادر فتحى الاسماعيلية فى نفس الليلة الى القاهرة ..

ورغم قسوة الشروط التى وضعها حمودة للتسليم ، فقد قبلها فتحى على الفور ، وخرج من المعسكر رافعا يديه فوق رأسه ، ووقف حمودة يستعرض طابور المهزومين فى زهو القائد الكبير ، واذ تسلم رجال حمودة أسلحة كتيبة فتحى ، اكتشفوا أن أحد رجال فتحى لا يزال فى داخل المعسكر ومعه سلاحه .. وعندما تقدم ثلاثة من رجال حمودة الى داخل المعسكر لاستطلاع الامر ، فوجئوا بوابل من الرصاص ينهمر عليهم كالمطر : ودب الفزع والرعب فى صفوف كتيبة وحوش الجبال .. وانتشروا حول المعسكر المهجور يطلقون النار فى كل اتجاه .

وكان الرجل الذى فى الداخل يدعى عبده ، ولم يكن أحد يعرف اسمه بالكامل وكان قد جاء الى حمودة بعد الغاء المعاهدة بأيام قاطعا ثلاثين كيلو مترا على قدميه من قريته على ضفة القناة الغربية . وقضى الرجل أياما فى عش حمودة يتدرب فى حماس ، ثم انطوى على نفسه عندما اكتشف أن حمودة ليس فى نيته أن يخوض المعركة الناشبة فى القناة ، وعاش على مقربة من عش حمودة يتجول بمفرده على شاطىء بحيرة التمساح ، ويتجنب سهرات حمودة ورجاله . وعندما فاتحه فتحى فى الانضمام اليه قبل العرض على الفور وحمل سلاحه واختفى فى الصباح ليظهر فى معسكر فتحى على شاطىء بركة أبو جاموس .
وبالرغم من أن عبده كان يقاتل بمفرده داخل المعسكر الا أنه

استطاع أن يصمد نصف ساعة كاملة . وكان رجال حمـــودة الذين أصابهم الجنون قد أطلقوا خلال هذا الوقت القصـــير مئات الطلقات . ولما كان المعسكرالذى تدور حوله المعركةلايبعد عن معسكرات الانجليز ، فقد ظن هؤلاء أن هجوما رهيبا قـــد بدأه الفدائيون ضدهم . وعلى الفور انطلقت منداخل المعسكرات قوات هائلة لاعدد لها ، واتجهت هذه القوات على هيئة مروحة الى مكان المعركة ..

وقبل وصول الانجليز الى حيث يدور القتال بين عبدهوجيش حمودة ، كانت المعركة قد انتهت . فقد أصابت عبده رصاصــة طائشة فى صدره فسقط على الفور ، ومات بعد أن أصاب ثلاثة من رجال حمودة بجراح خطيرة ..

وبينما كان حمودة ورجاله منهمكين فى تضـــميد جـــراح المصابين ، وســحب جثة عبده الى الخـــارج ، فوجئوا بالانوار الكشافة تغمر الصحراء المحيطة بهم ، وبنيران قوية تحصـــــد خمسة من رجال حمودة دفعة واحدة ..

وعندئذ خلع حمودة ملابسه وترك سلاحه والقى بنفسه فى البركة وكذلك فعل بعض رجاله ، وتسلل البعــض الآخر فى اتجاه المقابر ، وعند الفجر كان حمودة قد وصل الى الشـــاطىء الآخر من البركة مجهدا منزوف الانفاس ، وقد أصـــابه برد شديد جعله يرتجف ، وهو يقف على الشاطىء عاريا تماما فى انتظار من يحمله الى عش النسر ..

وفجأة بدا فى غبش الفجر شبح يجرى على الطريق ، وعندما اقترب الشبح من حمودة اكتشف أنه فتحى بدير ، وكان فتحى قد أطلق ساقيه فى اتجاه المقابر ، واختفى فى مقبرة مهجـــورة حتى حانت فرصة مناسبة فانطلق من مخبئه فى طـــريقه الى المدينة ..

وبعد دقائق كان فتحى وحمودة يسيران جنبا الى جنب فى اتجاه الاسماعيلية ، وقد ارتدى حمودة بعض ملابس فتحى سالكين طرقا مهجورة ، ومسالك وعرة ، مسرعين قدر الطاقة ليصلا الى المدينة قبل بزوغ الشمس ..

وبينما كان حمودة وفتحى يلهثان فى طريقهما نحو الاسماعيلية ، كان جيش الانجليز يعود الى المعسكرات وقد نجح فى احباط الهجوم ، وبدد شمل المهاجمين وقتل ستة وجرح ثلاثة وحقق نصرا مبينا فى أول معركة ضد الفدائيين !!

وتطورت الامور بعد ذلك بسرعة مذهلة . وخرجت الاسماعيلية كلها تشيع جنازة الشهداء الستة ، وسار حمودة فى صدر الجنازة والى جواره فتحى بدير وكبار الرسميين وحمزة بك عبد المقصود ، وكان فتحى وحمودة قد اتفقا على كتمان ما حدث بينهما تلك الليلة . ولفق فتحى قصة محبوكة رواها لأهل المدينة ، وأكد فى قصته أن مائة على الأقل من جنود الانجليز قد ماتوا فى المعركة . ووافق حمودة مقابل هذا على اعادة فتحى الى منصبه القديم مستشار للكتيبة ! ..

وارتاع الانجليز لما حدث ، فخروج عدد من الرجال المسلحين الى الصحراء المحيطة بالمعسكرات أمر جديد فى المنطقة . وأيا كانت الاسباب التى من أجلها أطلق هؤلاء الرجال نيران مدافعهم تلك الليلة فالنتيجة بالنسبة للانجليز واحدة .. وثمة حقيقة رهيبة فى الموضوع لايمكن أن يتجاهلها الانجليز ، وهى أن هناك رجالا مسلحين ، وانهم أطلقوا فى نصف ساعة مئات الطلقات ، صحيح أنهم أطلقوها فى الهواء ، ولكن من يدرى غدا ، الى أين تنطلق هذه المدافع ! وأى شىء يمنع من اطلاق هذا الرصاص على معسكرات الانجليز ؟

ولقد بدا واضحا فى الايام القليلة التى تلت المعركة أن

الانجليز فقدوا أعصابهم وأنهم عقدوا العزم على مواجهة الموقف بكل مالديهم من قوة ، ولم يكتفوا بعزل أحياء المدينة بعضها عن البعض الاخر ، بل عزلوا المدينة نفسها عن العالم كلـــه ، ووقف صف طويل من الدبابات الضخمة يحرس مداخل المدينة ، وطوفت العربات المصفحة الصحراء الغـربية ، وقامت نقـــط التفتيش هنا وهناك ، وقام البوليس الحربى الانجليزى بعـــدة هجمات على أماكن متفرقة فى المدينة بحثا عن ســـلاح ، وحتى المقابر نبشـــوها ، وفى النهاية جردوا عســـاكر البوليس من أسلحتهم الصغيرة القديمة ، ثم راحوا يراقبون الأمور فى حذر شـــديد ..

عندما وصلت ذلك الصباح البارد الكئيب الى عش حمـــودة ، كانت الريح الشديدة تقرع السقف ، وتهز الأبواب والنوافذ ، والفضاء كله يصفر بشدة ، ويئز أزيزا مخيفـــا . واستقبلتنى المرأة البدينة فى الحوش ، وقد غطت رأســـها بفوطـة ممزقة ، وارتدت ثوبا فضفاضا ، وعقدت شعرها فى ضفيرة واحدة ألقت بها الى الخلف ، وبدت لى أكبر سنا ، وأقصر قامة وأكثر بدانة مما تبدو فى العادة . ورسمت المرأة ابتسامة باهتة على شفتيها انتزعتها بصعوبة ، ثم انسحبت إلى الداخل لتوقظ حمـــودة ، ومضت عشر دقائق قبل أن يظهر حمودة خارجا من غرفتـــه فى جلباب أزرق ، منكوش الشعر مغمض العينين ، حافى القدم ، وشعر لحيته نابت ، فبدا كأنه مجنون هارب لتوه من مستشفى المجاذيب !

وقال وهو يجلس الى جوارى ويشعل لنفسه سيجارة :

ـ مراحب ..

ثم أردف بعد فترة صمت :

ـ خير انشاالله ، جى بدرى يعنى .

– جى أشوفك ..

وقال حمودة بعد أن جذب أنفاسا عميقة من سيجارته

– انت معذور اللى مابتسألش ، الله يكون فى عونك ..

ثم ضربنى براحة يده على فخذى ، وقال وهو يغمز بعينيه

– مدام ربنا شاغلاك يا عم ..

وتجاهلت مزاحه السخيف وقلت فى جد بالغ :

– كويس اللى حصل ده يا حمودة ..

ومال بنصفه الاعلى نحوى ، وقذف بالسيجارة التى فى يده على الارض ، وقال فى غير مبالاة :

– ايه اللى حصل ؟ حصل كل خير ..

– عاجبك الناس اللى ماتت بكش دى ..

– الاعمار بيد الله ، ماحدش بيموت ناقص عمر ، الواحد بيموت لما ينتهى أجله !

وبدا انه غير آسف على شيء مما حدث ولا هو نادم على الارواح التى أزهقت بلا ثمن . وأن الامر كله لا يعدو حادثا عابرا فى حياته ، وكل شيء على مايرام مادام هو صحيحا معافى لم يمسسه ضر ..

وهممت بالانصراف فقد أخذ اليأس يتسلل الى قلبى من اصلاح حمودة ، واستأذنت فعلا فى الانصراف ولكنه رفض بشدة ، وأقسم بالطلاق أننى لن أغادر العش قبل أن أشاركه طعام الافطار ..

وعندما انتهينا من الافطار ، جلس حمودة على الارض أمامى يرتشف كوب الشاى فى لذة فائقة ، وفجأة وضع كوب الشاى جانبا ، وقال فى عصبية شديدة :

– انت زعلان منى ، طيب وأنا مالى : ماهو فتحى السبب ،

نبقى واكلين عيش وملح سوا ، وبعدين يخونى ، يخون العيش والملح ؟!

ووجدت الفرصة سانحة فهاجمت موقفه من المعركة ، واستغلاله للكتيبة في أمور أخرى لا شأن لها بالمعركة ، وفندت موقف فتحى والرجال الذين ثاروا معه على حمودة وانتهيت إلى نتيجة واحدة ، هى أن فتحى لم يرتكب أى لون من ألوان الخيانة بموقفه الأخير ، وأنه كان يهدف الى شيء واحد هو قتال الانجليز !

وضحك حمودة ضحكة صفراء ، ثم نظر نحوى طويلا ثم هز رأسه فى حسرة شديدة قبل أن يقول ..

ـ تصدق بالله ، دا فتحى ما يقدر يحارب قطة ، دا يخاف من خياله ، الحكاية مش كده ياسيدنا لفندى !

وراح حمودة يشرح الأمر من وجهة نظره ، وكان صريحا الى أقصى حد ..

ـ دا بيشتغل مستشار للكتيبة وبياخد تلاتين جنيه ، وعمرى ما استشرته فى حاجة .. مش عاجبه ، عاوز ينهب ، عاوز النص ، على ايه ؟ مش عارف ؟ عاوز يشاركنى ، قلتله احمد ربنا واهمد ، مارضيش راح مسلط العيال ضدى . عاوز يخنقنى ، يعنى أسيبه ، وبعدين تقوللى يحارب الانجليز طيب المدافع أهه ، والرجالة أهه ، خليه يحارب الانجليز !

وعندما سألته عما اذا كان للكتيبة موارد ثابتة ، أجابنى وهو مطرق نحو الارض :

ـ اهو ربنا بيرزقنا بحسنة من هنا والا من هنا ، مش حرب أمال صحفى ايه ؟ ..

ثم ضحك ضحكة صافية ومن الاعماق ، وأمسك بكتفى وهزنى فى عنف ، وقال وهو يضحك :

– وشك منور اليومين دول ، مدام زيتا واخدة بالهـــا منك قــوى ..

ولما لم تبد منى أى استجابة لمزاحه ، قال فى استنكار :

– انت مالك مكبوس كده ليه ، هوه ايه اللى حصـــل ، دا العيال اللى ماتوا ، مايسووش تلاته مليم ، وادى احنا عملنالكو هزة فى البلد ، دا انت كتبت صــــفحة بحالها ، مش تحمــــد ربنـــا ..

ثم نهض من مكانه فجأة ، وجرى نحو الشـــــاطىء ، وراح يزعق بصوت كالبومة على رجل يصطاد داخل البحيرة فى قارب صغير .. ثم عاد عنـدما أجابه الرجل عـــلى صراخه بالتلويح بيده ، وقال وهو يجلس فى مكانه :

– الله يرحمه بقى الواد عبده ، ماكانش فيهم راجل غيره ..

والحق أن حمودة لم يستطع أن ينزع من نفسه ذكرى هـذا الرجل .. عبده . كان شبحه يتراءى دائما أمام عينيه . وكان لا يفتأ يردد اسمه بمناسبة وبغير مناسبة ، وكان أكثر ما يحز فى نفسه انه هو الذى قتله وليس الانجليز ..

– تعرف بس ياسى حلمى لو كان الانجليز همه اللى قتلوه ، ماكانش همنى انما العيال بتوعنا همه اللى قتلوه ..

وحرص حمودة على تأدية الصـــلاة فى مواعيـدها . وكان يستغرق وقتا طويلا فى الدعاء عقب كل صلاة . ولكنه لم يلبث أن هجر الصلاة ، ثم طرد المقرىء ، وعاد حمودة الى سابق عهده ، وضعفت الروابط بينه وبين فتحى مرة أخرى ، فلم يعودوا يلتقيان واكتفى فتحى بلقبه فى الكتيبة . وبالجنيهات الثلاثين التى يسلمها له حمودة أول كل شهر ، ولكن فتحى الذى تعــود الثرثرة لم يستطع أن يكتم حقيقة الامر الذى حدث بينه وبين حمودة تلك الليلة فى الصحراء .. ولم تلبث المسألة أن ذاعت وشاعت بكل تفاصيلها .. وأصبحت حديث المدينة ..

وخاف فتحى عاقبة هذا الامر فانقطع تماما عن الذهاب الى عش حمودة ولكنه لم ينس أبدا أن يرسل رسولا أول كل شهر الى حمودة ليتسلم نصيبة ..

ودار همس على شاطىء البحيرة أن حمودة سـيقتل فتحى ، وانه يتربص به حتى تحين فرصة مناسبة للتخلص منه ، وعندما فاتحت حمودة فى هذا الامر ونحن نجلس معا داخل العش ذات مساء ، قال فى هدوء ..

ـ الحجر الداير لابد عن لطه ، وده عايز عمال على بطال ..

وعندما أوضحت لحمودة خطورة هذا العمل ، والفضيحة التى ستحدث اذا سولت له نفسه قتل فتحى ، قال فى غير مبالاة :

ـ وأنا مالى وماله ، هوه أنا بس اللى زعلان منه ، دا العـالم كلها مضايقة منه .. مين عارف ، يمكن حد م العيال اللى متغاظين منه يموته ..

كانت علاقتى بمدام ريتاقد أخذت تتدهور خلال الايام الاخيرة فقد انشغلت عنها بالاحداث الرهيبة التى اجتاحت المنطقة ،وكنا نلتقى أحيانا ولمدة قصيرة وكانت تحرص دائما عـلى سـؤالى عن تطورات الموقف ، وكنت أفـرغ لها مافى جعبتى من أنبـاء ، وتكهناتى حول المستقبل وكانت تبدو سعيدة كطفلة لان الامور لم تتطور الى أسوأ ..

وذات مساء قالت لى فى حديث خاطف بيننا :

ـ أنا عاوزه أبيع اللوكاندة ..

ـ ليه ؟

ـ أنا خايفه ..

ـ خايفة من ايه ؟

وقالت وفى صوتها رعشة غريبة .

ـ مش عارفه . انما خايفة .

ونصحتها بالابتعادعن المدينة بعض الوقت حتى تريح اعصابها من جو التوتر الذى يخيم على المنطقة ٠

وردت على اقتراحى بسؤال ألقته فى دلال :

ـ وتقدر تبعد عنى ٠٠

ـ أبقى أزورك ٠٠

وقالت وهى تغلق عينيها :

ـ صحيح ؟

وقلت وأنا أتاهب للانصراف :

ـ صحيح ٠٠

وذات صباح مطير استيقظت على صوت مدام ريتا تحدثنى من حجرتها فى التليفون

وقالت وهى تتثاءب :

ـ اطلع عندى ٠٠

ولما استفسرت منها عن سبب هذه الدعوة المفاجئة فى هذا الوقت المبكر من الصباح ، قالت فى اصرار :

ـ عاوزاك ضرورى ٠٠

وارتديت ملابسى على عجل وصعدت الى غرفة ريتا ٠ وكانت لاتزال فى قميص النوم ، وبدت أشد فتنة وأكثر جمـــالا رغم رائحة النوم التى تفوح منها ٠ وبدا وجهها الذى لم يلمسه الماء بعد كأنه حبة تين ناضجة !

وقالت المدام وهى لاتزال تتقلب فى فراشها الوثير :

ـ أنا مسافرة بعد ساعة ٠٠

ـ على فين ٠٠

ـ رايحة العزبة بتاعتى فى المحسمة

وشعرت بالغيظ لانها أقلقتنى من نومى وسحبتنى من بوزى الى غرفتها لتخبرنى أنها راحلة بعد ساعة !! لماذا استدعتنى الى

غرفتها اذن ، وكان بوسعها أن تخبرني بالنبأ في التليفون !

وقلت في فتور :

ــ تروحي وترجعي بالسلامة ..

وقالت مدام ريتا وهي تنهض من الفراش ..

ــ انت حاتروح معايا ..

ــ أنا ؟

هتفت بها في دهشة بالغة ، فكيف أذهب أنا مع مدام ريتا الى عزبتها في المحسمة ؟

وكيف أترك المدينة في هذا الوقت بالذات ، ومن الذى يتولى تزويد جريدتي في القاهرة بأنباء الموقف في المنطقة ؟

وعندما شرحت لها مايجول بخاطري قالت في هدوء :

ــ عندى تليفون في العزبة ، اتصل كل يوم بحمــــزة بك ، وأعرف الاخبار منه ، وبعدين أتصل بالجريدة .

وعندما أخذت أفكر في الامر ، قالت على الفور :

ــ انت لازم تروح معايا ، أنا خايفة أقعد هناك لوحدى ..

وعندما سألتها عن المدة التي يمكن أن تقضيها في العزبة ..

قالت وهي تدخل الى الحمام ..

ــ كام يوم ، مش هنغيب هناك .

عندما وصلت بنا السيارة الى قصر مدام ريتا الذى يقع وسط حقول الفول السوداني كانت السماء لاتزال تمطر كأنها نهــر عريض في السماء قد فاض فجأة على الارض .

وكان القصر يقوم على ربوة تتوسط الحقول . تحيط به أشجار التين والبرتقال ، وخلف القصر كان يمتد صف طويل من شجر المانجو وينحدر مع الربوة حتى الحقــول التي تترامى الى نهــاية الأفق .

واستقبلنا عند الباب رجل عجوز وثلاثة كلاب ضخمة راحت تنبح وهي تقفز حول ريتا في سرور بالغ ، وانطلقت مدام ريتا

وحولها الكلاب الثلاثة تتفقد حجرات القصر كلها ، وعندما انتهت من هذه المهمة طلبت من الخادم العجوز أن يحضر لها بعض الطيور من العزبة المجاورة • وكان التعب قد استبد بى فخلعت ملابسى وألقيت بنفسى على أول فراش صادفنى • وعندما استيقظت من نومى ، كان المطر قد توقف ، ورائحة طعام لذيذ تملأ الجو •

الفصل الثامن

وارتديت ملابسى ورحت أبحث عن مدام ريتا ، حتى عثرت عليها فى المطبخ وقد انهمكت وحدها فى اعداد الطعام • وعندما عرضت عليها مساعدتى رفضت بشدة وقالت وهى تضحك

ـ ألذ أكلة كلتها ايه فى حياتك ؟

قلت وأنا أبلع ريقى ، وقد سرح عقلى محاولا أن أتذكر ألذ أكلة فى حياتى • وابتسمت عندماتذكرتها ، فقدكانت ألذ أكلة فى حياتى منذ خمسة عشر عاما وكنت صبيا صغيرا عندماذهبت الى الريف لأقضى أجازتى الصيفية مع جدتى العجوز ••

وكانت المرأة الطيبة تحبنى الى درجة الجنون • وكان عندها أرنب كبير تعتز به كثيرا ••ولكنها اكراماالخاطرى ذبحته وأعدته على طبخة ملوخية ، أصرتهى على أن تحضرها بنفسهامن الحقل الذى كان يبعد مسافة ربع ساعة على القدمين من بيتها • ولما كانت المرأة العجوز الطيبة تعمل وحدها فى البيت فقد تأخرت فى اعـــداد الطعام • وجلست وحدى على المصطبة أمام البيت أتلوى من الجوع فى انتظار الملوخية بالارانب •

وفجاة . والمغرب يزحف على القرية ، والظلام يطبق عليها رويدا رويدا ، ونسمة هواء طرية بدأت تهب من حقول القمح الخالية ، امتلأ الجو برائحة الملوخية وهى تمتزج بالتقلية على النار المشتعلة .. ونفذت الرائحة الى خياشيمى فشعرت بلذة فائقة مصحوبة بدوار . ولم أشعر فى حياتى بلذة كتلك التى شعرت بها وأنا ألتهم الطعام مع جدتى فى المساء على المصطبة خارج الدار ..

وقلت لمدام ريتا وشبح الابتسامة لايزال يلوح على شفتى:

ـ ألذ أكلة كلتها عند ستى ..

ولوت مدام ريتا عنقها نحوى . وقالت فى استنكار :

ـ انت كنت خدام ؟

وقلت مندهشا وقد فاجأنى السؤال :

ـ خدام ؟ خدام ايه ؟

ـ أمال ازاى كنت عند ستك ؟

وضحكت رغما عنى . ولا أدرى لماذا ضحكت فى عنف ، فأحيانا أنسى أن مدام ريتا خوجاية وانه يتحتم على أن أسلك معها سلوكا يتفق مع طبيعتها ، وقلت أشرح لها الامر ..

ـ قصدى جدتى ، يعنى ماما بتاع ماما ..

وضحكت مدام ريتا حتى كادت تقع على الارض ، ثم قالت بعد أن هدأت :

ـ انت هتاكل عندى زى ستك ..

ونهضت من مكانى وأمسكت بيدها ورحت أقبلها فى شغف، ثم قلت وأنا ألثم كتفها العارية :

ـ انت أحسن من ستى ، انت ستى بصحيح ، أنا خدام ..

وقالت مدام ريتا :

ـ خدام ..

قلت :

ـ نعم ..

ـ تعالى ناكل ..

وأكلنا ، والحق أن الطعام كان لذيذا رغم أنه ماسخ ، فلم تكن ريتا على دراية بفن الطبخ ، ولكنها رأت أن اعداده بنفسها نوع من التكريم لى ، وخفت أن تواصل تكريمى فى الايام القادمة فسألتها فى اشفاق :

ـ مافيش طباخين هنا ..

وقالت وهى تمد يدها تحشو فمى بالطعام

ـ فيه ، بس أنا هاطبخ عشان خاطرك ..

وكدت أهتف .. عشان خاطرى بلاش .. ولكنى كتمت الكلمات فى صدرى ، فقد خفت أن تغضب لهذا اللون من المزاح ..

كنا قد تجولنا فى حقول الفول السودانى قبل أن نعود الى القصر فى المساء ، وقد استبد بنا التعب ، وبدا عليها الارهاق الشديد . وصعدت مدام ريتا الى غرفة نومها ، ودست نفسها فى الفراش ، بينما جلست أنا على مقعد بالقرب منها أحتسى أقداح الوسكى وأحكى لها ماحدث بين حمودة وفتحى من خلاف . وفجأة قالت مدام ريتا وهى تغطى وجهها باللحاف :

ـ قوم نام ..

ونهضت على الفور ، وانحنيت عليها فقبلتها فى جبينها ثم استدرت خارجا من الحجرة ، وقبل أن أخطو الى الخارج ، هتفت مدام ريتا من خلفى :

ـ رايح فين ؟

ـ أنام ..

ـ هتنام فين ، مفيش حتة تنام فيها غير هنا ٠
وانكمشت فى جانب السرير ، وأفسحت لى مكانا الى جوارها ٠

مضت الايام الثلاثة الاولى فى قصر مدام ريتا الريفى فى هدوء، وفتحت لى هذه الرحلة نافذة ضخمة على حياة لم أكن أعرفها من قبل ، وكنت فى الاوقات التى تغيب فيها مدام ريتا عن القصر أتخيل نفسى هارون الرشيد بعث مرة أخرى من القبر ٠وكنت اذ أنفرد بنفسى فى القصر الفاخر الكبير لا أستطيع أن أمنع نفسى من ارتكاب أعمال هى غاية فى الجنون والحمق ، كنت أتشقلب على السرير ، وألقى بنفسى فوق المقاعد الوثيرة لأجد نفسى مرة أخرى قافزا فى الهواء ٠ ولقد حرصت فى اليوم الاول على تأدية مهمتى الصحفية على خير وجه ، اتصلت فى المساء بحمزة بك عبد المقصود ، وأفرغ الرجل لى مافى جعبته من أخبار ، ونمت فى ذلك المساء وقد زودت جريدتى بأخبار المعركة ٠ وفعلت نفس الشىء فى اليوم التالى ولكن بلا اهتمام ، وفى اليوم الثالث لم أهتم بالاتصال بحمزة بك فى الاسماعيلية ٠ وفى اليوم الرابع نسيت المعركة تماما ، بل اننى سئمت العمل كله ، واكتفيت بالنوم والاكل والتحديق من خلف زجاج النافذة الى المطر المنهمر على حقول الفول ٠ واكتشفت أنه ليس هناك ألذ من الصياعة ، وبشرط أن تكون الصياعة مسنودة برصيد فى البنك وقصر فى الريف وتحسرت على أيامى التى أكلتها مهنة الصحافة ، واكتشفت أن اللذة التى كنت أشعر بها فى العمل لم تكن الا وهما ، واننا نتوهم لذة العمل نتيجة العادة ، تماما كعادة تدخين السجاير ، غير أن اللذة الحقيقية يشعر بها المدخن بعد أن يقلع عن هذه العادة ٠

ولقد أحسست فى نهاية الاسبوع بأننى قد أقلعت فعلا عن عادة العمل ، وشعرت ببشاعة الطاحونة التى كنت مربوطا اليها، فى الوقت الذى يوجد فيه مئات على ظهر هذا الكوكب يعيشون

هذه الحياة المذينة ٠ ويتفرجون على أصحاب المهن كما يتفرج الاطفال على النسانيس فى حديقة الحيوان ٠

ولقد كان من الممكن أن تستمر هذه الحياة الى وقت طويل ، لولا أننى مخلوق من نوع عجيب ، وأغلب ظنى أننى شخصان لا شخص واحد ٠ وانهذين الشخصينمتنافران الى أقصى حدود التنافر ، متخاصمان أشد مايكون التخاصم ٠ ويبدو أن أحدهما مولود قبل الآخر ، وان كلا منهما قد عاش فى بيئة تختلف تمام الاختلاف عن البيئة التىعاش فيهاالآخر ، بل انى أشعر أحيانا كثيرة بأن أحدهما يحتقر الآخر ويحمل له نظرة رثاء !

وذات مساء دق جرس التليفون ، وكان حمزة بك يتكلم من الاسماعيلية ، وقال فى صوت مرتجف :

ــ عرفت ؟

ــ ايه ؟

ــ معركة حصلت دلوقت جنب المعسكر ٠٠

ــ أنا سمعت النار من هنا ٠٠

ــ نار ايه يا أستاذ ٠٠ دى مجزرة ٠٠

ــ ايه اللى حصل ؟

ــ حاجة تشيب ٠٠ ميت قتيل وأكتر فى المعركة دى ٠٠٠٠ الترعة كلها جثث ٠

ــ جثث مين ؟ الآهالى ؟

ــ لأ ، انجليز ٠٠

وضاع صوت حمزة بك بعد ذلك ، وضاعت أيضا كل المحاولات التى بذلتها للاتصال به ، وقطعت الوقت واقفا على اعصابى أنتظر رنين التليفون الذى مات فجأة ٠٠

ما الذى حدث هناك ؟ هل هى الحرب فعلا كما قال الضابط الانجليزى الشاب ؟ والجثث التى استقرت فى قاع الترعة ، هل هى جثث انجليز كما ادعى حمزة بك ؟ ومن الذى خاض المعركة

هذه المرة ٠٠ حمودة ورجاله ؟ أم فتحى بدير ورجال حمودة ؟ أم عساكر البوليس ؟

وقررت أن أبقى ساهرا حتى الصباح لاذهب مع أول خيوط الفجر الى الاسماعيلية ، وفتحت النافذةووقفت أدخن فى قلق . وألقيت نظرة على خيمة الضابط الانجليزى ولكننى لم أستطع أن أتبين شيئا ، كان الظلام شديدا ، ولا شيء غير النخيل والحقول الى مرمى البصر ٠٠

وفجأة ، رن جرس التليفون ، واختطفت السماعة فى لهفة كأننى عثرت على كنز ، وكان حمزة بك هو المتحدث ٠٠٠ وقال بنفس الصوت المرتجف أن الانجليز احتلوا المدينة ، احتلوا حتى حجرات البيوت وأسطح المنازل ، وانهم قرروا تجفيف الترعة لانتشال الجثث ، وأن العمل قد بدأ فعلا فى تجفيف الترعة ، وعندما يأتى الصباح ستكون ترعة الاسماعيلية مجرد مقبرة من الطين لعشرات من الجثث ٠٠

وهمست فى التليفون أسأله :

ـ انت متأكد أن اللى ماتوا انجليز !

ـ تعالى الصبح شوف بعينيك ٠٠

ـ ومين اللى عملها ؟ ٠٠ حمودة ؟

ـ مش باين ٠٠

ـ البوليس ؟

ـ مش عارف ٠٠

ـ يظهر الكتيبة الجديدة ٠٠

ـ انت متأكد ٠٠

لا ٠٠

ثم ضاع صوت حمزة بك ٠٠ ومات التليفون مرة أخرى ، وهرولت مسرعاً الى مدام ريتا وأيقظتها من النوم ، وقالت وهى تغالب النوم :

ـ انت مسافر امتى ؟
ـ دلوقت ..
ـ على طول ؟
ـ أيوه ..
ـ طيب حضر شنطتى ..

عنـــدما دخلت الاسماعيلية مع الفجـــر كانت تختلف عن الاسماعيلية التى رأيتها من قبل ، مئات الجنود المسلحين فى كل ركن ، ودبابات ضخمة تسد الطريق ، وآلات تتحرك على حرف الترعة .. وكشافات نور قوية تعمى العيون ، تتحرك لاهثـــة فى بطن الترعة بحثا عن الجثث المفقودة ، وكانوا كلما عثروا على جثة حملوها على الفور فى سيارة لتسرع بها بعيدا عن العيون .

ووقفت ملطوعا عن جانب الطريق الى جانب مـــدام ريتا فى انتظار التفتيش .. ورحت أزفر من الضيق ، وأقرض أسنانى كالفأر المحبوس ..

وابتسمت مدام ريتا وهى تنظر نحوى وقالت فى دلال كأنها تتفرج على معرض :

ـ زعلان ليه ؟ مش منظر لطيف ..

وقلت فى ضجر شديد :

ـ أنا عاوز أدخل الاسماعيلية بأى طريقة ..

وقالت وهى تبتسم فى خبث :

ـ واللى يدخلك الاسماعيلية دلوقت ..
ـ مين هو ده ؟
ـ أنا !!
ـ انت يظهر عليكى فايقه ..
ـ باتكلم جد ..

واذ كان الموقف لايسمح بالهـزار الســـخيف قلت لها فى ضيق :

ـ طيب مستنية ايه ؟

ومدت يدها فضغطت على يدى برفق ‥ وتحركت نحو ضابط انجليزى عجوز كان يقف على حرف الترعة ، وبعد لحظات جاءت ومعها الضابط ، ثم أشارت نحوى ، ونظر الضابط طويلا الى وجهى ثم انصرف ، وعاد ومعه ضابط آخر أصغر منه فى السن والرتبة ، وبعد حديث خاطف بين الضابط ومدام ريتا سمحوا لنا بالمرور ‥

وعند الكوبرى شكرت مدام ريتا وودعتها ، وانحرفت ناحية البحيرة ، وطرقت عش النسر بعنف شديد ، ورحت أصرخ على حمودة حتى جاءنى صوته من الداخل ، وعندما فتح لى كان مغلق العينين لايكاد يرى تحت قدميه ، منفوخ الوجه كأنه نائم منذ عام ، وقلت له قبل أن نستقر جلوسا على الأرض :

ـ ايه اللى حصل دا يا حمودة ؟

وقال وهو يهرش فى شعر رأسه :

ـ انت عرفت ؟

ـ دا البلد مقلوبة خالص ‥

وقال وهو يتثاءب :

ـ سى فتحى ياسيدى اللى عملها ‥

قلت مشدوها ‥

ـ فتحى ؟ متأكد ؟

ـ طبعا ، عشان كنت بتقول دا طيب ‥ وابن حلال ‥ اتفرج بقى يا سيدى ‥

ـ وعملها ازاى ؟

ـ عرف امبارح ان أنا غايب عن الاسماعيلية راح عاملها ، جبان !!

ـ جبان ليه بقى ! دا يستاهل بوسة ‥

وحدجنى حمودة بنظرة قاسية ‥ وقال فى حدة ‥

ـ أنا وراه والزمن طويل ‥

وخيل الى أن حمودة ثائر لان فتحى سبقه وانتزع البطولة

لنفسه ، ومعركة مثل هذه سترفع أسهم فتحى وتقصم ظهـــر حمودة وقد تمضى عليه ، فقلت محاولا تهدئته ٠٠

ـالفرص كتير يا حمودة ، خليك ابن بلد أمال ٠٠

وقال حمودة تاثرا ٠٠

ـ يعنى عشان أبقى ابن بلد ، ياخد الولية منى وأسكت ٠٠

وصدمتنى كلمة ولية ، فنظرت نحو حمودة أحاول أن أتبين ما يقصده ، وعندما عجزت عن ذلك ، قلت له فى اهتمام :

ـ ولية ايه ؟

ـ الولية !! أمال انت بتتكلم عن ايه ؟ سى فتحى بتاعك جـه امبارح خدها وهرب ٠٠

ـ الولية مين !

ـ الولية اللى كانت هنا ، دى تابت على ايدى أنا ، وقاعـدة عندى أنا ، وبتاعتى أنا ، يقوم حتة ولد زى ده ٠٠٠

وتعثرت الكلمات على شفتى حمودة ، ثم قال وهو يهدد :

ـ طيب أنا لازم أجيب خبره ان شاء الله ٠٠

كان واضحا أن حمودة لم يعلم بنبأ المعركة ، وأن الطلقـات التى كانت تسمع عـــلى بعد عشرات الكيلومترات لم تنجح فى ايقاظ حمودة من نومه الثقيل بعد قعدة حشيش عـــلى حرف البحيرة ٠٠

وعندما استأذنت فى الانصراف نهض حمـودة يودعنى حتى الباب ، وعندما مددت يدى أصـــافحه ، قال وهـو يهزنى فى عنف :

ـ الجو كويس !

ـ الحمد لله ٠٠

ـ مفيش أخبار جديدة ؟

ـ لا أبدا ٠٠

ثم قال وهو يغلق الباب :

ـ الله يجازيك ، صحتنى من أحلى نومة ٠٠

ثم سعل بشدة قبل أن يدخل الى عش النسر لينام !!

الفصل التاسع

عندما دخلت فى الفراش لانام كانت الشمس تتوسط الافق ، وكان التعب قد هد جسمى تماما بعد ليلة الامس المثيرة وكنت قد فرغت لتوى من اعداد رسالتى عن المعركة وبعثت بهـــا الى جريدتى فى قطار الظهر ..

وشعرت وأنا أستسلم لسلطان النوم بالغيــظ ينهش قلبى من موقف حمودة ، وعصف بى أعصار هائل من الغضب النزاع الى الانتقام ، واستبد بى شوق طاغ الى كشف حمودة وصـــب الاهانات على رأسه ..

وهاهى الظروف تسمح أخيرا بالسخرية من حمودة والهـزء به .. ولابد من اذاعة نبأ النصر على الناس مقرونا باسم صاحبه .. ولكن أين صاحبه .. ومن هو صاحبه ؟ والامور تتطور هنا الى أحسن ولكن فى جو من الغموض ..

لقد كان ثمة هاجس يهتف فى نفسى أن عساكر البوليس هم الذين صنعوا المعجزة ، ولكن اللواء زكى مـــراد آكد لى عندما

تحدثت اليه فى الصباح أن عساكر البوليس تدخلوا فعــلا ولكن فى اللحظة الاخيرة · وقال لى وهو يضحك فى سرور ··

ـ لازم الجدع صاحبك اللى كان بيزعق فى اللوكاندة ··

وكان اللواء زكى مراد يقصد حمــودة ، عنــدما رآه تلك الليلة فى فندق بالاس وهو يهدد الحكومة بالحرب اذا لم تسمح له بسرقة البنك قبل أن يذهب الى الجبل ··

ولم أعقب على حديث اللواء ، ووضعت ســماعة التليفون ، وسردت أنباء المعركة كما حدثت ، وخصصت فصلا كاملا لدور عساكر البوليس فى المعركة ، وحرصت على أن أؤكد أنهــم اشتركوا فى المعركة قبيل النهاية ، وحرصت أكثر على أن أبين لقراء الجريدة أن الذين اقتحموا معركة الامس صنف جديد من الرجال لم يسبق له أن اشترك فى معركة القناة من قبــل ، واكتفيت بهذا الغمز ، وقررت أن أكشف كل شىء بوضــوح عندما أعثر على الابطال الذين صنعوا المعجزة ليلة الامس ··

وعندما أفقت من نومى كانت الشمس قــد مالت للمغيب ، ورنين التليفون يعربد فى جو الحجرة الهادىء ، وكان المتحدث هو حمزة بك عبد المقصود يدعونى الى الحضور الى مكتبه بسرعة وقال وهو يضع سماعة التليفون :

ـ عندى لك مفاجأة تهز الدنيا ··

ولم أكن أتوقع أن يكون مكتب حمزة بك عبد المقصود مزدحما الى هذا الحد ، واستطعت أن أستنتج كـل شىء من النظــرة الاولى ··

فقد كان حمودة جالسا على مقعد مريح فى صدر المكتب وحوله عشرات من الناس يستمعون اليه فى صمت ، بينما وقف عــدد من مراسلى الصحف يلتقطون لحمودة صورا فى مختلف الاوضاع ·

وعندما رآنى حمودة كف عن الكلام وهب واقفا يســتقبلنى بابتسامة عريضة ، وبنظرات ثابتة من عينيه اللتين فى لــون

العسل المخلوط بالطحينة ..

وإذ هب حمودة واقفا ، قفز الجميع وقوفا فى احترام مبالـغ فيه ، وقدمنى حمودة للجمع المحتشد فى المكتب :

ـ أجدع راجل فى الكنال • راجل نمس ، قلبــه ميت زى الحديد ..

كان واضحا أن حمودة يريد أن يكسبنى الى صفه ، ولم يكن يبدو عليه أدنى شعور بالخجل ، كأنما هذا الرجل الغريب قـد نجح فى التخلص نهائيا من هذه الصفة الانسانية البسيطة التى لاتليق برجل فى مركز حمودة !

وعندما عدنا الى الجلوس نظر نحوى نظرة فاحصة ، وقال وهو يلعق شفتيه بلسانه :

ـ انما انت كلتها ياسى حلمى النهارده الصبح ..

ثم وجه الحديث الى الجمع المحتشد وقال فى فخر شديد :

ـ سى حلمى جه عندى الصبح عشان يعرف أخبار المعـركة ، كنت أنا تعبان ، وزعته ، عملت نفسى ماعرفش حاجة ..

وضــحك ضحكة شيطانية خلت أنها صادرة من ســقف حنكه ، ثم وضع قناع الاهمية الزائف على وجهــه وراح يحكى للناس تفاصيل المعركة الرهيبة :

ـ تعرفوا من غير مؤاخذة ، بقيت نايم على حــرف الترعة والدبابات تفوت من فوق منى •

وقاطعه واحد من الجالسين هب واقفا فى حركة هسترية وقال وهو يصفق بيديه من شدة النشوة :

ـ ياسلام يامعلم حمودة ، الف سلامة ..

وقال حمودة وهو يمصمص بشفتيه :

ـ لوما ربنا ستر ، كان الواحد راح فطيس ..

وصمت حمودة قليلا ثم قال فجأة :

ـ انما ، واللى خلق الخلق ماشعرت بالخوف ..

وأشعلت كلماته الاخيرة النـــار فى قلب الرجل النحيـــل الطويل الذى كان يجلس قبالته • والذى كان شديد الاعجاب بحمودة ، فهب واقفا مرة أخرى وقال :

ـ سلامتك ياأبو قلب حديد يامعلم حمودة ، ألف سلامة • •

ولكن حمودة لم يلبث أن ألقى بقنبلة بددت هذا الشعور عندما قال فجأة :

ـ أنا صحيح خفت مرة واحدة •

وران الصمت على الناس ، وانحنى بعضهم أكثر نحو الارض وزحف بعضهم أكثر نحو حمودة ، واستأنف حمودة حديثـــه بصوت أشد هدوءا وأكثر عمقا عن ذى قبل •

ـ تعرفوا خفت امتى ؟ لما بصيت لقيت واحد اســـكتلندى يعرفنى هاجم بالدبابة على ، فضل يهجم لما بقى بينى وبينه من غير مؤاخذة شبر • الغرض ، بصيت للواد وغمزت له ، حكمة ربنا راح محمود بعيد عنى ••

وانهالت التعليقات من كل جانب •

ـ حكمة ربنا ••

ـ ليك عمر يامعلم حمودة ••

ـ شوف صنع ربنا •

واذ هدأت الضجة ، وعاد النـــاس الى الهدوء ، قال المعـلم حمودة :

ـ أصل الواد ده اسكتلندى ، واسكتلندا أصد الانجليز من غير مؤاخذة ••

وقال الرجل الطويل الهايف يسأل حمودة •

ـ ياسلام يامعلم ، بقى اسكتلاندى زينا ••

ـ أمال ، زينا تمام •

ومصمص الرجل الطويل الهايف شفتيه فى حسرة صــادقة وقال :

ـ يا سلام حكمة ربنا ••

عندما غادر الناس مكتب حمزة بك عن المقصود كانت الساعة

قد تجاوزت منتصف الليل ، ولم يبق فى المكتب الا حمزة بك وحمودة وأنا .

وسألنى حمودة فجأة :

ـ لازم كتبت موضوع حلو ..

قلت وأنا أنظر نحوه ببرود :

ـ آه .. بس قلت الحقيقة .

وقال حمودة فى برود أشد :

ـ بس انت ماسألتنيش ..

قلت فى تحد شديد :

ـ أسألك عن ايه ؟

ـ عن المعركة ..

ـ مانت كنت نايم ياحمودة ..

وضحك ضحكة صفراء ثم قال :

ـ حلوة دى ، احنا هنهزر والا ايه .

وسادت بيننا فترة صمت ، قبل أن يدخل حمزة بك وقد ارتدى معطفه وقال وهو يتجه نحو الباب :

ـ ياللا بينا ..

وقمت من فورى دون ان أدرى الى أين يأخذنا حمزة بك . وعندما كانت السيارة تنهب بنا الطريق فى اتجاه قصر حمزة بك مال حمودة على أذنى وكان يجلس خلفى وهمس قائلا :

ـ كتبت ايه بالظبط ؟ ..

وتجاهلت سؤال حمودة ولم أرد .. ولكنه استأنف حديثه قائلا :

ـ كل بتوع الصحافة خدوا صورتى ، اشمعنى انت ؟ دناحتى وضبت فورمه معتبرة لواحد صحافى .. يظهر انه فى الكتابة على قده من غير مؤاخذة ، حتة فورمة ، تعجبك ..

ونظرت الى حمودة فى غيظ شديد وسألته وقد استبد بى الفضول :

– فورمة ايه دى بقى ؟

– قلتله يكتب من غير مؤاخذة ·· شوهد أحد الكتائب يحمل المدفع ويناول الانجليز فى الصميم

وقال وهو يجلس على حرف المقعد الخلفى ويميل بجسمه نحوى :

– مش حلوة ويناول الانجليز فى الصميم دى ، ايه رأيك ؟ انت لازم تشوف لى شغله معاكو بعد الحرب

ثم قال وهو يضطجع على المقعد :

– ايه يعنى ، وحياة النبى أنا أشتغل أحسن صحافى ، دى شغلة عجز من غير مؤاخذة ·

وراح يرددوهو يجلس مجعوصا على المقعدوكأنما يحدث نفسه وهو يناول الانجليز فى الصميم ·· ياحلاوتك يا حمودة حلوة فى الصميم دى قوى ··

ثم زغدنى بأصبعه فى كتفى وقال مازحا :

– على الطلاق ماتعرف انت تجيبها دى ··

لم أكن قددخلت قصر حمزةقبل الآن ، وكان قصرا أنيقا يقف فوق ربوة عالية عند حافة الصحراء ، تحيط به حديقة مترامية لم أتبين معالمها لشدة الظلام · وقادنا حمزة بك الى بهو فاخر وتركنا لحظات ثم عاد ومعه زجاجات ويسكى وكميات هائلة من السجاير الفاخرة · واختطف حمودة علبة لنفسه ، وراح يتفرج عليها فى سذاجة طفل يتفرج على لعبة وقال وهو يفرك يديه من السعادة :

– ياسلام ياجدعان ، كرافن ، دى م النافى ·

ورد حمزة بك على الفور :

— دول عندى من زمان ، قبل الحرب ..
وقال حمودة فى غير روية :
— الكابتن ولياس مابيبعتلكش ؟
ثم أدرك أنه أخطأ فوضع العلبة مكانها على المائدة وسكت .

وبسرعة صب حمزة بك لنفسه كأسا أفرغها فى جوفه ، ودارت الكئوس بعد ذلك حتى فرغت الزجاجة ، واذ أحس حمزة بنشوة الخمر خلع جاكتته وحل رباط عنقه . وقال وتأثير الخمر باد عليه ..

— ياسلام . الواحد زى مايكون هيتخنق ، ايه آخر الحكاية دى مش عارفين ؟
وعندما استفسرت منه عما يقصده بالحكاية ، قال :
— المصيبة الى احنا فيها دى ، وقف حال من جميع النواحى
وفهمت أن حمزة بك يعنى الحرب الدائرة فى القنال ..
ويبدو أن صمتى قد أثار حمزة بك فقال يستحثنى على الكلام :

— عاجبك الحال ده ، انت ايه رأيك ؟.
ولزمت الصمت للمرة الثانية ، فقال حمزة بك يشرح الموقف :
— لا احنا قادرين نطلع الانجليز ، ولا احنا عارفين نعمل حاجة ، مش نتفق أحسن ؟
وقلت أستدرجه الى الحديث :
— وهنتفق ازاى ؟
— نتفق ياأخى ، احنا يعنى أحسن م الهند ولا أحسن من فرنسا ، وماهم متفقين مع الانجليز ، مانتفق ..
واذ لزمت الصمت مرة أخرى ، قال حمزة بك فى جد بالغ :
— أوعى تكون فاهم اننا ضد الحرب ، أنا مستعد أحارب لآخر

الزمن ، بس يكون فيه فايده ، انما حرب وبس . دا كلام فارغ مش هينوبنا غير وقف الحال . احنا ننتهز الفرصة ونتفق مع الانجليز ، والحرب وادى احنا حاربناهم ، نقوم نكسب شوية ، حاجة حاجة ، دا البنى آدم بيتعلم المشى خطوة خطوة ، نقوم احنا عاوزين ناخد كل حاجة مرة واحدة ، وهو دا معقول ، نتفق أحسن ، وبينى وبينك احنا من غير الانجليز مانسواش نكلة ، والكلام دا لك انت بس ، انت اللى تفهمنى ، انما الواحد حاطط همه فى قلبه وساكت ، الناس الغنم اللى فى الشارع فاهمين المسألة خطف ، نحارب الانجليز ، ياللانحارب . هيه ايه ؟ اشرب اشرب ..

ومد يده نحوى بكأس مترعة ، فقذفتها فى جوفى ، ورحت أنظر من النافذة عبر الظلام الى الصحراء البعيدة .

وقال بعد أن انتهى من كأسه :

ـ أنا عايش لوحدى زى ماانت شايف كده .. البيت الطويل العريض ده مافيهش حد ..

وسألت حمزة بك فى سذاجة :

ـ انت مش متجوز ؟ ..

وضحك ضحكة صافية وقال وهو يشعل لنفسه سيجارة .

ـ احنا مش بتوع جواز ، الجواز ينفع لناس معينين ، واحد موظف ، واحد عامل يجيب عيال ، ويشترى لهم بطيخ وبعدين يكبر ويموت ، احنا صنف تانى .

وسكت حمزة بك قليلا ثم قال وهو ينفخ دخان سيجارته فى ضجر شديد ،

ـ وهنتجوز ليه ، نجيب واحدة ست ، ما الستات على قفا من يشيل ، نجيب عيال ، كفاية العيال اللى فى الدنيا ، دا حتى يظهر العيال مابقتش تموت ، كل ماتمشى فى حته تلاقى عيال زى الدبان .

وقال وهو يثبت نظارته على أنفه :

ـ تعرف ، مايصلحش الحال فى الدنيا دى غير حرب ، حــرب تشيل شوية م الهم ده ..

وقلت محاولا أن أبدد جو الكآبة الذى ران علينا :

ـ طيب ما الحرب شغاله أهه ..

وضحك حمزة بك ضحكة استهزاء وقال فى سخرية حادة :

ـ ودى حرب ، دا لعب عيال ، أنا فى الحرب اللى فاتت كنت واخد مقاولة تفريغ فى الموانىء بتاعة الانجليز ، كنت أفرغ كل يوم ميت ألف صندوق فى ميناء الأدبية . ميت ألف كل يوم ، كان ليه قرش صاغ واحد على كل صندوق ، يعنى ألف جنيــه كل يوم يا أستاذ ، ألف جنيه من مينا واحدة ، دا غير الموانىء التانية ، أهى دى الحرب ، الحرب بتشيل الزيادة وتعمل رواج انما حرب م النوع اياه ده ، الغرض ، ربنا يفوتها على خيرالايام دى ..

واستيقظ حمودة الذى كان قد نام خلال حديث حمزة بك، والتقطت أذناه العبارة الاخيرة التى نطق بها ، فقال معقبا دون أن يفهم شيئا :

ـ يارب تفوتها على خير. أنا وحياة سيدنا النبى عينى بترف، يظهر هاشرب من دم الواد فتحى النهارده .

وقال حمزة بك ينصح حمودة :

ـ أوعى تعمل لفتحى حاجة ، احنا مش عاوزين خوتة دماغ، ملعون أبوه لأبوها ، هوه مافيش غيرها ياأخى .

والتفت نحوى وقال فى لهجة آمرة :

ـ احنا عاوزينك تمنجه حمودة شوية . يعنى كام مقالة كده سخنين . الراجل عمل اللى عليه امبارح أما نشوف أنتهتعمل ايه بقى ؟

واختلست نظرة نحو حمودة ، كان وجهه هادئا لايعبر عن شيء ، وبريق عينيه الأخاذ لم يخمد ، وابتسامته العريضةالبلهاء ترف على شفتيه • وقال وهو ينظر نحو حمزة بك :

ـ دا مش مصدق ياسعادة البيه ان أنا اللى حاربت امبارح

وقال حمزة بك وهو ينظر نحوى فى مودة :

ـ دابيهزر ••

ثم قال مستنكرا :

ـ أمال هوه مين يعنى • عفريت من تحت الارض ؟

ثم قال وقد حول مجرى الحديث :

ـ انت عرفت اللى حصل لحمودة امبارح ؟

ـ هو كان مشغول فى المعركة ، وفتحى بدير خد البت بتاعته وهرب ،صحيح كل واحد فى سوق •

وضحك ضحكة هستيرية ، وخبط الأرض بقدمه ، ثم قال :

ـ انت عرفت ؟

وقلت :

ـ أيوه عرفت•••

وضحك حمزة بك بنفس الطريقة وقال :

ـ الله ، طيب مانت عندك الاخبار أهه • صحيح صحفى

ـ حمودة اللى قاللى على الاخبار ، ماقالش حاجة عن المعركة فاللى فتحى بدير والبت بس ••

ـ ماهو مغفل ، بيحب ياسيدى ، واخده عقله ، آل حب آل انا عمرى ماحبيت ، حب ايه ياخويا ، تعرف أنا مرة واحدة بس حبيت ، بت من بورسعيد ، كان سنة ٣٠ وأنا شاب صغير ، كانت عاوزانى أتوظف فى البوستة وتجوزنى • وجابتلى ميت جنيه أدفعهم رشوة عشان أتوظف خدت أنا الميت جنيه وهربت على مصر ، ضاعوا فى شهرين رجعت تانى ، لقيتها انتحرت ، رمت نفسها فى البحر ، تعرف ماتت ليه المغفلة ، عشان الميت جنيه !

وهب حمزة بك واقفا يضحك فى جنون ، ثم راح يقهقه كأنه قرد وهو ينظر الى نفسه فى المرآة الضخمة التى كانت تتوسط البهو ، ثم قذف بالنحاس فجأة واخذ فى البكاء • كان يبكى بحرقة وبصوت • ؟؟ وكان واضحا أنه فقد الوعى من شدة السكر •فلم يكن على المائدة سوى ثلاث زجاجات فارغه ، وعلى الارض كأس محطم ، وعلى المقعد رجل بائس مبعثر النفس كحطام الكأس •
ونهض حمودة فحمل حمزة بك الى الداخل • وعندما عاد بعد فترة قال ونحن نتاهب للخروج :
ـ لما يسكر قوى يعمل كده ، مسكين الناس حاسداه على العز اللى هو فيه ، ماحدش عارف الحقيقة ••
ورحنا نقطع الطريق من قصر حمزة بك الى قلب المدينه فى هدوء •
كان كل منا يحمل ترخيصا بالمرور وكان حمودة كلما استوقفتنا نقطة مرور انجليزية • أبرز تصريحه فى زهو ، ثم مد يده للجندى الانجليزى ، وهتف فى وجهه :
ـ كفك ياجورج • نهارك أسود انشاء الله ••
وكان الجندى الانجليزى الذى لايفهم شيئا يدق كفابكف مع حمودة ، ويمطره بكلمات الشكر • ولكن عند آخر نقطةحراسة كادت تحدث فاجعة • فقد هتف حمودة كعادته فى وجه الجندى الانجليزى بكلمةنابيةشديدة الوقاحة ، وكان الجندى يعلممعناها فأمسك بخناق حمودة ، ثم صوب مدفعه الرشاش نحوه وكاد يضغط على الزناد • لولا توسلات حمودة له بالا يفعل ••
والحق اننى شعرت بشماتة بالغة تجاه حمودة ، فقد وقف أمام الجندى يتوسل فى خوف شديد ، وجسمه ينتفض كأنه أرنب أمسكت به يد قاسية • وراح يتكلم بسرعة محاولا بشتى الطرق افهام الجندى الغاضب انه يمزح ليس الا ••
ـ هزار ياجونى ، هزار وحياة النبى احنا سوا سوا •
وراح يتوسل الى فى استخذاء :

ـ ماتقوللوا دا هزار ٠٠ قوللو بالانجليزى ٠٠ ياسى حلمى

وتركه الجندى أخيرا بعد أن صب على رأسه كل الـــكلمات البذيئة التى يعرفها فى كل اللغات ٠

وظل حمودة يختلس النظرخلفه خوفا من أن يطلقالانجليزى النار على ظهره وعندما انحرفنا فى طريق جانبى اطمأن قلبه ، وعادت الشجاعة اليه ، فقال يتوعد الجندى :

ـ آخر يوم فى عمرك يابن المركوب ، أنا حفضت شكله اياك أشوفه فى المعركة الجاية ٠

وتركنى حمودة عند باب اللوكاندة وانصرف ٠٠ ولم أكـد أخطو داخلها حتىفوجئت بفتحى يعترضطريقى، وكانينتظرنى منذ ساعات ٠ وعندما هممت بالوقوف معه فى بهو الفنـــدق جذبنى بشدة نحو السلم ، وقال بصوت مرتعد :

ـ نطلع فوق أحسن ٠

وكان واضحا أنه خائف من شىء ما ، ومذعور لايكاد رأســه الصغير يستقر على حال فوق رقبته النحيلة ٠ وعندما أصبحنا داخل الحجرة قال بعد أن اطمأن الى أن الباب مغلق بالمفتاح :

ـ انت كنت فين دا كله ؟

ـ مع حمودة ٠٠

وبدا على فتحى الاضطراب ، وقال وهو يتهاوى على المقعد :

ـ وراح فين ؟

ـ راح ع العش بتاعه ٠٠

ـ مش معقول ٠٠

ـ دنا سايبه دلوقت رايح على هناك ٠٠

ـ أيوه صحيح ، بس هوه مش حيروح على هناك ، حمودة بيخاف ينام لوحده بيخاف م الضلمة ٠

وخلعت جاكتتى واتجهت نحو الدولاب مبديا عدم اهتمامى بحديث فتحى ، ولاحظ هـو هذه الحركة ، فقال على الفور ٠

ـ ماتفتكرش أنا باشنع على حمودة ، حمودة قلبه زى الحديد فى كل حاجة ، انما يخاف ينام لوحده ، عشان كده كان قاعد مع رتيبه ..

ورنت كلمة رتيبة فى أذنى ، فقد كانت هذه أول مرة أعرف أن المرأة البدينة اسمها رتيبه . وقلت لفتحى متجاهلا الموضوع كله :

ـ وهيه مش معاه دلوقت .

ـ الله ، هوه حمودة ماقالكش ..

ـ لأ ..

وتملك فتحى ذعر أكبر ، فمادام حمودة لم يقص نبأ هروب رتيبة فلا بد أنه يدبر أمرا ، وحمودة سفاح وشديد القسوة وخصوصا اذا استولى الغيظ على قلبه .

وقال فتحى فى اضطراب ..

ـ هيه هربت منه امبارح ..

ـ ليه ؟ ..

ـ مش عاوزه تقعد معاه ، كان راميها زى الكلبة فى العشة ، يقعد ياكل لوحده وان فاض منه حاجة تقعد تأكلها . عمره ماقالها تعالى كل معايا ، عمره ماخرج معاها مرة ، عمره مافكر يجيب لها جلبيه كانت تقعد بالاسبوع مايشوفهاش . دالواحد لو عنده قطة بيراعيها ، زهقت منه ، كتر خيرها .

ـ وهيه فين دلوقت ؟

ـ ماعرفش ..

ـ ماتعرفش ازاى ، مش انت اللى مهربها .

ـ حمودة قالك كده ؟

ـ آه ..

ـ أمال بتقول ماقليش ليه ؟

ـ عاوز أعرف ايه الحكاية ..

وصمت فتى ، وراح ينظر فى سقف الحجرة ، وبدا عليه

أنه شعر بالراحة اذ علم أن حمودة روى لى قصة رتيبة • ولم يطل صمت فتحى فقال والزهق يملؤه :

ـ مش دا المهم ، انت شفت اللى حصل امبارح

ـ حصل ايه ؟

ـ المعركة اللى عند الترعة ، انت مادريتش والا ايه ؟

ـ لأ دريت ••

ـ ايه رأيك ؟ كله من ده من هنا ورايح ، أنا فتحت كتيبة صغيرة كده ، انما عيال زى العفاريت الزرق • شيبوا الانجليز امبارح ، انت لازم تكتب كلمة عن الكتيبة ، أنا سميتها كتيبة الشياطين الحمر ، ايه رأيك ؟

ونظرت الى فتحى وأنا أتمدد على الفراش ، وتثاءبت بشدة ، وقلت وأنا أجذب الغطاء على رأسى :

ـ أنا عاوز أنام •

وقال فتحى وهو يغوص فى الكرسى الجلد

ـ نام وخد راحتك ••

ـ وانت ؟

ـ هنام مطرحى ، مش هازعجك •

ـ وليه ماتنامش فى البيت ، انت مش معاك تصريح ••

ـ أيوه معايا ، بس حمودة تلقاه داير لف فى الشوارع مش هيروح العش الا الصبح ، ولو قابلنى دلوقت ••

وتثاءب فتحى وأغمض عينيه وألقى برأسه الى الخلف ، ثم دعك عينيه وهز رأسه فى عنف ، وقال وهو يغالب النوم

ـ نام انت على كيفك ، أنا هافضل صاحى للصبح ، النهار له عينين ، أول النهار مايطلعهاخرج أنا ماتخافش مش هازعجك •

ولم يكد فتحى ينتهى من حديثه حتى أغفى ، كان واضحا انه شديد الانفعال وانه فى حاجة الى نوم عميق ••

ولكن أين رتيبة ؟ أين هى بعد أن خطفها من حمودة ، لعلها مع الشياطين الحمر ، رجال فتحى الذين شيبوا الانجليز ليلة

الأمس ، لعلهاهى كل الشياطين الحمر الذى يقودهم فتحى لتحرير مصر من جيش الانجليز .
وزعقت بشدة فى زجهه أناديه ، وهب مذعورا من نومه كأن نمرا مفترسا انقض عليه ، ثم هدأت نفسه بعد أن اطمأن الى أن كل شيء على مايرام ، فعاد الى مكانه مرة أخرى ، ولكن مفتوح العينين :
وقلت فى همس :
ـ فتحى ، مين اللى دخل معركة امبارح ؟
ورد متحمسا :
ـ مش حمودة .
ـ أنا عارف مين امال ؟
وقال والنوم يداعب عينيه :
ـ الكتيبة الجديدة ، بس احنا اشتركنا معاها ..
ـ عارف مكانهم ..
ـ آه ، الصبح أروح معاك اذا كنت عاوز ، وزى بعضه أنضم لهم .
ـ طيب نروح بكره سوا .
ـ حاضر ..
وأغلق فتحى عينيه ، وراح صدره يعلو ويهبط بانتظام ، وبدا وجهه الشاحب المغضن فى ضوء المصباح كأنه دمية من خشب لتخويف الغربان . وشعرت بالندم اننى اتفقت مع فتحى على الذهاب معه الى مكان الكتيبة الجديدة فى الصباح فليس من الخير أن يعرف فتحى مكانهم ولكنه كان يعرف مكانهم من قبل والالما استطاع أن يقودنى الى هناك . ثم ماذا يهم لو عرف فتحى مكانهم .
وماذا يستطيع أن يصنع فتحى ؟ هذا البائس اليائس ، المسكين !
وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بقليل ، والريح قد

نشطت فى الخارج وراحت تلطم النافذة بقسوة ٠ والمطر الذى انهمر فجأة أخذ يفرقع على أسفلت الشارع ٠٠

وأحسست ببرد شديد يهرأ جلدى وينفذ فى عظامى ، وكميات الويسكى التى شربتها مع حمزة بك تحولت الى صـداع قاتل ينشر فى عظام رأسى كالسكين وعندما سحبت الغطاء على وجهى وتأهبت لنوم عميق ، دق باب حجرتى طارق مجهول ، وارتفع صوت حمودة من وراء الباب يستأذن فى الدخول ٠

الفصل العاشر

كان صوت حمودة الذى ارتفع من خلف الباب يستأذن فى الدخول أشبه بعصا من الشوم فلعت دماغ فتحى بدير فانكمش مذعورا فى مقعده ، ينظر نحوى فى قلق بالغ ، وعيناه الضيقتان الغشاشتان تنظران نحوى فى توسل ذليل الا أفتح البـاب ٠٠ ولكن رغم منظر فتحى الذى يدعو الى الرثاء نهضت من فراشى واتجهت نحو الباب وقد تملكتنى رغبة فى الاستمتاع بمشاهدة المعركة التى ستدور حتما بين الرجلين ٠ ولكن هـــذه الرغبة سرعان ما انسحقت من هول المفاجأة التى حدثت عندما فتحت الباب ٠ فقد سقط حمودة كالشوال داخل الحجرة ، بينما اندفع دمه على الارض راسما بقعة كبيرة لم تلبث أن اتسعت حتى بدت كأنها بحيرة صغيرة من الدم ، وأكثر من نهر رفيع اندفع مـــن داخلها فى كل اتجاه ٠ وانحنيت على حمودة الذى انكفأ على وجهه فى صمت ، وأصابع يده الباردة تنام مسترخية فى بحيرة الدم ٠ وراعنى الشحوب الذى اعترى وجهه ، والــكدمات التى بدت معالمها القاسية ٠ وصدره الذى بدا لشدة ضعفه وكأنما انقطعت عنه أنفاس الحياة ٠

ووقف فتحى بدير مضطربا لايدرى ماذا يفعل ، ولكنه سرعان ما اندفع نحو الحوض وعاد بعد قليل وقد حمــل بين يديه اناء وقبض بين أسنانه على فوطة ، وركع على الارض الى جانب حمودة يغسل له الجراح ٠٠

وجلست على الارض لا أدرى ماذا أفعل ، وفي موقف مثل هذا أجد نفسي دائما فاقد القدرة على التصرف • ولا أملك في المآزق الا أن أنتظر هبوط معجزة من السماء • ورحت أدقق النظر في وجه حمودة المستسلم لأنامل فتحي بدير المرتعشة ، كان وجهه شديد الشحوب ، شديد الهدوء ، زايلته كل الاقنعة الزائفة التي يرتديها حمودة في المناسبات ، وبدا لى أن الوجه الذى أراه هو وجه حمودة الحقيقي ، الوجه الذى كان يخفيه في أعماقه ، ثم ظهر فجأة فى لحظة ضعف ، وكأنما نوبة الاغماء التى احتوت حمودة قد احتوت أيضا كل أحلامه وأطماعه •

وفجأة ، ترك فتحي بدير رأس حمودة يتدحرج من بين أصابعه يسقط على الارض ، والتفت مذعورا نحوى ، وقال وهو يخلع ملابس حمودة :

– دا مضروب فى جنبه •

ولم أكن حتى هذه اللحظة قد تبينت مدى الاصابات التى لحقت بحمودة ، كنت أتوهم أن المعركة انتهت عند حد الكدمات التى في وجهه ، والزرقة التى حول عينيه وخيط الدم الذى يسيل من أنفه وجانب فكه ، ولكن عندما كشف فتحي عن جنب حمودة أدركت خطورة ما حدث • كان ثمة جرح غائر فى جنبه ، مفتوح كأنه ضربة سكين فى بطيخة شديدة الاحمرار ، والدم يتدفق بلا انقطاع ، وامعاؤه برزت الى الخارج ، وعندما وضع فتحي الفوطة على الجرح اصطبغت بلون الدم ، ولكنها لم تجد فى صد النزيف الذى راح يسيل ، كأنما دم حمودة المتقلب الأهواء قد وجد أخيرا فرصة ليهرب من هذا الشق المفتوح •• وعندما أشار فتحي باستدعاء طبيب ، انتابتنى الحيرة ، فأنا لا أعرف أطباء فى المدينة ، وحتى لو كنت أعرف طبيبا ، فكيف يصل الينا ، والتجوال ممنوع فى المدينة ، ولا تزال أمامنا ساعة حتى تشرق الشمس ، وبقاء حمودة ساعة أخرى وهو فى هذه الحالة سيعرض حياته حتما للخطر • وفكرت فى أن أحمل حمودة وأجرى به

الى المستشفى وأنا وفتحى معنا تصريح بالمرور فى الليل ، ولكن هذا القتيل الذى معنا سيثير الشبهات حتما عند نقط التفتيش ، وقد ينتهى الامر الى أن نفقد أرواحنا جميعا ..

ووقفت وسط الحجرة أتأمل جرح حمودة ودمه الذى ينزف وأبحث عن طريقة للعمل . هل أترك حمودة على الارض حتى يموت ، أم أحمله وأخرج الى المستشفى ، وقد أموت أنا وفتحى وحمودة .. أم أستدعى طبيبا ، وقد تدفعه الشهامة الى المجازفه بالحضور ، وعندئذ قد يتعرض للقتل برصاصة يطلقها مركز من مراكز التفتيش .

وكان فتحى الذى لم يتقن عملا فى الحياة قد انهمك فى تضميد جرح حمودة الغائر وغسله بالماء ، تاركا لى مهمة تدبير مصير حمودة ، وأحسست أنى فى حاجة الى شخص آخر ليواجه الامر معى ، ورفعت سماعة التليفون واتصلت بمدام ريتا . وارتفع صوتها بعد دقائق كالنغم الحلو وان كان يشوبه شىء من الضيق . ولما لم يكن هناك وقت للاعتذار بكلام سخيف اعتاده الناس فى مثل هذه الظروف ، فقد دخلت الى الموضوع مباشرة ، وقلت لها فى لهجة جادة وفى صوت متهدج :

ـ عاوزين دكتور بسرعة .

وصرخت من الفزع :

ـ ليه ، حصل حاجة ؟

ـ بعدين حاحكيلك كل حاجة . المهم عاوزين دكتور بأى شكل ..

وقالت مدام ريتا فى اشفاق :

ـ دكتور دلوقت ، مستعجل .

وراحت تعدد الأسباب التى جعلت الحصول على دكتور فى هذا الوقت شيئا أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفى ، وهى أسباب كنت أعرفها تماما من قبل .. وعندئذ تأكد لى أن حمودة سيلقى حتفه حتما قبل أن تشرق الشمس ، وأن الأوان قد حان ليحصل

حمودة على الراحة التى لشد ماكان يتوق اليها فى الحياة • ولكن خيطا رفيعا من الامل برق وسط هذا الجو المشحون باليأس والقلق، عندما هتفت مدام ريتا وهى تنهى المكالمة :

ـ أنا نازلة عندك حالا •

ونزول مدام ريتا أو صعودها قد لايكون له أدنى تأثير على الموقف ، ولكنى أحسست بالراحة لمجرد نزولها ، وهو احساس هايف اذا ناقشناه على ضوء المنطق ، ولكن من قال أن أحاسيس الانسان تخضع لمنطق ؟

وجاءت مدام ريتا فى قميص نوم شفاف ويبدو أنهـا كانت تتوقع كل شىء الا الشىء الذى رأته بالفعل ، فعنـدما أبصرت حمودة ممددا كالفسيخة على الارض ، هوت على مقعد قريب ، وقالت وهى تخفى عينيها بيديها :

ـ مين قتله ••

وحكيت لها القصة باختصار وعندئذ نهضت وضغطت على الجرس المثبت عند الباب ، وحضر الينا خادم عجوز ، ووقف مفتوح الفم من الدهشة وقد راعه وجود مدام ريتا فى تلك الساعة، والقتيـل ينزف دما عـلى الارض ، وقالت له ريتا فى حزم :

ـ هات كشف اللوكاندة حالا ••

ولم أدرك الحكمة من وراء هذا الطلب ولم أناقشها فى هـذا الأمر ، وكأنما اتخذت قرارا بينى وبين نفسى أن أترك مهمة تدبير الامر كيفما تشاء •

وعندما جاء الخادم بالكشف ، ألقت عليه نظرة سريعة ، ثم هتفت فى سرور بالغ :

ـ فيه دكتور فى اللوكاندة ••

واندفعت بعد ذلك الى الممر المظلم ، وغابت دقائق ، ثم عادت ومعها رجل أشيب نحيف فى ملابس النوم ، تتأرجح نظارته السميكة فوق أرنبة أنفه الصغير ••

وانحنى الرجل يتحسس جسم حمودة ثم طلب ماء ساخنا ، ثم

وجرى الخادم فأحضر الماء فى لحظات ، وراح الطبيب يحشو جرح حمودة بالفوط ، ثم لفه بملاءة السرير ، وحملناه معا الى الفراش وقد انقطع النزيف ، وعندئذ جلس الطبيب العجوز على المقعد يلتقط أنفاسه ، وانحنى الخادم على الارض يزيل بركة الدم المتجمد ووقفت مدام ريتا عند قدمى حمودة ، وفتحى بدير راح يشرح لها الامر كخبير فى طب الجراح ! ..

وشكرت الطبيب على نجدته لنا ، وابتسم الرجل فى ود عميق ، وقال وهو يمسح عدسات النظارة :

ـ ما باليد حيلة ..

ثم ضحك ضحكة خفيفة قبل أن يقول

ـ أنا فى الحقيقة .. دكتور .. بيطرى ..

ثم جلس صامتا ينظر الينا من تحت زجاج نظارته فى ريبة شديدة ، وكان بين الحين والحين يتثاءب ، فاتحا فمه على اتساعه ، فتبدو أنيابه وقد نخرها السوس . وكان يبدو عليه أنه شديد الرغبة فى النوم ، ولكنه لم يكن يجرؤ على تنفيذ هذه الرغبة . فقد خيل اليه لغرابة المفاجأة ، أنه فى فندق محوط بالاسرار ، وأن الظروف التعيسة قد منحته دورا هاما فى قصة بوليسية شديدة الغموض . والا فأى فارق بين مايراه هنا وما يقرؤه فى روايات أرسين لوبين ، هذه المرأة الحلوة فى قميص نوم شفاف تطرق عليه الباب فى الفجر ، وتستدعيه فى قلق بالغ ، ثم يخرج معها ليفاجأ بقتيل مطعون فى الجنب ، على وشك الموت لكثرة مانزف من الدماء ..

ولكنه ورغم كل هذه الشكوك التى كانت تساور الطبيب العجوز لم يجرؤ أبدا على توجيه أى نوع من الاسئلة الينا ! اكتفى بالجلوس والصمت والتحديق فينا دائما ، كأنما يبغى أن يطبع صورنا فى ذهنه ، فقد توقع أن يكون للقصة فصول لم تتم ..

وعندما عاد الخادم بالشاى ، رفض أن يشرب رغم شدة احتياجه الى شىء ساخن يشربه ، لعل خاطرا طاف فى ذهنه أن الشاى

مسموم ، واننا ندبر قتله لنتخلص منـه حتى لايفشى سرنا .
وعندما سألته عن حالة حمودة ، أجاب فى اختصار :
- خطيرة ..
ثم عاد بعد فترة فأكد ضرورة نقله الى المستشفى ، ثم قال فى لهجة آسفة :
- لو عاش يبقى محظوظ .
وعندما سـألته ، هـل الامل كبير فى النجـاة ، قال فى هدوء :
- لو عاش للصبح ، يبقى ..
ولم يزد الدكتور حرفا ، ومط شفتيه وخلع نظـارته وراح يمسح زجاجها من جديد ..
وعندما سمع فتحى هذه العبارة الاخيرة هوى على مقعد بجوار الدكتور العجوز ، ثم وضع رأسه الصغير بين راحتيه ، وفجأة انخرط فتحى فى بكاء عنيف .
وبهت الطبيب لهذا الذى حدث ، وراح ينظر فى صمت الى فتحى بدير الذى أخذ يهتز فى حركات عصبية وقد ارتفع صوته فى نحيب صادق شديد .
وقال الدكتور وهو يشير نحو فتحى :
- هوه قريبه ..
- لأ ، صاحبه ..
وسكت الدكتور ، ولكن نظراته الينا خفت حدتها ، وكأنما غسلت دموع فتحى المنهمرة كل الشكوك التى فى نفسه ، وعندئذ مد يده الى كوب الشاى البارد فشفطه على دفعات كبيرة متلاحقة ثم تنهد فى عمق ، وقال فى اهتمام :
- ايه الحكاية ..
وحكينا له الامر كما وقع بالضبط وبالتفصيل ، منذ تركت حمودة عند باب اللوكاندة ، الى مجىء فتحى ، ثم عودة حمودة بعد ذلك ، حتى قصة الخلاف بـين فتحى وحمودة شرحتها له .

وعندما انتهيت من سرد كل شيء ، سألني في اهتمام كأنه محقق عنيد :

ـ انت قلت ان حمودة اتخانق مع عسكرى انجليزى عند نقطة التفتيش ..

ـ أيوه ..

ـ مش ممكن يكون هوه اللى ضربه .

وقلت وأنا أجلس أنا الآخر وقد هد التعب جسمي :

ـ مش عارف ..

وهز الرجل رأسه في أسى بالغ ، ثم قال وهو يغوص في مقعده ..

ـ ياسلام ، شوف الصدف ، أهي دي أول مرة آجي الاسماعيلية ..

ثم راح يحكي لنا ببساطة تاريخ حياته ، منذ يوم وفاة أمه وهو صبي صغير ، ثم عندما أصبح طبيبا ، ثم زواجه ثم وفاة زوجته وهي تضع ابنها الثاني وقد تركت خلفها ابنا لم يتعد الثالثة وكيف نذر نفسه لتربية الطفل الذى فقد أمه ، لم يشأ أن يدع ابنه يمر في نفس التجربة التي خاضها هو مع زوجة أبيه فلم يتزوج ، ولقد كبر الطفل بعد ذلك حتى أصبح شابا، تخرج في الجامعة وأصبح مهندسا ، يعمل في الوزارة وله مكتب يتردد عليه في المساء ، ولكنه هجر كل شيء فجأة واختفى ، وانسحق قلب الطبيب الشيخ لهذا الامر ، كان يعلم أن سعيد ـ اسم الابن ـ قد وقع في حب فتاة ، فقدر أن ولده قد صدم في حبه فآثر أن يعتزل الحياة بعض الوقت . ولكن الذى اكتشفه بعد ذلك كان أقسى مما يحتمله ، فقد اكتشف أنه في الاسماعيلية ضمن كتيبة جاءت الى هنا لتحارب الانجليز في القناة .

ولقد كان الرجل على استعداد لان يسمح بأى شيء الا هذا .

لقد عاش من أجل هدف واحد ، أن يشيعه حتى باب القبر عندما ينفذ فيه أمر الله ويموت ، ولكن هاهو المجنون سعيد يريد

أن يسبقه ، من اذن سوف يحمله الى القبر ويتلقى فيه العزاء
كان يحكى لنا جميعا ، ولكنه لم يحول بصره عن مدام ريتا، وكان يتحدث بمرارة عن النساء كلما تعرض لهن خلال قصته الطويلة .. ولقد جاء الى الاسماعيلية بحثا عن سعيد ، فاذا به يرى فى أول ليلة له فى المدينة ماهبط بقلبه الى ركبتيه . فها هو رجل صريع يلفظ أنفاسه أمامه مطعونا بسونكى حاد .

وراح يسألنا عن عدد القتلى من الرجال وعن أسمائهم ومهنهم وراح فتحى يجيبه كأنه المسئول الاول والاخير عن كل ما يدور فى المنطقة من معارك ، وكل الذين يسقطون على أرضها من رجال واطمأن الطبيب الشيخ الى فتحى ، وتوسل اليه أن يمر عليه فى الصباح بعد أن يعود من المستشفى ، وعندما وعده فتحى تهللت أساريره وهتف وهو مبسوط ..

ـ الحمد لله ..

وكان الصباح قد بدأ يزحف علينا ، وحمودة لايزال غائبا عن الوعى ، وفتحى بدير أسند رأسه على حافة الكرسى ونام ، وغادر الدكتور الحجرة مستأذنا لشدة احتياجه الى النوم ، وبقيت مدام ريتا وهى تنظر الى حمودة أحيانا ، والى بعضنا أحيانا أخرى . وعندما مرت سيارة فى الطريق هرعت مدام ريتا الى النافذة . ثم هتفت ورأسها للخارج :

ـ خلاص . الناس مشيت ..

ثم عادت الى التليفون ، واستدعت المسيو فرانشسكو وأمرته بتجهيز السيارة ، ثم قالت لى وهى تغادر الحجرة :

ـ فرانشسكو هيوصلكم لحد المستشفى ..

وحملنا حمودة ، فتحى بدير وأنا وانطلقت بنا السيارة الى المستشفى وعندما تحسست وجه حمودة ـ ونحن فى الطريق خيل الى إنه مات ، فقدكان بارداكلوح الثلج ، ناشفا كأنه رغيف عيش بايت ، ولكن الطبيب الذى كشف عليه فى المستشفى أخبرنا انه لايزال على قيد الحياة ، وانه سيعيش رغم كل شىء .

وعرفت وقتئذ أن سكينا حادا قد غاصت فى جنبه ، ومزقت أمعاءه . وقال الطبيب وهو فى غاية الدهشة :

ــ واحد غيره كان مات .

ثم سألنا وهو يكتب فى ورقة .

ــ فيه حد منكم قريبه ..

ولما أجبناه بالنفى ، راح يسأل عن علاقتنا به ، ومن الذى طعنه ؟ ومن ؟ وأين ؟

ولما أبدينا له جهلنا بكل شىء يتعلق بهذا الموضوع ، نظر نحونا فى ريبة وقال يتهددنا .

ــ أنا هابلغ البوليس .

وعندما رفع سماعة التليفون ، انهار فرانشيسكو تماما .. وقال وهو يكاد يبكى :

ــ أنا ماليش دعوة ، أنا مدير اللوكاندة همه دول يعرفوه ، أنا ماعرفوش .

وعندما شخط فيه الطبيب آمرا إياه بالصمت ، سكت على الفور ولم يتكلم ..

وعندما وضع الطبيب سماعة التليفون نظر الينا ثم قال وهو يستعد للانصراف :

ــ البوليس جى دلوقت ..

ثم توقف عند الباب وقال وفى صوته نبرة تهديد :

ــ ماحدش منكم يخرج ، فيه حراسة على الباب ..

ونهض فتحى بديروقال للطبيب وهويجاهد لكى يبدوبسيطا وغير مهتم :

ــ دلوقت يفوق حمودة ويقول على كل حاجة ..

ولكن الطبيب لم يعلق على عبارة فتحى ، وتركنا وانصرف ، وعاد الى فرانشسكو جنونه ، فراح يتوسل الينا أن نذكرالحقيقة ثم ارتفع صوته وهو يرجونا أن نسمح له بالخروج وكأن الامر فى يدينا ، وعندما شخط فتحى عاد اليه هدوءه وجلس صامتا

لايتحرك ٠

واذ عاد الهدوء الى الحجرة الضيقة ، همس فتحى وهو الى جوارى :

- الله يخرب عقله حمودة ، مافيش وراه غير المشاكل ، ان كان عايش والا ميت ٠٠

ثم فتح فمه الواسع عن ابتسامة باهتة ، لم تلبث أن ماتت سريعا ، ثم عاد يهمس فى أذنى مرة أخرى :

- يبقى خازوق لو مات ٠٠

ثم عض على شفته وقال في خوف شديد :

- ياخبر أسود لو مات ٠٠

ولما لم أرد عليه ، استأنف حديثه قائلا :

- هيقول الناس أنا اللى قتلته ، عشان الخلاف اللى بينى وبينه ، وأروح فى حديد ، انت عارف اللى حصل بالظبط ٠٠ انت شاهد يا أستاذ ، أنا كنت عندك فى اللوكاندة ، ياخبر أسود ياجدعان أهى دى داهيـــة كحلى بصـــحيح الله يخرب بيتك ياحمودة ٠٠

واذ ارتفع صوته حتى أصبح ضجيجا زعقت فى وجهه آمرا اياه بالصمت ، فقد تحول صوته المسرسع المسلوخ الى عشرات الأبواق تصرخ فى أذنى ٠٠

وسكت فتحى فعلا ، بينما جلس فرانشسكو ينظر الينا فى قلق ، وأغلقت عينى كأنى أنام ، ولكن لم تلبث الضجة أن انبعثت من جديد فى الحجرة ، أحذية ضخمة تدق الارض فى قســوة ، والباب ينفتح ويغلق فى حركة عصبية ، ففتحت عينى بصعوبة ، وقد خيل الى انهما محشوتان بالتراب ، واستطعت أن أتبين وجه ضابط بوليس شاب وبعض الجنود وآخـــرين فى ملابس افندية ٠

وبدأ تحقيق سريع معنا عن سر الجريح ، وقلت للضابط ما اعرفه بالضبط ، وبكى فرانشسكو وأعلن انه برىء وانه مدير اللوكاندة ليس الا ، ولم يذكر مدام زيتا فى الموضوع ٠٠ وقال فتحى بديو

كلاما مشابها لما قلت وعندما انتهى التحقيق ، واستفسر الضابط من الطبيب عما اذا كان يستطيع أن يستجوب الجريح ورد الطبيب بالنفى ٠ وأضاف وهو يمط شفتيه ان حالته خطيرة ، وأن الطبيب الذى يجرى له العملية يتوقع موت الجريح أثناء العملية ، والتفت الينا الضابط وطلب الينا فى رفق أن نصحبه الى قسم البوليس لاستكمال التحقيق ولعرض الامر على المأمور ، ولم أمانع فى ذلك ، غير أن فرانشسكو رفض مغادرة الحجرة ، وراح يصرخ وهو يشد شعر رأسه الناعم :

ـ أنا ماليش دعوة ، أنا موش قتلت حمودة ٠٠

ولما كان الضابط حديث العهد بالمهنة فقد راقه أن يمثل دور شرلوك هولمز معنا ، وكأنما حركت فيه كلمات فرانشسكو المتوسلة هذه الرغبة ٠ فالتقط كلمة القتل التى وردت فى كلام فرانشيسكو ، وأخذ يدور حولها مستخدما كل ذكائه ، وكل تجربته الضئيلة ، وكل غرور شبابه الغض ، وراح يهاجم فرانشيسكو الذى انهارت أعصابه بأسئلة كان يشعر بالسعادة وهو يرددها فى لهجة واثقة مطمئنة ٠٠

ـ انت ماقتلتوش ؟

ـ أنا ماليش دعوة ٠٠

ـ انت ماقتلتوش ، طيب مين قتله ؟

ـ أنا ماليش دعوة ، هوه كان مع دول ٠٠

ـ يعنى دول اللى قتلوه ٠

وراح يتبادل الأسئلة والاجوبة مع فرانشسكو المسكين كأنه لاعب ماهر فى الرماية ، وشعرت بالضيق من هذه التمثيلية السخيفة ٠ فقلت للضابط فى ضجر :

ـ احنا عاوزين نروح القسم أحسن ٠

وبدا عليه الامتعاض الشديد ، وقال وهو يسدد نحوى نظرة صفراء :

ـ انت مستعجل قوى ع القسم طيب احنا رايحين ٠

واذ بدأنا نستعد لمغادرة الحجرة ، رأينا من خـــلال الباب الزجاجى عربات جيب انجليزيه تتحرك نحو باب المستشفى ، ومدفع برن فى المقدمة ، ثم توقفت العربات وقد سـدت باب المستشفى وقد أحاط به عدد من الجنود ومدافعهم مصـوبة الى الأمام • ووقفنا مبهوتين ، وقد راعنا المنظر •

وعندما اقترب الضابط منا ، وقف غير بعيد عنا ، وقال فى لهجة صارمة للطبيب الذى كان يقف معنا حتى هذه اللحظة :

ـ هل جاءكم رجل مطعون بالسونكي فى جنبه الأيمن •

وهم الطبيب بالحديث ثم عدل عن ذلك واختلس نظرة نحوى ثم تبادل النظرات مع ضابط البوليـــس ، ثم قال للضـــابط البريطانى •

ـ لا ، لم يستقبل المستشفى جريحا بريطانيا على الاطلاق •

وقال الضابط فى نفس اللهجة الصارمة :

ـ ان الذى جئت أسأل عنه ليس انجليزيا ، انه سفاح مصرى قتل بعض الجنود الانجليز فى مركز تفتيـش بالمدينــة ليلة أمس ••

ورد الطبيب وقد اكتست ملامحه قناعا من الدهشه :

ـ لم يحضر حتى الآن •

وقال الضابط وكأنه يهدد الطبيب :

ـ بالتأكيد ؟

وهز الطبيب رأسه علامة الايجاب ، وعندئذ نظر الضابط نحونا يتفرس وجوهنا فى اهتمـام ، ثم قال وهو يســـتدير لينصرف :

ـ ما اسمك أيها الطبيب ؟•

ورد الطبيب فى هدوء ••

ـ مجدى ••

ـ اذن لابد أن تدرك يادكتور «مهدى» خطورة الامر اذا جاء هذا الرجل الى هنا ولم نحط علما بذلك • ان الامر أخطر مما

تتصور ..

فلم يرد الطبيب ، نظر الى الضابط وسكت ، ووقفنا جميعا صامتين حتى انصرف الضابط ، وقفلت سيارات الجيب عائدة في الطريق المضاد ، واذ رفعت بصرى نحو ضابط البوليس اكتشفت ان هيئته قد تبدلت ، غروره الشديد زايله ، ورغبته في تمثيل دور شرلوك هولمز فارقته الى الأبد . ونظر نحونا في خجل ، وقال وهو ينصرف :

ـ لا مؤاخذة ياجماعة ..

وعندما ألقيت بنفسى على المقعد الخلفى فى عربة فرانشسكو، أحسست كأنى أغوص فى جبل من التراب تحت أنقاض بيت مهدم ..

وانطلقت العربة الى الفندق ، بينما راح فرانشسكو يرغى مع فتحى بدير ، الذى كان هو الآخر قد أغلق عينيه فى سبات عميق ..

الفصل الحادى عشر

عندما دخلت حجرتى بالفندق أحسست بالراحة تملأ نفسى كأنى غريق وصل الشاطىء بعد حرب عنيفة مع الريح والموج ٠ وألقيت بنفسى على الفراش بملابسى فقد كنت متعبا الى درجة أننى لم أستطع أن أرفع يدى الى رقبتى لأنتزع الكرافتة التى كانت تلتف حول عنقى كحبل المشنقة ٠ وحتى الوضع غيرالمريح الذى ألقيت نفسى فيه بعد أن تمددت على الفراش لم أستطع تغييره ، اذ كنت عاجزا تماما حتى عن التقلب فى الفراش ، وخيل الى أن أعضائى كلها قد ماتت ماعدا عينى ، كانتا تحدقان فى سقف الحجرة الوردى ، بينما جهاز دقيق كماكينة سينما راح يعرض داخل مخى شريطا بأحداث الامس ٠

وابتسمت اذ خطر لى أن حمودة قد يموت على فراشه فى المستشفى ٠ ومع أن الموت لم يكن أبدا باعثا على الابتسام الا أن حمودة لو مات ، فسيكون ذلك خليقا بانتزاع الضحك من أقسى القلوب وأشدها صرامة ٠ ان ميتة على هذا النحو يلقاها حمودة لهى ميتة مضحكة حقا ٠ قائد كتيبة وحوش الجبال يموت فى خناقة مع عسكرى انجليزى وفى الشارع وبعد سهرة حمراء فى قصر حمزة بك ٠ ومن أجل أى شىء يستشهد حمودة ؟ من أجل كفك ياجورج ، دانت ابن ستين و٠٠ و٠٠ أشياء من هذا النوع ٠٠

ولو مات حمودة اليوم فى المستشفى فستخرج المدينة كلها غدا تشيع جنازته ، فقد مات قائد كتيبة وحوش الجبال فى معركة مع الانجليز ! وسأدبج أنا نفسى مقالا طويلا عن الشهيد الذى سقط دفاعا عن الحرية ! والا فماذا أستطيع أن أكتب عن الشهيد حمودة ؟!

واذ خيل الى أن موت حمودة قد أصبح أمرا لاريب فيه • فقد رحت أختار الزاوية التى أكتب منها قصة حمودة • وأتخيل المعركة التى دارت بينه وبين الجنود الانجليز فى الليل ، وعدد الطعنات التى مزقت لحمه قبل أن يركع على ركبتيه زاحفا على الارض حتى حجرتى بالفندق •

وعندما انتهيت من رسم الصورة كاملة شعرت بالاسف الشديد ، فاذا مات حمودة فأى شىء من مظاهر المعركة يبقى للمدينة ؟

لقد كان حمودة على تفاهته هو رمز حى لضمير الامة الذى أغفى • كان حمودة كزهرة من البلاستيك لها شكل الزهرة • وليس فيها رائحة الورد •

وتمنيت لو عاش حمودة ، فان المعركة لم تلد أبطالا بعد واذا كان البطل لم يوجد على المسرح ، فلا بأس من وجود حمودة ليقوم بتمثيل الدور ، ولو مجرد تمثيل ، فهذا خير من لاشىء ••

ورن جرس التليفون فانتشلنى من أفكارى ، وكان المتحدث هو فرانشسكو وانقبض قلبى فقد توقعت أن يبلغنى نبأ موت حمودة ، ولكن فرانشسكو قال برقة متناهية ••

ـ فيه واحدة مدموازيل عاوزاك •

وقلت دون تفكير :

ـ خليها تطلع ••

وأعدت سماعة التليفون مكانها ورحت أحدق مرة أخرى فى سقف الحجرة • وعقلى سارح فى هذه «المدموازيل» التى تريد

الفصل الحادى عشر

عندما دخلت حجرتى بالفندق أحسست بالراحة تملأ نفسى كأنى غريق وصل الشاطىء بعد حرب عنيفة مع الريح والموج ٠ والقيت بنفسى على الفراش بملابسى فقد كنت متعبا الى درجة أننى لم أستطع أن أرفع يدى الى رقبتى لأنتزع الكرافتة التى كانت تلتف حول عنقى كحبل المشنقة ٠ وحتى الوضع غيرالمريح الذى ألقيت نفسى فيه بعد أن تمددت على الفراش لم أستطع تغييره ، اذ كنت عاجزا تماما حتى عن التقلب فى الفراش ، وخيل الى أن أعضائى كلها قد ماتت ماعدا عينى ، كانتا تحدقان فى سقف الحجرة الوردى ، بينما جهاز دقيق كماكينة سينما راح يعرض داخل مخى شريطا بأحداث الامس ٠

وابتسمت اذ خطر لى أن حمودة قد يموت على فراشه فى المستشفى ٠ ومع أن الموت لم يكن أبدا باعثا على الابتسام الا أن حمودة لو مات ، فسيكون ذلك خليقا بانتزاع الضحك من أقسى القلوب وأشدها صرامة ٠ ان ميتة على هذا النحو يلقاها حمودة لهى ميتة مضحكة حقا ٠ قائد كتيبة وحوش الجبال يموت فى خناقة مع عسكرى انجليزى وفى الشارع وبعد سهرة حمراء فى قصر حمزة بك ٠ ومن أجل أى شىء يستشهد حمودة ؟ من أجل كفك ياجورج ، دانت ابن ستين و٠٠ و٠٠ إشياء من هذا النوع ٠٠

ولو مات حمودة اليوم فى المستشفى فستخرج المدينـة كلها غدا تشيع جنازته ، فقد مات قائد كتيبة وحوش الجبال فيمعركة مع الانجليز ! وسأدبج أنا نفسى مقالا طويلا عن الشـهيد الذى سقط دفاعا عن الحرية ! والا فماذا أستطيع أن أكتب عن الشهيد حمودة ؟!

واذ خيل الى أن موت حمودة قد أصبح أمرا لاريب فيه · فقد رحت أختار الزاوية التى أكتب منها قصة حمودة · وأتخيـل المعركة التى دارت بينه وبين الجنود الانجليز فى الليل ، وعـدد الطعنات التى مزقت لحمه قبل أن يركع على ركبتيه زاحفا عـلى الارض حتى حجرتى بالفندق ·

وعندما انتهيت من رسم الصورة كاملة شـعرت بالاسف الشديد ، فاذا مات حمودة فأى شىء من مظاهر المعـركة يبقى للمدينة ؟

لقد كان حمودة على تفاهته هو رمز حى لضمير الامـة الذى أغفى · كان حمودة كزهرة من البلاستيك لها شكل الزهرة · وليس فيها رائحة الورد ·

وتمنيت لو عاش حمودة ، فان المعركة لم تلد أبطالا بعـد ، واذا كان البطل لم يوجد على المسرح ، فلا بأس من وجود حمودة ليقـوم بتمثيـل الدور ، ولو مجرد تمثيـل ، فهذا خـير من لاشىء ··

ورن جرس التليفون فانتشلنى من أفكارى ، وكان المتحدث هو فرانشسكو وانقبض قلبى فقد توقعت أن يبلغنى نبأ موت حمودة ، ولكن فرانشسكو قال برقة متناهية ··

ـ فيه واحدة مدموازيل عاوزاك ·

وقلت دون تفكير :

ـ خليها تطلع ··

وأعدت سماعة التليفون مكانها ورحت أحدق مرة أخرى فى سقف الحجرة · وعقلى سارح فى هذه «المدموازيل» التى تريد

مقابلني . انني لا أعرف فتيات في المدينة ، وليس في حياتي فتاة حتى تجري ورائي الى فندق بالاس في الاسماعيلية .. وخيل الى أن « المدموازيل » التي يقصدها فرانشسكو ليست الا المرأة البدينة رتيبة التي خطفها فتحي من عش حمودة ، ولكن لماذا تأتي رتيبة الى هنا ؟ لعلها جاءت تسأل عن مصير حمودة ، أو لعل فتحي بدير لم يذهب اليها بعد ، فجاءت تستفسر عن مصيره ..

وفجأة ارتفع رنين التليفون ومن بعده صوت فرانشسكو يهمس في أدب جرسونات المطاعم :

ـ المدموازيل مش عاوز يطلع ، اتفضل انت أنزل ..

ونهضت رغم التعب الشديد وزحفت على السلالم حتى وصلت الى مكان فرانشسكو ، وأشار الى صالون جانبي ودخلته ، وكانت المدموازيل التي تريدني تجلس على مقعد ووجهها نحو الباب ، ويداها على ركبتيها كأنها تلميذة مؤدبة في حصة حساب ..

وعندما أبصرتني هبت واقفة ، كانت صغيرة لم تتعد السابعة عشرة ، يتدلى شعرها على كتفيها في ضفيرتين غليظتين ، وتربط شعرها بفيونكة حمراء ، وترتدي ثوبا بسيطا ، وحذاء بدون كعب علاه التراب ، وأدركت من النظرة الاولى انني أمام تلميذة مكلفة بعمل لم تمارس مثله من قبل . وأحنيت لها رأسي وقلت وأنا أتفرس في وجهها الصغير :

ـ أفندم ..

وقالت والكلمات تتعثر على شفتيها

ـ حضرتك الاستاذ حلمي الصحفي ؟.

ـ أيوه ..

ـ أخويا عاوزك ..

قلت مندهشا :

ـ أخوكي مين ؟

وأجابت وهي تحاول أن تخفي قلقها :

ـ لأ مش أخويا ، هوه قريبي ..

وازدادت دهشتي .. وقلت وأنا أقترب منها
ـ قريبك مين ؟
وازداد ارتباكها ، وانتزعت من كيس صغير في يدها منديلا راحت تمسح به العرق المتصبب من جبهتها ، وقالت وهي تعصر المنديل بأصابع يدها :
ـ هوه قالي كده بس ..
ـ هوه مين ؟
وضربت الفتاة الارض بقدمها الرقيقة وقالت في توسل .
ـ أرجوك تيجي معايا ..
ـ فين ؟
ـ هوه منتظرك في المكان بتاعنا .
وكنت لشدة تعبي قد أحسست بدوار عنيف ، والحجرة الصيقة راحت تدور بي كالمرجيحة ، فجلست على مقعد ، ومددت قدمي الى أقصى ماأستطيع ورحت أدعك بأصابعي جلد وجهي الذي كان لفرط تعبي كأنه جلد مملح ، ونظرت بعينين مجهدتين الى الفتاة الصغيرة الرقيقة التي كانت ماتزال واقفة مكانها تنظر نحوي في اضطراب ، وخيل الى انني أحلم ، والا . فأي شيء كل هذه الالغاز ، والبنت الصغيرة وأخوها الذي يريدني ، لأ قريبها، هذا المجهول الذي ينتظرني في « المكان » ويرجوني أن أذهب معها ..
ودعوتها باشارة الى الجلوس ،فجلست على الفوردون مناقشة، وأفهمتها انني لا أستطيع الذهاب معها قبل أن أعرف كل شيءعن هذا المجهول الذي ادعت انه أخوها ، ثم قريبها وانني حتى لو عرفت فانني لاأستطيع أن أذهب معها هذه اللحظة لانني متعب بعد ليلة عاصفة لم أذق فيها طعم النوم .
ونظرت الفتاة نحوي نظرة غاضبة .. وخلت أن الدموع على وشك أن تنهمر من عينيها الجميلتين الصغيرتين وقالت وشفتاها ترتعشان من فرط الاضطراب :

ـ الحقيقة هوه مش قريبى ، هوه قائد الكتيبة بتاعتنا ..
وبدت كلماتها الاخيرة تعبى كله ، ونظرت اليها بعينين محملقتين ، وقلت وكأنى لا أصدق نفسى :
ـ كتيبة ايه ؟
وردت الفتاة فى هدوء :
ـ هوه هيقولك كل حاجة ..
وقلت أستحثها على الكلام
ـ هوه مين ؟
ـ حسين ..
ـ بيشتغل ايه ؟
ـ ظابط فى الجيش ..
ـ وهوه فين دلوقت ..
ـ عند أبو سلطان ..
وسحبت البنت من يدها ، وغادرنا الفندق على عجل ، وركبنا أول سيارة الى أبو سلطان . وخلال الطريق الى أبو سلطان ظلت البنت صامتة لاتتكلم وراحت تنظر من نافذة العربة ساهمه تحدق فى الأفق البعيد ، وكانت سيارات الجيش الانجليزى تلتقى بنا على الطريق وهى تجرى بسرعة الطيارة فتنظر نحوها ثم تتابعها بعينيها حتى تختفى عنا فى الطريق المضاد . واذا راحت سيارتنا تتهادى على شاطئ بحيرة التمساح وقرية أبو سلطان أصبحت على مرمى البصر ، سألتها فى اهتمام :
ـ انت م الاسماعيلية ..؟
واكتفت بالنظر نحوى ، ثم هزت رأسها بالايجاب ، وقالت بعد فترة صمت طويلة :
ـ فى المدرسة الثانوية ..
ثم لاذت بالصمت مرة أخرى ، وراحت تحدق من خلال النافذة الى الفضاء البعيد وعندما دخلنا « أبو سلطان» أشارت للسائق بالوقوف عند بيت على الطريق وبعد أن نقدت السائق أجره ، عاد

من حيث، أتى ، بعد أن غمز بعينيه ، متمنيا لى يوما جميلا مع البنت الصغيرة • فقد أدرك من المناقشة التى دارت بينى وبينها أثناء الطريق ، اننا التقينا لأول مرة ، واننى غريب عن المدينة، أهبل ، لاأدرى الى أين تقودنى هذه البنت المفعوصة ، ولعل هذا هو السبب الذى دعاه إلى أن يطلب منى ضعف الاجر الذى اعتاد أن يتقاضاه فى مسافة مثل هذه بالضبط !

وعندما حاولت دخول البيت الذى توقفت العـــربة أمامه ، منعتنى الفتاة من الدخول ، ثم قادتنى عبر القرية الى بيت آخر يقف على ربوة ، مطلا على الصحراء الممتدة أمامه الى مالانهـاية ، متدرجا مع الربوة من القمة الى السفح حتى شاطىء البحـيرة ، يلتف حوله سور من الصخر يرتفع قليلا عن قامة رجل وتحيط به حديقة مترامية الاطراف من شجر البرتقال ، يتخللها بعض أشجار النخيل ، ولكنها كانت قصيرة كأشجار البرتقال ، رشيقة بالرغم من ذلك ، وكان السور الصخرى يفصـــل بين البيت والبحيرة ، وثمة باب واسع فى منتصف السور مفتوح عـــلى مصراعيه ، والبحيرة تبدو من خلاله ، رائعة كالعهد بها دائما ، هادئة كأنها ميدان فسيح مرصوف بأسفلت أزرق اللون ،وكانت الفيللا التى تقوم وسط الحديقة صغيرة تهدم بعـض جوانبها ، تحطم زجاج نوافذها ، والبقية الباقية منه فقدت خصائص الزجاج واستحال لونها الى أخضر قاتم ، وقد نبتت عليه الطحالب ،ونمت حوله أعشاب غريبة كريهة الرائحة وكان كل شىء يبدو مهجورا ولا أثر لأحد ، واستمهلتنى الفتاة لحظة ثم صعدت الى الفيللا ، وعادت بعد قليل يتقدمها شاب بالبنطلون والقميص يمضغ بين فكيه بقايا طعام •

وقال وهو يمد يده نحوى وبصوت غير واضح :

ــ أهلا ، أنا حسين ••

كان يبدو فى الخامسة والثلاثين ، زحف الشيب على فوديه ، وزحف الصلع على مقدمة رأسه ، وفى وجهه العـــريض ندبة

غائرة من أثر جرح قديم ، وقال وهـو يدعونى الى تناول طعام الغداء :

ـ تأكل لقمة معانا ..

وعندما اعتذرت له لعدم استطاعتى لاجهادى الشديد ، قال فى بساطة ..

ـ طيب تحب تقعد هنا والا نطلع فوق ؟

وعندما اقترحت عليه أن نجلس مكاننا التفت نحو الفتاة التى كانت تقف على مقربة منا ، وقال وهو يبتسم فى حنان

ـ هاتلنا كراسى هنا يافوزية .

وتركتنا فوزية وغابت داخل الفيللا لحظات ، ثم عادت ومعها مقعدان ، ثم همست فى أذن حسين بكلام لم أتبينه ، وهز حسين رأسه موافقا ، وعندئذ انصرفت فوزية خارجة من الفيللا سالكة نفس الطريق الذى جئنا منه ..

وكان حسين الذى راح يهبط الربوة الى نهايتها ساحبا مقعده، تاركا لى مهمة سحب المقعد الآخر ، قد اختار مكانا لجلستنا تحت أشجار البرتقال المحملة بالثمار ، وعندما ألقيت بنفسى على المقعد أدركت أننا لانجلس فى هذه البقعة بالذات من باب المصادفة ، فقد كان المكان الذى اختاره حسين يسمح لنا برؤية الطريق ، والبحيرة ، والفيللا ، وكل شبر فى الحديقة ، واذ أصبحت أنا وحسين وجها لوجه لايفصل بيننا الا شبر من الارض وبعـض أغصان شجر البرتقال التى تدلت أكثر من اللازم ، راح حسين يحكى وأنا ساهم وبصرى مشدود نحو الارض ، ولم يكن حسين فى حاجة الى مقدمات ، فقد تعارفنا منذ اللحظة الاولى ولم يكن يبدو عليه أدنى أثر للاضطراب وكانت نبرات صوته عميقـة وهادئة ، وكان من هؤلاء الرجال الموهوبين الذين تحس نحوهم بألفة شديدة منذ أول لقاء ، وتناول حسين فى حديثه كل شىء ، عدد الهجمات التى شنها على المعسكرات ، عدد القتلى الانجليز الذين ذبحهم رجاله .. انتصاره الباهر فى معركة أول أمس .

مشاريعه فى المستقبل ، وعندما انتهى من سرد كـل الحقائق ، سألنى وابتسامة عذبة ترتسم على محياه ..

ـ تعرف كام راجل معايا على كده ؟

ـ كام ؟

ـ خمسين ..

ـ كلهم رجاله ..

ـ لأ . بس الستات مابيحاربوش معانا لسه ماهماش قـد الحكاية دى ..

ثم ضحك ضحكة عريضة قبل أن يستأنف حديثه قائلا :

ـبكره يحاربو ، دول أجدع م الرجالة ..

ثم روى باختصار مهمة النساء فى الكتيبة ، والاعمال التى قمن بها ، ثم لوى عنقه وأشار نحـو الخارج ، وقال وعينـاه تلمعان :

ـ فوزية دى بقالها يومين مادقتش الاكل ..

ثم عاد الى هدوئه ، سارحا ببصره الى أسفل الربوة ، خـلال الباب المفتوح على البحيرة ، يرقب ببصره الثاقب بعض المراكب الصغيرة تجوب شواطىء البحيرة على مهل . وعندما انبعثت من داخل البحيرة ضجة مفاجئة ، هب واقفا ، ومد رأسـه الى الامام وقد أفسح له مكانا بين الاغصان المتشابكة ، وأثارنى اهتمامه، فلويت عنقى نحو البحيرة ، وأدركت أن الضجة التى انبعثت منذ لحظة مصدرها لنش يتحرك بسرعة على صفحة الماء فى طريقه الى قلب البحيرة . ولم يكن على ظهره أحد من الرجال ، وليس على جوانبه علامة تميزه ، ولم يعد حسين الى مقعده الا بعد أن اختفى اللنش عن الانظار . وعندئذ قلت لحسين أسأله فى اهتمام :

ـ فيه حاجة ؟

وهز رأسه بالنفى ، وقال فى بساطة :

ـ دا لنش غريب بقاله كام يوم بيلف حوالينا ..

ـ تفتكر فيه حاجة ؟

ـ دا لنش انجليزى ومسلح ..
وقلت مندهشا :
ـ مسلح ازاى ؟ دا مافيش عليه حاجة ..
وضحك حسين ضحكة خفيفة وقال :
ـ الحاجات دى ماتبانش ، أنا كنت فى الجيش وعندى خبرة فى المسائل دى !
وأثارت انتباهى عبارة « كنت فى الجيش وعندى خبرة فى المسائل دى .. الآن ، وأردت أن أحسم الامر فسألته :
ـ انت مش فى الجيش دلوقت ..
ـ لأ ، أنا فى الاستيداع ، أنا اللى طلبت عشان أحارب هنا..
ثم تعرض لموقف الجيش فى المعركة ، ووقوفه على الحياد بين الشعب والانجليز ، وقال حسين فى حـــدة لم تكن أبدا طابع حديثـه :
ـ الناس بتشتم الجيش فى كل حتـــة دلوقت ، والنـــاس معذورين ، بس كان لازم يفهموا الحقيقة الاول ، الجيـــش اللى واقف يتفرج دا مش الجيش الحقيـــقى ، دا جيش الملك واللواءات الكبار ، انما الجيش الحقيقى بيغلى ..
ونظرت نحو حسين وقد بدا على وجهى عدم الاقتناع ، وقلت وفى لهجتى نبرة ساخرة :
ـ وفين الغليان ده ؟ الناس مش شايفين حاجة .
وقال حسين وهو يعض على شفتيه :
ـ الجيش الحقيقى مافيش فى ايده حاجة ..
ولاذ بالصمت لحظات قبل أن يقول ..
ـ .. انما ..
ثم كف عن الكلام فجأة .. ورفع يده فى الهـــواء وخبطنى بها على فخذى ، وقال وهو ينهض واقفا :
ـ معلهش ، بكره تتعدل ..
وسار حسين أمامى هابطا الربوة نحو البحيرة ، ممهدالنفسه

طريقا بين غابة البرتقال والنخيل ، مصدرا أوامره لى بين الحين والحين بأن أتجنب حفرة فى الطريق ، أو بئر ماء أخفته الاعشاب البرية المتوحشة عن العيون ، واجتاز حسين الباب المفتوح على البحيرة واتجه نحو الشاطىء ٠ ووقفت أتطلع اليه وهو ينظر نحو سور الحديقة الذى يقف بعيدا عن الماء بمتر واحد ، ولم يكن ثمة حراسة ولا حراس ، وعندما أبديت له هذه الملاحظة ، ضحك بصفاء وقال فى تهكم :

ـ احنا مش منتظرين هجوم بحرى علينا ، انت فاهم احنا ايه، قاعدة عسكرية ؟ داحنا ناس على باب الله ٠

وتذكرت عش حمودة على الشاطىء الآخر من البحيرة ، ورجال حرسه الفولاذى ، ومدافعه المنصوبة حول العش ومصوبة نحو حلقة السمك لصد هجوم الانجليز !؟

وقال حسين وهو يعبث بابهام يده اليسرى فى صدره النافش الغزير :

ـ ان قوتنا فى اختفائنا ، نضرب ونجرى ولو الانجليز عرفوا مكان البيت ده ، نسيبه على طول ٠٠ احنا مش زى حمودة ٠

ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، وقال وشبح الابتسامة لايزال مرتسما على شفتيه :

ـ حالته شكلها ايه ؟

قلت :

ـ سيئة ٠٠

وقال حسين فى صدق :

ـ ربنا يشفيه ٠٠

وحتى هذه اللحظة كان ثمة وهم يسيطر على عقلى أن حسين استدعانى الى عشه ليستعرض أمامى كتيبته ويستعرض قوته، ثم يطلب منى أن أكتب عنها فى الجريدة أقدمها الى القراء ٠وأكد هذا الوهم عندى غمزته التى وردت فى حديثه « احنا مش زى حمودة » فهو منافس على أية حال ، وهى منافسة لم تكن شريفة

أبدا ، فحمودة لم يطلق رصاصة ولم يدخل معركة • ومع ذلك حصل على الشهرة كلها ، وفاز بالمجد كله ، وكل الاعمال التى تمت كانت باسم حمودة ولحسابه الخاص ••

وقلت أسأله لأحصل على نتيجة تتفق مع الخـاطر الذى فى نفسى •

ـ اسم الكتيبة بتاعتكو ايه ؟

وضحك ضحكة عالية اهتزلها كيانه كله ، وقال بعد أنهدأت عاصفة الضحك التى اجتاحته فترة طويلة :

ـ اسمها الأسد المرعب ••

ثم استأنف حديثه ساخرا :

ـ الكتايب مالهاش أسماء ياأستاذ •• هيهايه ؟ فرق كوره ! احنا مالناش اسم ••

ثم سكت حسين وقدتبدلت أساريره كلها ، وسحنته انقلبت ، ولون وجهه استحال الى سواد ، وعيناه ازدادتا لمعانا وازدادتا بريقا • وازدادتا بروزا حتى خلت أنهما من زجاج ، وقال والأسى يعصر قلبه :

ـ اذا كنت عاوز اسم لازم تسميها كتيبة ابراهيم ••

وقبل أن أسأله عمن يكون ابراهيم هذا تطوع هو بالاجابة:

ـ دا الوحيد من رجالتنا اللى استشهد فى معركة أول امبارح •

ثم هز رأسه آسفا وقال :

ـ سميها كتيبة ابراهيم ، الله يرحمه •

قلت وأنا أحاول أن أصل الى النتيجة التى أتوق الى الوصول اليهـا :

ـ أنا كنت عايزك تقوللى شوية معلومات عشان أكتبها ••

ونظر نحوى فى حدة ، وقال فى حزم :

ـ لأ أرجوك ، أنا طلبتك النهارده عشان كـده ، احنـا مش عاوزينك تجيب سيرتنا ، واحنا يهمنا تكتب عن حمودة ،وكتيبته دا أحسن •• مفهوم ؟

وقلت على الفور :
ـ مش فاهم حاجة خالص
ـ لازم تكتب عن حمودة ..
ـ افرض حمودة مات ..
ـ يبقى لازم تشوف حد تانى تكتب عنـــه ، ايه رأيك فى فتحى بدير ؟
ـ جدع غلبان ..
ـ أنا مايهمنيش غلبه ، ايه رأيك فيه ، جاسوس ؟
ـ لا ، دا جدع طيب وشريف ، بس مايقدرش يعمل عمـــل كبير ..
ـ مايقدرش يمثل دور قائد كتيبة بعد حمودة ؟
ـ ماقدرش أعرف ..
ـ لو قدر ، يبقى ده فى حد ذاته عمل كبير للغاية
ثم قال وهو يستدير عائدا نحو الفيللا :
ـ تعالى أعرفك بالناس اللى معانا .
وعندما اقترب من المبنى أطلق صفيرا صغيرا رقيعا من فمه ، وعلى الفور بدأ الناس يتوافدون علينا ، وكانوا جميعا بالبنطلون ، والقميص رغم البرد الشديد ، بعضهم شبان فى مقتبل الحياة ، وبعضهم تخطى مرحلة الشباب الى منتصف العمر ، وصافحونى ببساطة ، ووقفوا حولنا فى هدوء لا تعظيم سلام ، ولا حـركات عسكرية ولو لم أكن أعرف حقيقة أمرهم ، لظننتهم مجموعة من الطلبة فى رحلة مدرسية . ثم اختار حسين مكانا على الحشيش ، وقال وهو يتحسسها جيدا بيده .
ـ نقعد هنا ..
وجلسنا فى حلقة ، وجال حسين ببصره فى الحاضرين .. ثم قال متسائلا :
ـ أمال البنات فين ؟
ورد أحدهم

ـ بيطبخوا ٠٠
وقال حسين وهو يتشمم فى الجو أى أثر لرائحة طعام ٠
ـ كده ، عال ، بيطبخوا ايه ؟
ـ بطاطس ٠٠
وقال حسين وهو ينظر نحوى ٠٠
ـ حظك بمب ، تاكل معانا بقى ٠
وعندما حاولت الكلام معتذرا رفع يده الى أعلى يحذرنى من الكلام ، وقال وهو يعتدل فى جلسته :
ـ دا أمر ٠٠
وضحك واحد من الجالسين ، وقال لحسين :
ـ انت مش هتبطل أوامر بقى ٠٠
وقال حسين وهو يضحك :
ـ لما الحرب تبطل ٠٠
وعلق واحد آخر صغير السن ضاحك الوجه دائما :
ـ ياخرابى ٠ يبقى انت مش هتبطل الاوامر أبدا ٠٠
وضحك الجميع ، ثم تمددوا على العشب ، وجلست أحكى لهم بالتفاصيل كل الذى دار بينى وبين حمودة ليلة الامس ، منذ أن خرجنا من قصر حمزة بك الى هزار حمودة البايخ مع عساكر الانجليز ، الى افتراقنا عند باب الفندق ، ثم عودته آخر الليل مثخنا بالجراح ، مغمى عليه لكثرة مانزف من الدماء ٠ ورويت لهم قصتنا مع الطبيب البيطرى العجوز ، وكيف أكله الرعب عندما طرقت عليه الباب امرأة شقراء كالحليب ، لتجره الى حجرة يكتشف أن بها جثة تنزف دما ، وحكايته مع ابنه الذى هرب من القاهرة ليحارب الانجليز فى القناة ، وكنت أضحك خلال الحديث ، فتجاوبنى الضحكات من الموجودين ، ولكن عندما وصلت الى هذه النقطة من الحديث لم يستجب أحد لضحكاتى ، وعندما نظرت نحو حسين ، اكتشفت انه يطيل النظر نحو شاب جلس فى الحلقة ورأسه يتدلى على صدره وأصابع يده تنكش فى

طين الارض • وأدركت أنه المهندس ابن الطبيب ، وعندما غمزت لحسين بعينى عما يدور فى خاطرى ، هز رأسه بالايجاب•وعندئذ لزمت الصمت لحظة ، ثم انحرفت بالحديث الى موضـــوع آخر بعيد ••

ولم تطل جلستنا بعد ذلك ، أمر حســـين رجاله بالتأهب للتدريب ، فتفرقوا فى لحظة ، وبقيت أناوحسين صامتين لحظات حتى جاءت فوزية مرة أخرى تحمل صينية وكوب شاى واحد قدمته لى ، واستأذن حسين فى الانصراف ليشرف على التدريب، وقال وهو يجرى نحو المكان الذى تجمع فيه الرجال :

– خللى بالك منه يافوزية ، أحسن يكتب عنك حاجة •

وردت فوزية فى جرأة لم ألمسها خلال الطريق :

– لا ماتخافش ، مش هيقدر يكتب حاجة ••

نظرت نحوى وقالت :

– أنا قريت لك كل حاجة كتبتها عن المعركة ••

ثم ضحكت ضحكة جميلة ، أجمل ضحكة سمعتها فى حياتى ، وقالت :

– مش عيب تكتب حاجات بكش ••

قلت محتجا وبطريقة حاولت أن أبدو بها أكبر سنا مما أنا:

– بكش ازاى ؟

– كل اللى كتبته عن حمودة بكش ، دنا أعرف حمودة وأنا قد كده ••

كانت تتكلم بسذاجة وبصراحة شديدة ولكنها كانت دائمــا جميلة ، وجمالها من النوع الذى لايمكن أن يوصف ، فهو ليس فى تقاطيعها ، ولا فى حجمها ، وانت لاتستطيع أن تحدد أمكنة الجمال فيها ، ولكنه موجود ، أين ؟ لاتستطيع أن تحدد مكانه ، مهما حدقت فيها ••

ويبدو أن البنات كلهن حلوين ، ليست هناك بنت قبيحة ، وبنت جميلة ، يجوز هناك سيدة جميلة ، وسيدة متوســطة ،

وسيدة دميمة ، ولكن الحال يختلف مع البنات كل بنات السادسة عشرة والسابعة عشرة وحتى العشرين ، كلهن أجمل من السيدة زيتا هيوارث ، وأطعم من السيدة جريتا جاربو ، ورحت أدقق النظر فى وجه الحلوة فوزية ، وكانت أصوات الرجال تملأ الجو حولنا ، والليل بدأ يزحف على الكون ، والسحاب الاسود الثقيل راح يسرع بطرد النهار اذ حجب بقسوة الشعاع الخافت لضوء الشمس ‥ وهاجت مياه البحيرة تحت تأثير الرياح الشـديدة التى هبت فجأة تندفع معها أطنان من رمال سـيناء وراحت أشـجار البرتقال الرقيقة تهتز بشـدة وتتمايل ، فتلطم جذوع النخيل الثابتة كأنها أعمدة من حديد مدكوك فى باطـن الارض ·

ولا أدرى لماذا أحسست بالتعب فجأة ‥ كل حوادث الامس وأول الامس واليوم تضافرت كلها ، واتحدت كلها وركبت فوق ظهرى وكبست على نفسى · وأطبقت على عنقى وحنقتنى ، وخيل الى أن الرجال الذين يتدربون يعملون بشدة ، وأن طلقات مدافع ضخمة تدك قلعة بالقرب منى ، ووجه فوزية الذى كنت أحدق فيه · لم يعد متسقا ، ملامحها كبرت واختلفت ، وشعرها الاسود الناعم المعقود فى ضفيرتين على كتفها يشبه دم حمودة الذى سال على أرض الحجرة ليلة الامس وأحسست بنار تأكل جلد يدى ، ولم أدرك أن كوب الشاى قد سقط من بين أصابعى ، وأحسست أن جدارا يسقط فوق رأسى ، وانى أسقط على الارض ، ولم أعد أدرك شيئا من حولى ، فقد أغمى على ·

الفصل الثانى عشر

عندما افقت من غيبوبتى الطويلة فى الصباح أحسست بصداع حاد كأن حزاما من الصلب يلتف حول رأسى ويكاد يفتت عظامى . ولم أكن فى حجرتى بالفندق وانما فى حجرة أخرى عارية من الأثاث ، ليس فيها الا سرير صغير يكاد لفرط ضآلته لا يتسع لجسمى النحيل ، والجدران كانت كالحة فقدت لونها الاصلى لكثرة ماعلاها من تراب ، وثمة نغبشة على الحيطان عندما دققت النظر فيها أدهشتنى انها على شكل حيوانات وطيور .. وأمامى مباشرة كانت النافذة المفتوحة تسمح لى برؤية البحيرة الممتدة فى سكون وجلال الى مالانهاية ، وعشرات من القوارب الصغيرة تتهادى على صفحة الماء فى دلال ..

وعندما رأيت وجه فوزية الهادىء الجميل تذكرت كل شىء . منذ أن جئت معها الى هذا المكان بالامس ، حتى سقطت على الارض فاقدا الوعى وكانت فوزية تجلس على الارض تنظر نحوى فى هدوء وأصابعها تعمل بانتظام وبلا توقف ، وكرة ضخمة من

الحيط تنام فى حجرها ، بينما مشروع « بلوفر » يتدلى من نهاية الحيط ·· وعندما التقت عينانا رسمت على شفتيها ابتسامة جميلة ·· وهتفت تسألنى فى همس مسموع :

ـ كويس ؟

وهززت رأسى فى اعياء ، وتثاءبت فى صوت مسموع ، وأخذت أنظر اليها فى اعجاب شديد · وعندما هبت خارجة من الحجرة لتسقينى ، رحت أتتبعها وهى تخطر فى قميص نومها الاصفر ·· وقد عقدت شعرها فى ضفيرة واحدة طويلة تدلت من قفاها وراحت تتأرجح على عنقها العارى الجميل · وقفزت جالسا فى فراشى انتظر عودة فوزية · هذه البنت الحلوة الصغيرة كقطعة السكر لماذا كانت تنظر نحوى هكذا فى شغف · انها تلميذة صغيرة ولعلها لم تصادف رجلا فى حياتها القصيرة ، ولابد أنها تشعر نحوى الآن باحساس غريب جعلها تنظر نحوى ساهمة ، ولابد أن قلبها الصغير كان يخفق وقتئذ بالحب !!

ولكن متى وأين وكيف نشأ هذا الحب فى قلب فوزية ؟ اننى لم أرها الا بالامس ··

ولم أنفرد بها الا للحظات ، ولم يكن بيننا الا حديث الحرب والضرب · فهل هذه المقدمات تكفى لتقع فوزية فى الحب ؟

ولكن من قال أن الحب يحتاج الى مقدمات ، انه ليس نظرية فى الجبر تحتاج الى مقدمات لكى تنتهى الى نتيجة ، انه احساس يشب فجأة بين الجوانح ويضطرم فجأة فى الفؤاد ، لايعترف بمنطق ولا يحتاج الى وقت ··

وهذه البنت الصغيرة التى تحيا هنا فى مغامرة مثيرة لابد وأنها رسمت فى خيالها فصول هذه المغامرة على النحو الذى تشتهيه ، ولابد أنها اشتهت مع المغامرة الحربية مغامرة عاطفية ،

وليس هنا من ترشحه الظروف لان يلعب هذا الدور مثلى أنا · فأنا عابر سبيل التقت به فى ظروف غامضة · كأننا نلعب دورا فى رواية مرسومة ، ولعل ذلك هو الذى حفزها الى التعلق بى ، والا فلماذا اهتمت بتمريضى أثناء غيبوبتى ؟ ولماذا انفقت الليل ساهرة الى جوار فراشى ؟ ولماذا كانت تنظر نحوى فى شغف عندما أفقت من نومى هذا الصباح ؟

واذن أقنعت نفسى بأن فوزية قد وقعت فعلا فى حبى ، فقد قفزت من فراشى لالقى نظرة فى زجاج النافذة لأطمئن على شكلى ، وهالنى أن شعرى كان منكوشا على نحو فظيع ، ووجهى شديد الشحوب ورحت أبحث عن مشط أرتب به شعرى دون جدوى ، ولم يكن هناك مفر من استعمال أصابعى الخمسة لانجاز هذه المهمة ··

وعندما أصبح كل شىء على ما يرام بالقدر المستطاع ، عدت الى الفراش وجلست أنتظر فوزية · ولم تمض لحظة حتى ارتفع وقع أقدامها وهى تخطو نحو الحجرة ، وعندئذ أرسلت بصرى عبر النافذة الى البحيرة لابدو فى هيئة المستغرق فى تفكير عميق ، وقد خطر فى ذهنى أن منظرا من هذا النوع قد يثير انتباهها ، وقد يدفعها الى سؤالى عن سبب شرودى ، وعندئذ أستطيع انتهاز الفرصة السانحة لغزو قلبها الصغير ·

وعندمادخلت الحجرة كان ظهرى لها ووجهى نحو البحيرة · ومضت لحظات دون أن تتكلم ، فتأكد لى أنها تتأمل منظرى الذى تعمدت أن أبدو فيه ، وخطر لى أن أضيف الى الدور بعض الرتوش لكىيبرز على الوجه الاكمل فتنهدت بعمق ورحت أزفر بشدة · وعندئذ ارتفع من خلفى صوتغليظ يسألنى فى سخرية مرة :

ـ ايه ، مالك ؟

وسقط قلبى فى ركبتى ، فقد كان صوت حسين ، وعندما استدرت نحوه ، مد يده بكوب الماء الذى كان يحمله ، وقال وهو يقفز بجوارى على الفراش :

ـ دا انت كنت زى الميت ، انت ايه ؟ مانمتش بقالك سنة ؟
وقذفت بكوب الماء فى حلقى باضطراب ، وعندما سألنى عن سر تنهدى خيل الى أنه يعرف سرى ، ولم أجبه على سؤاله ... اكتفيت فقط بشكره على رعايته لى . واستأذنته فى الذهاب الى الاسماعيلية ، وعندما سألنى عن سر اسراعى فى العودة ، أجبته بأن مشاكل فى الدرجة الاولى من الاهمية تنتظـــر عودتى فى المدينة .. وعندما انتهيت من حديثى ضحك بصوت مدو وقال وهو يهزنى من كتفى :

ـ ايه ، الحبايب وحشوك قوى ؟

وتجاهلت اشارته الى « الحبايب » ، وقلت فى لهجة جادة :

ـ عاوز أشوف حمودة عمل ايه ..

وقال حسين وهو يقفز من الفراش الى الارض ..

ـ العملية نجحت ، بس هوه لسه حالته تعبانة ..

ـ عرفت منين ؟ ..

وقال وهو يضع كوب الماء على حافة النافذة :

ـ هيه حالة حمودة سر حربى ؟ البلد كلها عندها خبر ..

وسادت بيننا فترة صمت كدت خلالها أسأل حسين عنفوزية .. ولكن الكلمات ماتت على شفتى .. ترى أين ذهبت ؟ .. ولماذا جاء حسين بكوب المـاء ولم تأت هى ؟ واذا كانت تحبنى حقا فلماذا لم تنتهز الفرصة وتنفرد بى ؟ وهل ما تخيلته كان صحيحا أم مجرد أوهام وخيالات ليس لها ظل فى الحقيقة ... وهل أنا خايف الى هذا الحد ، أم ساذج ؟ أم محروم ؟ وهل أنا فى معركة أم فى مغامرة عاطفية ؟

ونظر حسين نحوى وقد راعه صمتى واطراقى نحو الارض وقال يسألنى :

ـ انت مالك مش على بعضك ؟

ـ أبدا ، بس دايخ شوية ..

ـ دانت نايم نوم ، قوم اغسل وشك وانت تفوق . ونهضت فعلا من فراشى ، واغتسلت ، ثم ارتديت ملابسى ونزلت مـــع

حسين الى الحديقة • وكان الجميع قد سبقونا الى هناك وافترشوا الارض فى حلقة وطعام الافطار ينتظر أمامهم حتى نحضر فنبدأ جميعا فى الاكل • وكانت فوزية تجلس فى مواجهتى أثنـــاء الطعام ، ولكنى تحاشيت النظر اليها أو الحديث معها • وعندما كانت ضحكات الجميع تجلجل فى الجو ، كنت أكتفى أنا بالنظر نحو الارض •• ولكن عندما راحت تتبادل الحديث والنكات مع شاب صغير كان يجلس الى جوارها رمقتها بنظرية نارية قاسية، جعلتها تقطع الحديث فجأة ، ثم راحت تختلس النظر نحـــوى بين الحين والحين •• وقد أدهشها مسلكى الغريب نحوها ••

وعندما انتهينا من الطعـــام نهض الجميع الى ركن بعيد فى الحديقة يستمعون الى أحدهم يشرح لهم طريقة استخدام قنبلـة يدوية ، بينما بقيت أنا وحسين معا نرتشف أكواب الشـــاى وعيوننا متعلقة بالافق المنطبق على ماء البحيرة • وقال حســـين وقد انتهى من شرب الشاى :

ـ حتعمل ايه مع فتحى ؟

قلت وأنا سارح فى فوزية ••

ـ فتحى مين ؟

ـ فتحى بدير ••

ـ ماله ••

ـ انت نسيت اللى قلناه امبارح ، عاوزين واحد يحل محـــل حمودة ••

قلت وقد ازددت انتباها لحسين ••

ـ ليه دا كله ؟

ـ لابد من واحد يلعب الدور ده ، من مصـــلحتنا الانجليز مايعرفوش فين القوة الحقيقية ••

ـ طيب وفتحى هيعمل ايه ؟

ـ ولا حاجة ، يبقى قائد كتيبة وحوش الجبال ••

ـ طيب وهيه الكتيبة هتعمل ايه ؟
ـ البركة فيك انت ..
ـ مش فاهم ..
ـ احنا نعمل ، والجرايد تنشر صورة فتحى وبطولة كتيبته .
وحدجت حسين بنظرة طويلة ، وقلت فى غيظ ..
ـ انت بتهزر ..
ورد فى انفعال :
ـ لأ ، أنا بقولك اللى لازم يتعمل ..
ـ طيب والسلاح والفلوس ، فتحى يجيب منين ..
وقال حسين على الفور .
ـ مدام ريتا وحمزة بك ، يتصرف زى حمودة ..
وبهت عندما ورد اسم مدام ريتا وحمزة بك فى الحديث ؟ هل يعرف العلاقة بينهما وبين حمودة ؟ هل يعرف حسين مدام ريتا وحمزة بك ؟ هل يعرف العلاقة بينى وبين مدام ريتا ؟ وأحسست بكراهية نحو حسين ، انه يعرف أكثر مما ينبغى ، بينما لا أعلم عنه شيئا ، وهو يتكلم بهدوء وببساطة ، وبلاانفعال بينما هو يملى شروطه ويلقى أوامره . وأحسست بالضيق لان حسين يعاملنى كما لو كنت جنديا فى كتيبته ..
فقلت فى ضجر شديد :
ـ وأنا هاعمل ايه لفتحى ..
وقال حسين فى بساطته المعهودة :
ـ تقنعه ..
ـ واذا ماقتنعش ؟ ..
ـ تحاول
ولزمت الصمت لحظة قبل أن أقول :
ـ أنا هاحاول ، بس أنا ماعنديش أمل ..
ورد حسين فى نفس اللهجة التى تثير غيظى :
ـ لازم فتحى ياخد مكان حمودة ..
وقبل أن ينتهى من حديثه كان قد نهض من مكانه واتجه

الى حيث كان الجميع يجلسون على الارض يستمعون الى الرجل الذى انهمك فى الشرح واذ خلوت لنفسى رحت أفكر فى حسين ، الغامض كالكون ، العميق كالبحر ، الهادىء · كشجرة جميز عجوزة فى يوم صيف قائظ ··

وشعرت بالاختناق وأنا جالس أحدق فى البحيرة ، وتمنيت لو استطعت الهروب من هذا المكان الكئيب لادفن نفسى فى أحضان مدام ريتا ، وأفقد وعيى على مائدة حمزة بك ··

وتذكرت تلك الايام الخالية عندما كنت أدخل عش حمودة فى الليالى المقمرة فيهب الجميع وقوفا فى احترام شديد ، ثم تنهال الأوامر من حمودة ، ويتحرك الجميع يمينا وشمالا ، ثم نقضى الليل فى ثرثرة لذيذة قبل أن أغادر العش فى طريقى الى الفندق ، وحمودة يزحف الى جوارى لايستطيع أن يرى أبعد من مواطىء قدميه لشدة الانسجام ، وحرسه الحديدى شاهر مدافعه كأننا موكب الخليفة يتفقد أمور الرعية فى الليل ولكن لشد ماتغيرت الامورفى المنطقة ، حمودة ينام فاقد الوعى فى المستشفى الاميرى ، وفتحى لايدرى أين هو الآن ، لعله سارح مع رتيبة فى مكان ما ، وحمزة بك اختفى هو الآخر ، ومدام ريتا لعلها تبحث عنى الآن ، وأنا هنا ضائع فى قصر مهجور على شاطىء البحيرة فى قرية أبو سلطان !

وانتبهت على صوت يرتفع من خلفى :

ـ قاعد لوحدك ليه ؟

وعندما نظرت خلفى رأيت فوزية تبتسم ، ووجهها شديد الجمال ، شديد الصفاء ، وقالت وهى تجلس الى جوارى :

ـ بتفكر فى ايه ؟

ولم أرد عليها ، اكتفيت بالنظر نحوها فترة طويلة ،وشعرت بالخجل من نظراتى فحولت بصرها عنى ، وقالت وهى تنظر نحو الأرض :

ـ انت راجع الاسماعيلية النهارده ؟

وقلت وأنا أنظر اليها كما يفعل البطل فى السينما مع البطلة :

ـ الحكاية دى تهمك قوى ..

ويبدو انها لم تفهم ماأعنيه ، فنظرت نحوى فى سذاجة ارتسمت بوضوح على معالم وجهها الصغير ، وانكسفت من نفسى فقلت محاولا تصحيح الموقف ..

ـ قصدى عاوزه حاجة م الاسماعيلية أعملهالك ..

وهزت رأسها الصغير البديع التكوين وقالت :

ـ متشكرة خالص ..

وجلست صامتة تنكش فى الارض بغصن مكسور من أغصان شجر البرتقال فبدت كأنها طفلة صغيرة تلهو على رمال الشاطىء. واحترت ماذا أقول لها . واهتديت أخيرا الى شىء يصلح للحديث بينى وبينها . قلت أسألها فجأة :

ـ ايه رأيك فى حسين ؟

وكان السؤال مفاجأة شديدة لها ، وراحت تنظر نحوى فى دهشة ، ثم قالت فى سذاجة :

ـ راجل كويس خالص .

قلت وأنا أضحك :

ـ مانى عارف انه راجل كويس ، أنا بأسألك رأيك فيه ايه ؟

وقالت تستفسرنى عما أقصد :

ـ قصدك ايه ؟

ـ يعنى متواضع ، متكبر ، بخيل ، كريم ، شجاع ، جبان ، ايه رأيك فيه يعنى ..

وصمتت فوزية قليلا ثم قالت فى صوت حلو :

ـ راجل كويس خالص ..

وانفلتت منى ضحكة عريضة ، وتمنيت لو احتضنت فوزية بين ذراعى وقبلتها قبلة طويلة .

وعندما رفعت بصرى نحوها اكتشفت انها تنظر نحـوى فى غيظ شديد ، وقالت وهى تتفرسنى :

ـ بتضحك ليه ؟

قلت فى هدوء :

ـ أبدا ، أصلك ماجاوبتيش على سؤالى

وقالت ونظراتها تلفح وجهى كأنها أنفاس حارة

ـ عاوزنى أقولك ايه ؟

ـ ولا حاجة ..

ثم رحت أنظر مرة أخرى نحو البحيرة والمراكب التى تتهادى على صفحتها ، والشمس وقد أخذت تزحف من وراء الأفق سالكة طريقها الأبدى فى جلال مهيب ، وشعرت بالاضطراب اذ خيـل الى أن فوزية غضبت لأسئلتى وضحكاتى المجلجلة . وشـعرت بالحزن لأنى لم أتعلم قبل سفرى الى هنا كيف أتعامل مع امرأة، .. لقد نشأت فى بيت كله من الرجال ، ولم يكن فى طفولتى غير أبى وثلاثة من الصبيان هم أخوتى . ولقد فقدت أمى قبـل أن أعى الحياة ، وفقدت أختى الوحيدة بعد ذلك بشهور ، ولم أتعامل قط مع امرأة الا كخادمة ، أو كأنثى ألتقى بها فى الظلام . ولهذا السبب لم ألتق بامرأة الا وشعرت نحوها بأنها مجرد أنثى ، لم تكن المرأة فى حياتى صديقة ولا زميلة على الاطلاق ، ولا أظن أن الأنثى يمكنها أن تكون فى هذه الصورة على الاطلاق ، اننى لا أكاد أتصور أن هذه البنت الصغيرة التى تجلس صامتة الى جـوارى قد جاءت الى هنا لتشترك فى المعركة . انها هنا لسـبب آخر ، لابد انها على علاقة بحسين أو بأحد غيره من الرجال ، وهكذا كانت رتيبة فى عش حمودة ، هكذا أيضا مدام ريتا فى فندق بالاس ، والا فلماذا غضبت فوزية عندما سألتها عن حسين ؟

هل كشفت سرها بهذا السؤال العابر ؟ ولكن مالى أنا وفوزية

مادمت مجرد عابرسبيل لن أقيم هنا ، ولن نلتقى فى مستقبل الايام ••

ورحت أبحث عن طريقة لاسترضائها ، ولكنها أنقذتنى من هذه الورطة عندما سألتنى فجأة :

ـ انت زعلت ؟

ـ أبدا ، أزعل من ايه ••

ـ عشان ماجاوبتش ع السؤال ••

ـ أبدا ، أنا أصلى عاوز أكتب موضوع عن حسين •

وابتهجت فوزية كثيراعندماعرفت السبب ، وقالت فى حماس شديد :

ـ هوه راجل كويس خالص ••

وضحكت رغما عنى ، وأدركت هى انها قالت نفس الشىء الذى أضحكنى من قبل • فضحكت هى الاخرى ضحكة طويلة ، وقالت وهى تحاول أن تكتم الضحك :

ـ أصلى أنا مش عارفه أتكلم ••

ـ ومش عارفة تتكلمى ليه ؟

وقبل أن تجيبنى ، انطلق صوت من خلفنا ينادى عليها ، وعندما التفت نحو مصدر الصوت رأيت نفس الشاب الصغير الذى كان بجوارها أثناء تناول الطعام ، والذى كان يبادلها الحديث والنكات ، والذى من أجله رمقتها بنظراتى النارية فسكتت على الفور • ونهضت فوزية تجرى نحوه ، وأخذها من ذراعها وانتحى بها ركنا خلف أشجار البرتقال • واذ اختفت فوزية والشاب عن عينى ، ألقيت بنفسى على الارض ، شاخصا ببصرى الى السماء ، وابتسامة باهتة ارتسمت على شفتى ، مصدرها رضائى الشديد عن نفسى • واعجاب لا حد له بفراستى التى لاتخطىء على الاطلاق • وها هى الظروف تؤكد صدق نظرتى الى الاشياء • فوزية هنا اذن من أجل هذا الشاب • ونحن هكذا فى

الحياة ، نخلع على رغباتنا الشخصية صفات كبيرة وضـــخمة لاتتناسب أبدا مع حقارة هذه الرغبات ·

وغابت فوزية مع الشاب دقائق طويلة قبل أن تظهر مرة أخرى تجرى نحوى فى نفس النشاط والحماس ، واذ اقتربت منى قالت وهى تهم بالجلوس :

ـ الليلة دى فيه عملية كبيرة قوى ··

وكان من الطبيعى أن تقول فوزية هذا الكلام لتبرر موقفها أمامى ، واذا لم تأت فوزية بخبر يهز أعصابى كهذا الخبر ، فأى سبب دعاها اذن الى الاختلاء بالشاب خلف شـــجر البرتقال ؟ وأومأت برأسى نحو الشاب ، وقلت فى نبرة ساخرة ··

ـ هوه اللى قالك ؟ ··

وأجابت على الفور :

ـ نعم ··

ـ وهوه هيستنى هنا ، والا هيروح معاهم ؟

وقالت فى استنكار بالغ :

ـ يستنى هنا ازاى ، دا هوه الدليل بتاع الكتيبة ··

ـ انت تعرفيه كويس ؟··

وقالت فوزية وهى تضحك ··

ـ دا أخويا ··

وقفزت جالسا على الارض ، وقد أحسست بكيانى يتضاءل· وبحجمى ينكمش ، حتى صرت أصغر من حصاة ملقاة فى حديقة القصر المهجور · ولم أقو على النظر فى وجه فوزية ، ولم أرفع بصرى من الارض حتى عندما قالت فوزية ··

ـ دا كان موظف فى الجيش الانجليزى اسمه سعد ··

ودون أن أستأذن من فوزية قمت واقفا متجها الى الشاطىء ، فى خطوات عصبية ·

وعندما بلغت شاطىء البحيرة رحت أقذف فى الماء الذى يلطم

وجه الشاطىء فى رفق شديد بحفنة من الزلط كبشتها من الارض عندما كنت نائما أنتظر فوزية . ورحت أتمشى على الشاطىء جيئة وذهابا كأنى نمر محبوس فى قفص . وعندما نظرت الى حيث كانت تجلس فوزية لم أجد أثرا لها هناك ، والحديقة بدت مهجورة كأن أحدا لا يسكنها على الاطلاق ، وثمة ريح خفيفة راحت تحرك أشجار البرتقال المثقلة بالثمار ، والسماء التى كانت شديدة الزرقة من قبل ، اختفت خلف طبقة كثيفة من السحاب ، وأسراب الطيور المهاجرة نحو الشرق تعبر البحيرة فى صخب شديد . وعندما انحنيت أغسل يدى فى ماء البحيرة ، هتف حسين خلفى فجأة :

– فتحى بدير هنا ..

الفصل الثالث عشر

كانت مهمتى سهلة مع فتحى بدير ، وعندما حان موعدالغداء كنا قد وصلنا الى قرار ، ووافق فتحى وقلبه ينبض بالنشوةعلى أن يحل مكان حمودة • ولم يطلب شيئا الا عدة بنادق ومدفع رشاش ، وعندما أجيب الى طلبه قال وهو ينظر نحوى :

ـ أنا هاعمل تطهير فى الكتيبة ! ••

ثم راح يشرح لنا هدفه من وراء هذا التطهير •

وأكد ضرورة هذا الاجراءلكى تتمكن الكتيبة من خوض المعركة على الفور ، وراح يعدد أخطاء سلفه حمودة ، وكيف كانت الكتيبة وسيلة الى حياة مترفة وثراء عريض ، وعندما نهضنا الى الغداء قال ووجهه شديد التجهم :

ـ بس افرض حمودة طلع م المستشفى يبقى العمل ايه ؟

وقال حسين فى هدوء :

ـ حمودة بدرى عليه لسه ، قدامه شهرين ع الاقل •

وكأن هذه الاجابة لم تطمئن فتحى بما فيه الكفاية ، فصمت قبل أن يقول فى اضطراب :

– كده ، طيب ..

وعندما انتهينا من الغداء ودعنا فتحى وداعا حارا ، ثم قال وهو يعانق حسين .

– أنا هابدأ المعركة من بكره ..

وكان فتحى قد جاء فى الصباح الى قرية أبو سلطان مع الدكتور العجوز الذى استنجدنا به فى فندق بالاس لانقاذ حمودة .

واذ التقى الرجل بابنه الوحيد عانقه طويلا وبكى بحرقة ، ثم سحبه الى ركن فى الحديقة وجلسا معا يتهامسان . غير أن صوت الرجل العجوز كان أحيانا يعلو . وعندئذ كان ينهض واقفا وهو فى عنفوان غضبه ملوحا بيده المعروقة ، ثم لا يلبث أنه يهدأ ويعود الى الجلوس تحت شجر البرتقال ..

واذ انتهى الحديث الطويل بين الرجل وابنه ، نهضا معا واتجها نحو حسين الذى كان يجلس الى جوارى شاخصا ببصره نحو الأفق ، وقد امتدت البحيرة أمامنا الى مدى البصر ، وعندما اقتربا منا هب حسين واقفا مصافحا الدكتور العجوز فى حرارة، وعندما مد يده ليصافحنى تذكرنى على الفور، وقال وهو يهز يدى بشدة :

– عمل ايه حمودة :

– الحمد لله كويس

– الله يكون فى عونه ، دا جمل اللى استحمل دا كله ..

ثم خلع الطبيب نظارته وراح يدعك زجاجها بمنديل نظيف، واقترب من حسين وقال وهو ينظر نحوى يريد اشراكى فى الحديث :

– أنا ليه طلب بسيط ، وأرجو انك ماترفضش طلبى .

وقال حسين فى ود حقيقى :

– أى خدمة ..

وهز الطبيب رأسه ، وأعاد نظارته الى عينيه ، واحتضن ابنه بيده ، وقال فى صوت متهدج :

ـ أنا حاولت آخده منكم ماعرفتش ، مافيش فايدة ، قلت أقعد أنا معاه ، عاوز أقعد معاكم يابنى ، أنا أقدر أقوم بأى عمل ، أنا دكتور بهايم صحيح ، انما فى الزنقة بانفع ، واللا زى بعضه ، أكنس ، أحرس ، أى حاجة ، أى حاجة •

وقال حسين وهو يضحك :

ـ انت طبيب الفرقة من اللحظة دى ومسئول عن صحة أفرادها ••

وتهلل وجه الطبيب العجوز فرحا ، وهجم على حسين وعانقه بشدة • ثم احتضننى أنا الآخر ، ولسانه يردد بلا انقطاع ••

ـ ربنا يحميكم ، ربنا يحميكم ••

وبعد أن شكر حسين طويلا ، استدار مع ولده عائدا الى داخل الفيللا ، وقال حسين وهو يومىء برأسه نحو الرجل

ـ دكتور هبط علينا م السما ، مين كان يحلم !

وقبل أن ينهض واقفا تاركا الشاطىء لينام ، قال وهو يرمقنى بنظرة حادة :

ـ تفتكر فتحى يسد ؟••

وعندما أجبته فى لهجة ساخرة :

ـ ربنا يستر ••

هز رأسه •• ومضى ••

وعندما استيقظت فى الصباح كان الهواء جافا وباردا فى الوقت نفسه ، وشمس ديسمبر الواهنة تبعث بأشعتها ، والسماء رائعة وعميقة ، وأشجار البرتقال زاهية الاخضرار على نحو رائع كأن أوراقها مغسولة ، وثمة شىء يتحرك بين الاغصان الدانية ولا يبين منه شىء ، وخفق قلبى بشدة وتمنيت أن يكون ذلك الشىء فوزية ورحت أتتبع آثاره بين الغصون المهتزة ، وعندما انحرف ناحية الشاطىء تأكد لى انه ليس فوزية • فقد كان يرتدى حذاء ضخما وبنطلون كاكى ، وعندما انفرجت الاغصان عن الرجل الذى كنت

أتتبعه اكتشفت أنه الطبيب العجوز ٠ كان يرتدى قميصاشفافا مفتوح الصدر ، وعارى الرأس ، وخطواته السريعة النشـــطة تحكى مدى سعادته ٠ وعندما رفع بصره نحو نافذتى ، لوح لى بيده ثم وثب كالطفل نحو الشاطىء ، ثم راح يصعد الربوة من جديد ، ولم يلبث أن اختفى بين أشجار البرتقال ٠٠

لشد ماتغير الطبيب العجوز ، فهذا الطبيب الذى يجرى هذا الصباح فى الحديقة ، ويقفز عند الشاطىء ، ويلوح لى بيده كأنه طالب فى مقتبل العمر ، لايمكن أن تكون له صـلة ما بالطبيب الآخر الذى التقيت به مرة أخرى بالامس ، وهوفى بذلته الكاملة ورباط عنقه الضخم ، ويده المعروقة المرتعشة حين يصافحك ٠٠

ولكن أين فوزية ؟ اننى لم أرها بالامس ، ولم تحضر هـــذا الصباح لتوقظنى من نومى كما توقعت ٠ هل غادرت هذا المكان فى مهمة ؟ أم تتعمد الاختفاء لازداد اشتعالا ؟! وهل هى خبيرةالى هذا الحد كمدام ريتا ؟ أم الذى حدث تم بطريق الصدفة ؟

وماذا أريد أنا من فوزية ؟ مغامرة جديدة كتلك التى تمت مع مدام ريتا ، أم حب حقيقى ؟ وما هو الحب ؟ اننى لا أطيـــق الجلوس مع امرأة على شاطىء بحر مثلا أحدق فى وجهها وأشم عبير شعرها ، ثمأحدق فى القمر ، ثمأهمسلها فى حنان«ماأروع هذه الليلة » !

مثل هذه المناظر يمكن أن تتم فى السينما ، ولـكن لا أظن أنها تحدث فى الحياة ، والذين يصنعون مثل هـذه المواقف فى الحياة ، لابد وانهم متأثرون على نحو ما بالســـينما وروايات الحب !!

اذن ماذا أريد من فوزية ؟ ولمـاذا أتلهف على رؤيتها الى هذا الحد ؟ ومدام ريتا ؟ هل نسيتها ؟ الواقع اننى لا أحب مدامريتا الا عندما أراها ٠ وعندما ألتقى بها أحبها حبا صادقا نابعا من القلب ٠ ولكن هذا الحب يتلاشى تماما عندما أدير ظهرى لها ٠٠

كانت الحديقة تبدو خالية ولا أثر للطبيب العجوز ، والبحيرة الممتدة الى مدى البصر تبدو موحشة كئيبة هى الاخرى ٠والسماء العميقة عمقا لانهائياليس بها أثر لشىء ، لا سحابةولا طيرشارد، ولا نجم باهت ، وحتىلونها الازرق المعتاد لم يكن لهاتلكاللحظة وتركت مكانى فى النافذة وعدت الى داخل الحجـرة وارتديت ملابسى على مهل ، ثم غادرت الحجرة ونزلت الى الحديقة ،وألقيت بنفسى على مقعد بالقرب من الشاطىء ، وثمـة احساس غامض يملأ جوانحى ، احساس بالقلق والوحدة والضياع ٠

ومضى اليوم هادئا ولا جديد ، وعندما صـعدت الى غرفتى لأنام ، جاء حسين وجلس على المقعد الوحيد فى الحجرة وقالوهو يدق الارض دقات رتيبة بحذائه :

ــ بكره فيه أخبار زى الرز ٠٠

وتمددت على الفراش وقلت فى غير حماس :

ــ اياك فتحى راح يهجم بكره ٠٠

وضحك حسين ضحكة عالية وقال وهو يغمز لى بعينيه ٠٠

ــ فتحى قاعد منسجم دلوقت فى عش النسر ٠٠

وهتفت مندهشا :

ــ خلاص ٠٠

وقال حسين فى هدوء :

ــ من امبارح ، لما تنزل الاسماعيلية ابقى روح شوفه ٠٠

ــ أمال أخبار ايه اللى زى الرز ؟

ــ هننسف ميناء أبو سلطان ؟ ٠٠

ووثبت من فراشى وقد هزنى الخبر هزا ، وقلت أسأل حسين ويدى على كتفه :

ــ ازاى ، دا المينا جوه البحيرة ٠

وقال حسين فى هدوء :

ــ احنا رتبنا كل حاجة ٠٠

ــ ايه ؟ هتعوموا فى المية ٠٠

ـ لا ، لقينا رفاص ••
ـ ومين هيسوقه ••
ـ واحد قبطان ••

وخيل الى أن حسين يمزح معى ، فرفعت يدى من فوق كتفه، وعدت إلى فراشى مرة أخرى ، وقال حسين وهو ينظـر نحـوى بدهشة :

ـ انت مش مصدقنى والا ايه ؟

قلت وأنا أغمض عينى :

ـ انت بتهزر ••

وقال حسين وهو يغادر مكانه :

ـ القبطان تحت اذا كنت عاوز تشوفه ••

واندفع حسين خارجا من الحجرة ، وهرعت خلفه حافى القدمين وبالبيجاما • وفى الحديقة الساكنة المظلمة رأيت على البعد رجلا أشيب عجوزا يجلس على مقعد بينما وقف أمامه شبح لم أتبينه، وعندما اقتربت منهما اكتشفت إنها فوزية • ودق قلبى بعنف وأنا أقترب منهما ، ومددت يدى أصافح القبطان العجوز ،وراعنى بنيانه المتين ، وأكتافه العريضة • وقوته الخارقة رغم الشيخوخة والشيب ، وعندما التقت يدى بيد فوزية حاولت أن أبقى يدها بين أصابعى فترة طويلة ، ولكنها سحبت يدها فى رفق واستأذنت على الفور وأسرعت نحو الفيللا •

وقال القبطان الذى كان يغالب النعاس ويدخن بشراهـة ، ويخبط بيده على فخذه عندما ينهمك فى الحديث :

ـ كل شىء ألسطة ••

وقال حسين وهو يفحص القبطان فى اهتمام :

ـ انت عرفت المهمة بالظبط ••

وضحك القبطان ضحكة مدوية قبل أن يقول :

ـ خليك مع الله ، الست قالت لى على كل حاجـة • مايكونش عندك أى فكر ، مش راح تضربوا لغمين فى المينا ؟

وعندما هز حسين رأسه بالايجاب ، قال القبطان :

ـ ألسطة كل شيء ، جهز رجالتك وبعد ساعة نتوكل على الله ..

واذ هم حسين بالقيام ، قال القبطان وهو يشده من ملابسه :

ـ الست قالت لك ع المبلغ ؟ أناعاوزميت ورقة قبل مانتحرك .

وابتسم حسين ابتسامة صافية ، وقال فى ود :

ـ انت تستاهل ألف ورقة مش ميه بس ، ولو معانا مليون كنا اديناك ..

وتهللت أسارير القبطان ، وقال وهو يقذف بعقب السيجارة الى بعيد :

ـ الله يكرمك ، أنا عاوز ميه بس ..

ورد حسين والابتسامة لاتزال مكانها على شفتيه ..

ـ حاضر ، المبلغ هيوصلك قبل مانتحرك ..

وقال القبطان فى ارتياح :

ـ ألسطة ، كل شيء ألسطة ..

واذ أصبحنا وحدنا أنا والقبطان خبط يده على فخذه وقال يسألنى فى اهتمام :

ـ لفندى رايح معانا ..

وعندما أجبته بالنفى ، هز رأسه فى سرور وقال وهو يمد يده نحوى بسيجارة :

ـ عفارم عليك ، عين العقل ..

ثم جال ببصره فى أنحاء المكان ، وقال منتشيا :

ـ الجو حلو قوى ..

ثم سحب من جيبه الخلفى زجاجة ويسكى صغيرة ، وقال وهو يصب منها فى جوفه :

ـ شبان أفندية متعلمين ولهم مستقبل وبيرموا نفسهم فى المصايب ليه ؟ مايسيبوا الكون ينظمه صاحبه ..

ثم مسح شفتيه بيده الغليظة ، وأحكم اغلاق الزجاجة ، وقال وهو يتفرسنى :

ـ والا ايه ؟

ولما أجبته بالصمت ، قال مستأنفا الحديث :

ـ دا الدنيا حلوه يافندى قوى . أنا بقالى خمسين سنة فى البحر ، اشتغلت مع الانجليز سنين ، ماحدش جاب الـكافيه للبلد دى غيرهم ، انما هنعمل ايه ، هم حكام العالم ..

ثم أعاد فتح الزجاجة مرة أخرى وعب منها بشراهة . وكان الجو بديعا والسكون يشمل كل شىء ، والقبطان العجوز انجلى بشدة ، فقال وقد اقترب منى أكثر :

ـ هيعملوا ايه الافنديةدول ؟ هيحاربوا الانجليز ؟ داالانجليز عندها ذخيرة مش ممكن تنفد أبدا ، دول أجدع دولة مـن غير مؤاخذة ، ثم مافيش بعد كده ! أجدع ورش عنـدهم ، كل شىء انجليزى محترم . ابر بواجير الجاز من عندهم ، الرفاص بتاعى انجليزى ، بقى له عشر سنين ماشى زى الساعة ، عاوز تحارب الانجليز اعمل رفاص من غير مؤاخذة

واذ أتى القبطان العجوز على ماتبقى فى الزجاجة ألقى بها فى عصبية بالغة ، وقال وهو يزمجر كالاسد :

ـ مافيش كلام ، عاوز تحارب الانجليز ، اعمل ورش ،أجدع ورش عند الانجليز .

ثم صمت فجأة ، وضرب فخذه بيده ضربة شـديدة . وقال وهو يهز رأسه أسفا :

ـ بس مافيش أخلاق عند الانجليز من غير مؤاخذة ..

ثم استأذن منى فجأة ، وجرى نحو الشاطىء ، وعاد بعد أن ألقى نظرة على شىء داخل البحيرة فى الظلام ، وعندما اطمأن الى ان كل شىء على مايرام ، عاد نحوى سريعا وقال قبل أن يجلس:

ـ عندى رفاص زى الوحش . اسمه الوحش ..
ثم غمغم فى أسى وقال :

ـ بس الحال واقف اليومين دول ، أيام الحرب كنت بأجره للانجليز بتلتميت جنيه فى الشهر ، فين احنا وأيام الحرب فين. راحت بقى . ولماالست قالتلى ع الشغلانةدى ، قلت زى بعضه، ميت جنيه مش وحشين ، وافقت على طول .

ثم غمز بعينيه وأشار نحو الفيللا وقال يسألنى :

ـ هيه الست معاكو ، بتحارب رخره ؟ ..

ولما أجبته بالايجاب ، قال فى استنكار :

ـ انتو انجليز والا ايه ، احنا اسلام يافندى . الست ماتحاربش ، الست فى البيت بس . أنا كان عندى واحدة ست، عاشت معايا ، أربعين سنة ماشفتش الشارع أبدا ، أمال الاسلام عاوز كده ..

ثم ضرب يده فى جيبه فجأة وانتزع زجاجة ويسكى أخرى، نزع سدادتها بعنف ، وأفرغ نصفها فى جوفه ثم هب واقفا وأزاح المقعد بقدمه وتمدد على الارض ، وقال وهو يشرب من الزجاجة :

ـ مافيش أحسن من النوم على الارض ، الارض أمنا ، البنى آدم مخلوق م الارض يافندى ..

ثم ضحك ضحكة غريبة ، وقال وهو يضرب فخذه بيده :

ـ الجماعة فين عاوزين نفرقع اللغمين ونرجع ..

وعندما عاد حسين كان القبطان قد انتهى من الزجاجة الثانية ولكنه رفض أن يبرح مكانه قبل أن يحصل على المبلغ المتفق عليه، وعندما ناوله حسين المائة جنيه ، فحصها بعناية ، ثم وضعها فى حزام عريض يلتف حول وسطه ، وبدا عندما نهض واقفا كأنه لم يذق نقطة واحدة من الخمر فى حياته . وصافحنى بحرارة ، وقال لحسين وهو يتجه نحو البحيرة ..

ـ أنا هاسبق وانتو الحقونى بالقوارب هاستناكو بالرفاص على بعد نص كيلو م الشاطىء . ثم راح يغنى بصوت مرتفع وهو

يخطو فى ثبات نحو البحيرة ، ولم يلبث أن ابتلعه الظلام ٠

وكان الرجال الستة الذين وقع اختيار حسين عليهم قد استعدوا للرحلة الطويلة ووقفوا فى صف واحد يستمعون الى التعليمات ، وعندما انتهى حسين من تعليماته ، تفرق الرجال بسرعة ، ثم عادوا بعد قليل ، وقد تعاونوا فى حمل الالغام الى القوارب ، وكان حسين يجرى كالنحلة من الشاطىء الى الفيللا ليطمئن الى أن كل شىء على مايرام ، وعندما أصبح كل شىء مهيأ للرحيل ، تقدم منى فصافحنى على عجل ، وقال وهو يستعد للانصراف :

ـ خليك صاحى ، أقعد ع الشاطىء مع فوزية لحد مانيجى ، اذا مارجعناش بعد ساعتين يبقى حصل حاجة ٠٠

ولوحت له بيدى والقارب يبتعد به الى حيث وقف الرفاص الوحش فى انتظاره ٠ وبعد دقائق انبعثت ضجة هائله من قلب البحيرة ، ثم ابتعدت الضجة حتى تلاشت وان كان «الوحش» قد ظل يلوح فى الافق كنقطة شديدة السواد فى ظلام البحيرة الباهت ٠٠

ولا أدرى لماذا شعرت بالقلق تجاه هذه الرحلة الغريبة ، لعل القبطان العجوز كان هو مبعث قلقى ، فأى تردد أو أى خطأ فى التقدير أثناء دخول الميناء معناها نسف الرفاص ، وأحسست بالندم لانى لم أخبر حسين قبل اتمام الصفقة بأن القبطان العجوز قد شرب حتى ارتوى ، وانه بالكاد يستطيع أن يميز طريقه ٠

وانتابتنى الدهشة لمنظر الرجال الستة الذين وقفوا منذ دقائق على الشاطىء فى صف واحد يستمعون الى التعليمات من حسين ، ووجوههم التى كانت جامدة لاتعبر عن شىء ٠ رغم ثقتهم الشديدة بأنهم على أبواب رحلة موت !!

أى نوع من الصوفية يجعل الرجال يقبلون على الموت دون اهتمام ! وهل البشر صنف واحد أم عدة أصناف ! وهل الذى يخاف ركوب الطائرة فى نزهة خوفا من أن تتحطم به ويموت صنف غير الذى يذهب الى مهمة يعلم أن الموت فيها أرجح من الحياة ؟

ولماذا يموت الناس والرضا يفيض من قلوبهم ؟ ومن أجل أى شىء ؟ الوطن ؟!

وما هو الوطن اذا لم أكن فيه ؟ أى شىء يعنى الوطن وأنا جثة هامدة ؟ وما هو الوطن ؟ هل هو الاحجار والحقول والمنــــازل ، والبحيرات والشواطىء الممتدة ؟ وأى معنى لهذا كله اذا لم أكن أنا على قيد الحياة ؟ لا أدرى لماذا لاأستطيع أن أهضم شيئا من هذا كله ؟ لو اننى واحد من الستة الذين وقفوا منذ دقائق يتأهبون لرحلة الموت ، لأطلقت ساقى للريح ، لفررت من هذا المكان الى أقصى مكان أستطيع ، سيقولون جبان ! وماذا يهـــم ؟ مادمت مستمتعا بالحياة ، وأى معنى للشجاع الذى يرقد مدفونا تحت التراب !!

وأحسست بالرغبة فى الشراب ، تمنيت لو أشرب مثـــل القبطان حتى أفقد الوعى • ان فقدان الوعى أحيانا هو العلاج ، ومن يدرى ؟ لعل القبطان أراد أن يشرب حتى يفقد الوعى ،ربما تعمد الشراب حتى لايدع لنفسه فرصة التفكير فى الامر ، وأى أمر أخطر من لقاء الموت ؟ وانتزعنى من أفكارى وقع أقدام مقبلة نحوى ، وعندما استدرت خلفى رأيت فوزية فى ثوبها البسيط، وابتسامتها الحلوة •

وقالت وهى تجلس الى جوارى :

ـ فات نص ساعة ••

ونظرت اليها فى هدوء ، وسألتها فى هدوء أشد :

ـ كنتى فين طول النهار ••

وأجابتنى فى سذاجة :

ـ كنت باتفق مع القبطان ، دوخنى ، كان عاوز مية وخمسين جنيه ، وبالعافيه وافق على ميه ••

ـ انت تعرفيه من زمان ؟

ـ أيوه •• بيته جنبنا ، بس هوه مايعرفنيش ••

وضحكت فوزية فى دلال ، وقالت وهى لاتزال تضحك :

ـ أول ماكلمته خاف ..
ـ خاف ازاى ؟
ـ أفتكرنى واحدة ست ..
ـ ماهو انت واحدة ست ..
وضحكت فوزية ضحكة مجلجلة ، وقالت وهى تدير عينيها عنى : ـ
ـ كان فاكرنى واحدة ست وحشة .
وقلت مازحا :
ـ مش معقول ، هوماعندوش نظر وانت واحدة ست زى القمر
وقالت فى عصبية :
ـ لأ مش كده ، قصدى أقول كان فاكرنى واحدة ست وحشة ، يعنى بطالة ، بتاعت شوارع ..
ثم راحت تضحك كأنها طفلة يداعبها أحد ، وعندما انتهت من نوبة الضحك الحادة التى انتابتها ، قلت وأنا أقترب منها :
ـ تعرفى طول النهار وانا متضايق
ـ ليه ؟
ـ عشان كنتى غايبة ..
وقالت فوزية فى سذاجة :
ـ وايه يعنى ..
قلت وأنا أتظاهر بتنظيف شعرها من قشة علقت به
ـ وايه يعنى ازاى ، أنا لازم أشوفك كل لحظة ..
وتوقعت فوزية شرا فزحفت الى الخلف قليلا ، وقلت محاولا أن أهدىء روعها :
ـ انت خايفه منى ..
ولم تتكلم ، اكتفت بالنظر نحوى فى ذعر هائل كأنها أرنب يحاول الافلات من شخص يهاجمه ، وكان احساسى بالقلق والضياع قد استبد بى ، واحساسى الغامض نحو فوزية يتأجج بين جوانحى ، وثمة غرور وقح يسيطر على نفسى بأن فوزية تحبنى ، ولكنها تنتظر منى أن أخطو نحوها الخطوة الاولى فقلت على طريقة أبطال الروايات :

– فوزية ، أنا عاوز أبوسك ..

وارتاعت فوزية لسماعها هذه الكلمات واتسعت حدقتاها بشدة ، وبرقت عيناها بلمعان مخيف ،و سرت حمرة شديدةفى وجنتيها ، وازدادت تبعا لذلك بهاء وجمالا ، وازددت أنا الآخر رغبة وانفعالا ، فزحفت نحوها ، ولكنها زحفت الى الخلف فى حركة سريعة . ولم أكن أستطيع التراجع وكل ماحولى يغرينى بالتقدم . واندفعت نحوها فى حركة هستيرية ، وضممتهانحوى فى عنف ، وحاولت تقبيلها دون جدوى ، كانت تدفعنى بقوة وتدفن رأسها فى صدرى ، وتزوغ عبثا من أن تلتقى شفتاها بشفتى ولكنها لم تصمدطويلا ، سرعانماانهارت قواها بينذراعى القويتين .. وعندما أطبقت على شفتيها بأسنانى كانت تبكى . ولكنى لم أهتم ، رحت أعبث فى شعرها ، وأضمها نحوى فى قسوة شديدة وعندما أفلحت فى أن تبعد شفتيها عن شفتى ، أطلقت على الفور صرخة رهيبة ، ولم تكن صرخة مبعثها النشوة، ولكنها كانت صرخة استغاثة . وخشيت عاقبة الامر ، فكتمت أنفاسها بيدى ، ولكن انفجارا رهيبا دوى فى الافق فجأة ، ثم تبعه انفجار آخر أشد هولا ، وارتفعت ألسنة اللهب فى الفضاء فأضاءت البحيرة التى كان الظلام يحتويها منذ لحظات ، ورفعت بصرى أحدق فى الفضاء البعيد وقد راعنى منظر النار التى تشتعل وسط البحيرة ، هل هو «الوحش» الذى انفجر أم شىء آخر .

ورحت أصيخ السمع الى طلقات النار التى تتجاوب صداها فى الأفق ، ولم يكن قد مضى منذ بدء الرحلة أكثر من ساعة عندما ساد الهدوء مرة أخرى ، ولكن النار لم تهدأ أبدا ، وكان صوتها المزمجر يعلو أحيانا فتملأ الجو حولنا بالضجيج ..

وعندما التفت نحو فوزية ـ وكنت قد نسيتها تماما اكتشفت انها ليست مكانها بالقرب منى ، اختفت تماما ، وبدا كل شىء حولى ساكنا ، البيت والحديقة والشاطىء والبحيرة حتى النار التى امتدت ألسنتها فى الفضاء البعيد راحت ترعى فى هدوء .

الفصل الرابع عشر

منذ شرع الرفاص يتحرك الى قلب البحيرة ، والقبطان العجوز لم يكف لحظة عن الغناء وراح يدندن بلغة غير مفهومة وهو قابع خلف عجلة القيادة يحركها بأصابعه الغليظة ورجاله السبعة يجلسون فى صمت وعيونهم متعلقة بالانوار التى راحت تشع داخل ميناء « أبو سلطان » .

ويبدو أن الصمت الذى ران على ركاب الرفاص السبعةقد لفت انتباه القبطان العجوز الذى كان صوته الخشن العريض يلعلع بالغناء ، فألتفت فجأة نحو الرجال السبعة وضحك ضحكته المدوية وقال وهو يشير بأصبعه نحو حسين :

ـ ايه الحكاية انتوا رايحين تدفنوا ميت ؟

وقال حسين وهو يبتسم للقبطان ابتسامة لامعنى لها ..

ـ لا مفيش حاجة ..

ثم عاد ينظر مرة أخرى الى النور الباهت على رصيف الميناء وأدار القبطان ظهره الى حسين ورجاله وقال وهو يقبض بكلتا يديه على العجلة :

ـ ولا فيه ..

وكان الهدوء يخيم على كل شيء . والظلام يحتوى البحيرة والسماء صافية على غير العادة ، والجو رائع وبديع ، وله رائحة نفاذة تثير فى نفس الانسان ذكريات الماضى الجميلة ..

ولما كانت الرحلة بالنسبة للرجال السبعة هى رحلة موت فى النهاية ، فقد راح كل منهم يسرح بعقله مع ماضيه البعيد ربما تذكر أحدهم أمه ، ربما تذكر أخاه ، ربما توقف عقلـه عند ليلة جميلة ، ربما سرح فى أكلة شهية ، ومن عجب الحياة أن أمورها الهايفة البسيطة تصبح ذات قيمة كبرى عنـــدما يدرك المرء أن الحياة تسير نحو النهاية .

ولا يستطيع أن يتذوق هذه اللحظات الا من واجه الموت مرة ، عندئذ يفتش المرء فى زوايا قلبـه المترع بالاسى عــن اللحظات السعيدة وحتى أتعس الناس لا يعدم لحظات سعيدة ينبش عنها فى أعماق نفسه ليجترها فى لحظاته الاخيرة ، ومن عجب الحياة انه حتى الاشياء الكئيبة والبغيضة والكـــريهة الى النفس التى كان الانسان يشكو منها تصبح عندئذ جميلة . فلقد كانت على أية حال حياته ، والحياة مهما كانت مرارتهـا ومهما كانت تعاستها خير ألف مرة من الموت ولو فى مهمـــة عظـــيمة !!

كان الكل مطرقا نحو الارض عندما هب القبطان العجوز يصيح فى ضجر شديد ويسب الدين والدنيا ويلعن سنسفيل البخت المايل الذى رماه آخر العمر فى مهمة كئيبة مثل هذه ، ثم انتفض واقفا وقد ترك مكانه خلف عجلة القيادة واتجـــه نحو الرجال السبعة وجلس على الارض تحت أقدامهم بينمـا راح الرفاص العجوز كصاحبه يشق طريقه وسط البحيرة ، كأنه يعرف الطريق نحو الهدف ..

وقال القبطان وقد أمسك حسين من كتـــفه وراح يهزه بعنف ..

– انت حزين ليه ؟ مدام مش قد الشغلانة دى ماترجع ..

وقال حسين وهو يحدق فى عين القبطان العجوز

– أنا مش حزين ولا حاجه أنا بس بفكر .

واتكأ القبطان على حديد الرفاص ومد رجليه على الارض وقال وهو يضرب يده فى عبه وينتزع زجاجة خمر :

– ولا تفكر ولا حاجة .. انتوا يعنى رايحين تفتحـوا عكادول لغمين رايحين تفرقعوهم .

ثم دس عنق الزجاجة فى حلقه وراح يشرب منهـا كأنه عطشان لم يذق طعم الماء منذ الصباح ، وعندما رفع الزجاجة من فمه كان نصفها قد طار ، وخيط رفيع أحمر اللون يسيل من جانب فمه على ذقنه وينحدر الى رقبته ، وبدا الابتهـاج الشديد على وجه القبطان العجوز وهو ينظر نحو حسـين والزجاجة بين أصابعه ، وعندما استغرق فى الضحك بدا وجهه الملطخ ببقـايا الشراب الاحمر اللون كأنه وحش انتهى منذ لحظات من التهام فريسة ، ثم مد يده نحو حسين بالزجاجـة وقال ورأسه يترنح :

– اشرب .. اشرب ..

واعتذر حسين برفق ، فقذف القبطان بالزجاجة تحت أقدام حسين وقال وهو يمسح فمه بظهر يده :

– يا أخى اشرب ، يعنى حنبلى ؟

وابتسم حسين فى ود وقال وهو يقيم الزجاجة التى انبطحت على الارض وسال الشراب منها فى قناة طويلة رفيعة حمـراء اللون كالدم ..

– بعدين حانشرب يا كابتن .

وضحك القبطان ضحكة استهزاء وقال وهو يلعق شـفتيه بلسانه ..

– بعدين امتى .. انت ناوى تاخد راندفو معايا .

ثم مد يده فخطف الزجاجة ورفعها الى فمه وراح يعب منها بشراهة ، وعندما انتهى من الشرب لم يكن قد تبقى بهـا

الا رشفات قليلة ، وعندئذ هب واقفا وسط الرجال السبعة والزجاجة فى يده يلوح بها فى وجوه الجميع وقال وهو يترنح ..

ـ محدش عاوز يطفح ؟

ولما أجيب بالصمت قذف بالزجاجة الى الماء وبصق على الارض واتجه نحو عجلة القيادة وقال وهو يدير العجلة بشدة :

ـ ليله سودة باين عليها ..

كان الرفاص قد توغل فى داخل البحيرة ولم يعد يفصل بينه وبين الميناء الا مرمى رصاصة ، وعندئذ خفف القبطان من سرعة الرفاص ونفخ بقوة فأطفأ الشمعة الوحيدة التى كانت تشتعل داخل مصباح صغير فى سقف الرفاص ، ولم يلبث القبطان أن صاح فى هدوء :

ـ وصلنا حلق المينا ..

وعندئذ نهض حسين ووثب الى جوار القبطان وراح يحدق داخل الميناء يحدد الامكنة التى ينبغى عليه أن يفجر فيها الالغام .. ثم أشار نحو رصيف يمتد من الشاطىء الى قلب البحيرة وقال :

ـ أدخل هناك ..

وقال القبطان وهو ينظر نحوه بدهشة .

ـ أدخل فين ؟

ـ على الرصيف ده ..

وانفرجت شفتا القبطان عن ضحكة صفراء وقال وهو يربت على ظهر حسين :

ـ رصيف ايه اللى هندخل عليه . دا احنا لو دخلنا خمسة متر كمان ، الرفاص هيبقى ميت حته ..

وعندما استفسر حسين عما يعنيه القبطان هز الاخير رأسه ثم أشار نحو رصيف آخر وقال فى اهتمام بالغ :

– شايف المدافع اللى هناك ، الرصاص مش ممكن يتحرك أكثر من كده ٠

وقال حسين فى همس :

– **والعمل ٠**

– خد الرجالة والالغام ؛ وعوموا فى الميه ٠٠

– وانت ؟

– أنا حستنى هنا لحد ما تيجوا ٠٠

واستدار القبطان ومد يده فأوقف آلات الرصاص فلم يعد يتحرك الى ابعد من ذلك ، ونام على ظهره فوق دكة خشبية متخذا يده وسادة لرأسه وراح يصفر لحنا اجنبيا واضعا ساقا على ساق مغمضا عينيه فى نشوة شديدة ، ولما أصبح التفاهم مستحيلا مع القبطان العجوز عاد حسين الى رجاله الستة وهمس لهم بما وصل اليه الامر مع القبطان وعندئذ هبوا جميعا وراحوا يخلعون ملابسهم ، ولم تمض لحظات حتى كان الجميع فى الماء والالغام معهم وحسين فى المقدمة يشق لنفسه طريقا الى قلب الميناء فى هدوء شديد حتى لا يثير انتباه احد من الجنود الذين وقفوا على الشاطىء للحراسة ، وعندما وصل الى الرصيف كان جندى الموريشان يدق الرصيف بحذائه الضخم فى خطوات عسكرية منتظمة قاطعا المسافة بين كشك الحراسة وحافة الرصيف جيئة وذهابا ، وعيناه مغلقتان ورأسه مائل على صدره ، ولم تستطع الضجة التى انبعثت أسفل الرصيف ان تجذب جندى الموريشان من أحلامه الوردية وكان لا بد من الانتهاء بأسرع ما يمكن من بث الالغام بين الصنادل والقوارب وأسفل الونشات الضخمة ٠ فى ربع ساعة سوف تنفجر هذه الالغام لتدك الميناء دكا ، ويصبح بعدها ميناء أبو سلطان كأن لم يكن فى يوم من الايام ٠ وبقدر ما كانت العملية خطيرة بقدر ما كانت مثيرة للاعصاب وبينما كان حمدى – أصغر الستة سنا – يغطس تحت الماء اذا بنصل حاد

كالسيف يشق جلد ظهره ، وصرخ حمدى صرخة عاليـــة ، أثارت انتباه الجندى الموريشان ، فانطلــق يصرخ كالمجنـــون يسأل عمن هناك ، ثم رفع بندقيته فى الهواء وافرغ ما فيهـا وعندئذ انطلقت المدافع الرشاشة من كل اتجاه وفى كل اتجاه وأصبح الرصيف ميدان قتال ، وعشرات المصــابيح الكاشــفة راحت تمسح وجه البحيرة كأنها كلاب صيد مدربة على اقتناص الفريســـة ، واستحال الليل الى نهار ، وعلى آخــر المدى كان رصاص القبطان يتأرجح على وجه البحيرة ويبدو فى الضـــوء الباهت وكأنه حيوان بحرى غريب ٠

ولم يكن النصل الحاد الذى شق جلد حمدى واحدث هــذه الضــجة كلها الا « هلب » اختفـــى تحت الماء ، ظنه حمـــدى ـ لفرط الاضطراب ـ جنـــديا يطعنه من الخلف ٠ وأيا كانت الاسباب التى أدت الى هذه النتيجة ٠ فقد وقع الذى يخشاه حسين ، وانطلق الرصاص يعربد فى اجسام الرجال وسقط حمدى أولا وسقط أحمد ، وانطلق الباقون كالقذائف الموجهة يضربون فى الماء بأذرعتهم القوية يشقون لانفسهم طريقا وسط النيران الى خارج الميناء ٠

ولكن الرصاص المنهمر كالسيل الذى راح يعـــوى فوق رءوسهم كالكلاب المسعورة عاقهم عن التقدم خطوة واحدة وبدا لهم فى هذه اللحظة الحرجة أن الافلات من المصير ضرب من المستحيل وان النهاية قد دنت ، واستقر رأى حسين فى هــذه اللحظة على أن يراوغ الانجليز دقائق اخرى حتى لا يفطن أحد الى الالغام المبثوثة ، وفعلا أصــدر الامر الى الرجال الباقـــين بالتفرق على أن يحاول كل منهم أن يشق طريقه بمفرده خارج الميناء اذا استطاع ، ولما لم يكن هناك وقت للوداع ، فقـــد اختفى حسين بأن لوح لهم بيده ثم غطس وأختفى تحت الماء ٠ ولم يكن قد اشترك فى المعركة حتى الآن الا الجنـــود الذين انتشرو على ارصفة الميناء ، لم تكن الزوارق الحربية قد نزلت

بعد الى الميدان ولم يكن أحد على الشاطىء قد أدرك بعد حقيقة ما حدث ، ولذلك كف الرصاص ، عندما ابصر الذين علـــى الشاطىء رفاصا يقتحم الميناء فى سرعة متجها نحو الرصيف بادىء الامر ثم لم يلبث أن انحرف ناحية اليمين ومد رجل عملاق يده وانتشل جسما أخر وجسما ثالثا وجسما رابعـــا وعندئذ ادرك الذين على الشاطىء حقيقة الامر فأطلقوا نيرانهم نحو الرفاص ٠

وكان رجل آخر من الرجال الخمسة لا يزال يبحث لنفسه عن طريق للخروج من المأزق ، وكان القبطان العجوز يود لو طالت فترة الهدنة قليلا ليتسنى له انقاذه غير أن الرصاص المنهمر أجبره على الفرار ، ومن خلفه انطلقت زوارق حربية تطلـــق النار الى ابعد مدى وتصيب ٠ ولم يكن (الوحش) العجـوز بقادر على الافلات من قبضة مطارديه ، ولم يكن مـــع ركاب الوحش مايستطيعون به الدفاع عن أنفسهم ، وخلا الجو للجنود الذين أحدقوا بالوحش من كل الجهات ٠

وعندما ارتفع صوت الجنود من الزوارق يامـــرون ركاب الوحش بالاستسلام لم يجبهم الا الصدى ، وعندئذ افرغوا رصاص مدافعهم فى الوحش ، وندت صرخة عن أحد الرجال الخمسة وسقــط جسم فى داخل الرفاص ، وقبـــل أن يتبـين أحد حقيقة ما حدث انقلب الرفاص نفسه وغاص فى المـــاء

وانقلبت الزوارق الثلاثة واستحال الميناء كله الى جحيم فقد انفجرت الالغام دفعة واحدة واهتز قاع البحيرة كأنمـــا انشقت الارض عن زلزال عنيف ٠ وعندما افاق القبـــطان العجوز من هول الصدمة كان يســـبح وحده وقد قذف به الانفجار بعيدا خارج الميناء ، وعلى بعد يسير كان رجل يصرخ مستغيثا ، وعندما اقترب منه القبطان اكتشف انه حســين وجرح غائر فى كتفه ينزف دما بغزارة وطوقه القبطان بيديه الفولاذية وراح يسبح معه فى إتجاه الشاطىء ٠٠

كان الفجر يلوح من خلف الافق والقبطان العجوز يقف داخل الماء على مقربة من الشاطيء وقد فقد قواه تماما واحس رغبة ملحة فى أن ينام وبالرغم من ذلك لم تفرج قبضـــته الفولاذية عن عنق حسين الذى كان قد فقد الوعي منذ وقت طويل ، واحس القبطان العجوز بضعف شديد يســـتولى عليه وركبتاه تتخاذلان فى الماء · كان مخمورا وكان متعبـــا وكان فى حاجة شديدة الى النوم وكان البرد قد جمـد اطرافه غير انه احس بشيء ساخن يسيل على صدره ، ومديده يتحسس عظام صدره ويعبث فى شعره الغزير وعندما سحب يده كانت ملطخة بالدم ، وغسل القبطان يده فى ماء البحيرة وظن أنه دم حسين الذى كان لا يزال ينزف من الجرح الغائر فى كتفـه ولكن احساسه بالشيء الساخن الذى ينزلق عـــلى صـــدره لم ينـــقطع فمد يده مرة أخـرى وعنـــد ذلك ادرك أن فى صدره جرحا وانه ينزف دما ، واذ أدرك القبطان هذه الحقيقـة سحب حســين بشـــدة نحـو الشاطيء ثم حمله عـلى كتفـــه وراح يعدو به الى حيث كنت اقف على الشاطيء انتظر عودتهم منذ أن بدأوا رحلتهم في منتصف الليل ·

وعندما وصل القبطان كنت لا أزال مكانى ساهما احـدق فى البحيرة وما جرى بينى وبين فوزية يقلقنى بشدة ·

فلو أن فوزية أخبرت حسين بما حدث بينى وبينها لكانت النتيجة سيئة للغاية ، وأنا احيانا انسى نفسى فأرتكب حماقات شديدة ، وكلما خطر فى نفسى حب تحولت الى ثور بليـد بلا احساس · وكم مرة وقعت فى هذا الخطأ ثم اســـتيقظت بعـد ذلك وندمت اشد الندم ، ثم أقسمت بأغلظ الايمان الا أعود الى هذا ابدا ثم لا البث كلما ساقت الصدفة فى طريقى بأنثى أن اندفع فى نفس الخطأ وارتكب نفس الحماقة وأعود الى نفس الندم ، وهاهو حسين قد عاد جريحا مغمى عليه وليس معه أحد

من الرجال السبعة والقبطان السكير بلا وحـش وسـتضيع الحماقة التى ارتكبتها مع فوزية فى ضجة الاحـداث ، ولا ادرى كيف استيقظ الذين كانوا فى البيت تلك اللحظـة ، ولا أدرى كيف امتلأت الحديقة بالناس ولا أعرف كيف امتلأ الطبيب العجوز بالنشاط فراح يأمر الواقفين حوله بتسخين ماء واعداد قطن وشحذ مشارط وتعقيم آلات بينما انحنى عـلى حسين وراح يعمل بهمة فى انتزاع الرصاصة ٠

وكان القبطان العجوز اثناء ذلك يفترش الارض بالقرب من الطبيب مسندا ظهره الى جذع شجرة متأملا فى غير مبالاة ما يدور حوله متحسسـا بأنامله بين الحين والحين جرحه الغـائر فى صدره ، وكان القبطان العجوز يشعر بالبرد ولهذا السبب طلب خمرا ولما لم يكن هناك خمر على الاطلاق فقد مط شفتيه فى ازدراء وقطب جبهته فى غضب وقال فى صوت متحشرج :

ـ الخمرة دوا ٠٠ انتوا ايه ماعندكوش اسلام ٠٠

وضحك واحد من الواقفين ضحكة خاطفة وحدجه القبطان بنظرة قاسية ، وأشار نحوه بأصـبعه وقال يسأله فى نفس الصوت المتحشرج وقد ضعف قليلا عن ذى قبل ٠٠

ـ انت ياللى بتضحك ماتعرفش واحد بتاع خمرة ؟

عندما هز رأسه بالنفى قال القبطان فى استنكار بالغ :

ـ بس شاطر تضحك ٠٠

ثم نهض من فوق الارض واتجه الى الشـاطىء فى خطـوات مترنحة وقد عقد يديه خلف رقبته ووقف يتطلع الى نقـطة بعيدة وسط البحيرة وقال وهو يبصق فى البحيرة :

ـ الوحش كان مليان قزايز ٠٠ الله يخرب بيوتهم الانجليز غرقوه ٠ عكننوا علينا الليلادى ٠

وانطلقت ضحكة من خلف القبطان ، من احدنا ، ربما كان سببها النكتة التى اطلقها القبطان منذ لحظة ، فهو لا يعنيه أن

الوحش قد غاص ، والذى يعنيه أن زجاجات الخمر قد غرقت، وان الانجليز لم يحتلوا مصر ابدا ، ولم يطلقوا الرصـــاص علينا ، ولم يقتلوا ستة رجال كانوا مع القبطان منذ ساعات ولكنهم فقط « عكننوا الليلة علينا » ولم يكن القبطان يقصد الا نفسه .

ولكن القبطان لم يكن يعتقد ان الكلام الذى نطق به نكتة أو شبه نكتة لقد كان جادا فى كل حرف ، كان مؤمنا بمـا يقول ، ولهذا السبب غاظه كثيرا ان يطلق احدنا ضـحكة ، فنظر الى الخلف كذئب جريح ، واتجه نحونا فى خطوات بطيئة كأنما ينتزع اقدامه من الطين . كانت نظراته تنصلق بالشرر وسحنته مقلوبة وانيابه بارزة كأنه وحش يتأهب للقتـال ، وتوقعنا شرا من القبطان .

كان الفجر رطبا والريح تنشط فجأة وماء البحيرة الذى كان ساكنا منذ لحظة راح يضرب وجه الشاطىء بقسوة ويجرى عـلى الارض ويزحف تحت أقدامنا وفجأة ، قبل أن يصل القبطان الى حيث كنا سقط على وجهه راسما بجسمه رقم ٧ قاعدتها رأسه وطرفاها رجلاه بينما اختفت كلتا يديه تحت صـدره ، واتجهنا نحوه نحاول رفعه من فوق الارض ولكنا فشلنا فلقد كان برغم الشيخوخة متين البنيان منتفخ العضلات . وكان مغمى عليه وبدا فى غيبوبته انه متشبث بالارض التى لم تحن عليه أبدا . وكان الطبيب العجوز لا يزال منهمكا فى تضميد جرح حسين ولـكن حسين الذى كان قد أفاق من غيبوبته اقترح عـلى الطبيب أن يسعف القبطان بالعلاج ، وعندئذ تركه الطبيب مكانه وانحنى على القبطان الملقى على الارض وشهق الطبيب العجوز من الذعر وقال وهو يتحسس صدره :

ــ ده الرصاص خرق صدره .. ده بينزف من زمان .

وعبثا حاول الطبيب ان يصنع شيئا للقبطان . لم يكن ثمة فائدة فى علاجه وكانت الرصاصة قد اخترقت صـدره

واستقرت في الرئة اليسرى ٠٠ وكان القبطان العجوز ينزف في الداخل ، وكان واضحا على وجه الطبيب أن نهاية القبطان قد حانت وانه قطعا سيموت ، وعندما ادرك حسين الحقيقة قال للرجال الذين التفوا حوله :

ـ مين يقدر يجيب ازازة خمرة دلوقت ٠٠

وتطوع أكثر من واحد ووقع الاختيار على فوزية وقال حسين وهو يشير نحوى ٠

ـ روح معاها ياحلمى

ولكن فوزية اعترضت بشدة وقالت فى غضب بالغ

ـ لا ٠٠ أنا حاروح لوحدى ٠٠

وتسمرت فى مكانى ولم أنظر نحوها ، وانحنيت على القبطان ، اساعد الطبيب ٠٠ وعندما أفاق القبطان العجوز كانت الشمس ترقد على حافة الصحراء ويختفى نصفها فى بئر مجهولة ، والجو اصبح أكثر دفئا ، واسراب طيور هاربة من الصقيع الى حيث الدفء والشمس فى الجنوب وقوارب الصيد أخذت تعود قاطعة البحيرة من الشرق الى الغرب فى اتجاه حلقة السمك ، ولم يكن أحد فى الحديقة سوى الطبيب العجوز وأنا والقبطان العجوز الذى ينام على ظهره مفتوح العينين يتأملنا فى صمت ٠ وكان حسين ورجاله قد انتقلوا الى داخل البيت عندما عادت فوزية تلهث وفى يدها زجاجة خمر رخيص ، وناولتنى الزجاجة ثم استدارت عائدة الى البيت ٠ وابتسم القبطان ابتسامة رضى وشاعت البهجة على وجهه وفتحت الزجاجة باسنانى وناولتها له ورفعها الى فمه فى نشوة طاغية وشرب حتى ارتوى ثم راح ينظر اليها فى شغف كأنه عاشق يتغزل فى حسناء وقال وهو يهز رأسه :

ـ دى نعمة ياافندى من نعم الله ٠

ثم راح يشرب من الزجاجة دون توقف حتى اتى عليها وعندئذ رفعها بين اصابعه الى اعلى ونظر اليها فى اشمئزاز وقذف بها بعيدا وقال وهو يشير الى حلقه :

– دى نار جهنم ·· الويسكى صحيح هوه النعمة ·· أنا كنت عايز ويسكى ·· أنا معايا فلوس · فى جيبى ميت جنيه ·

ومد يدا مرتعشة يتحسس الحزام العريض الذى يلتف حول وسطه ، والذى أودع فيه كنزه الثمين عندما تسلمه من حسين فى الليلة الماضية ، وهب القبطان من رقدته رغم الالم الذى يعانيه فلم يكن الحزام العريض مكانه حول وسطه كما اعتاد أن يجده منذ عشرات السنين ، فتشت حولنا فى الحديقة وبالقرب من الشاطىء وعندما ابديت استعدادى فى البحث عن الحزام المفقود على طول الطريق الذى سلكه القبطان اشار الى بالا أفعل ، واستلقى على ظهره من جديد ثم اغمض عينيه وضحك فى سخرية شديدة وقال وقد فتح عينيه وراح يحدق فى وجهى :

– راحت الميت جنيه ·· طظ ·· ده الوحش راح راخر ·· والعمر راح راخر ·

وعندما طمأنته بأن الحياة لاتزال ممتدة أمامه · مط شفتيه وقال فى غير مبالاة :

– لا يا أبو البلديات ·· مابقاش فاضل كتير ·

ثم رقد صامتا وقد شحب وجهه ونظر يحدق عند نقطة فى الافق البعيد لعلها النقطة التى استقر عندها الوحش فى أعماق البحيرة · وكانت السفن الضخمة التى تعبر القناة فى تلك اللحظة قد أخذت تتهادى فى قلب البحيرة متجهة من الاسماعيلية الى السويس ، وكانت تبدو كنقط مختلفة الالوان فى الافق البعيد ولكن صفيرها كان يصل الينا وأصاخ القبطان العجوز السمع ثم قال وابتسامة ترتسم على شفتيه والرضى يغمره :

– المركب دى هولندى ··
وعندما انطلق صفير آخر قال :
– ودى تركى ··
ثم راح كلما انطلق صفير فى الجو يحدد الجنسية التى تنتمى اليها الباخرة صاحبة الصفير ·· وقال وهو يبدو فخورا بنفسه ·

– أنا أعرف المركب من صفارتها ·· اصل المراكب زى الناس معادن ·· اجدع مراكب من غير مؤاخذة التركى ·· دولة بتشحت ومراكبها بتلمع زى فص الالماز ·· حكمة ربنا ·· وأوسخ مراكب الجريجى ·· المراكب الانجليزى متينة بس نضافة لا ·

ثم عض على شفته السفلى وقال وهو يتنهد بعنف :
– خمسين سنة وأنا فى البحر ··
ثم قال فى أسى :

– جميع دول العالم فايتين علينا ·· ميت مركب كل يوم داخله الكنال مافيش مركب واحدة رافعة البونديرة بتاعتنا ·
ولما استفسرت منه عن كلمة « بونديرة » قال وهو يضحك
– العلم يا أفندى ··

وعندما حاول الكلام مرة أخرى لم يستطع ، قطع حديثه الطبيب العجوز الذى اندفع نحونا يصرخ فى أسى شديد وقد استولى الذعر عليه ، وخيل الى عندما رأيته أن حسين قد مات ، وعندما اقترب منا اكتشفت حقيقة الامر لقد وقف

الطبيب فوق رأس القبطان يسأله عن الرجال الستة الذين كانوا مع حسين لحظة اقتحام الميناء · وعندما قال القبطان ببساطة :
– غرقوا ··

نطم الطبيب العجوز على خدوده وراح يصرخ صرخات مؤلمة كأنه غراب قتلوا وحيده ، وانطلق يجرى فى الحديقة الى غير هدف ثم عاد الى البحيرة وغاص فيها بقدميه ، وراح يجرى بحذاء الشاطىء حتى اختفى عن الانظار ، وعندئذ سألنى القبطان العجوز . وقد وهن صوته .

ـ ماله الدكتور ؟

ـ إبنه مع الناس اللى غرقوا ..

واتسعت حدقتاه ، ونظر نحوى ولم يتكلم ، وكان وجهه قد أصبح فى لون الزبد الذى يطفو على سطح البحيرة وقد لمع عن ذى قبل وازدادت حدة البريق فى عينيه ، وعندما رفع يده الى أعلى كانت أصابعه ترتعش بشدة ، وعندما هم بالكلام كانت شفته السفلى تختلج ، ولعل الوقت الذى قضاه صامتا كان يحاول الكلام دون جدوى . وأخيرا انفرجت شفتاه وراح يتمتم فى ضعف شديد .

ـ ياما كان نفسى أعيش سنة كمان والا اتنين .. كنت بابنى بيت فى الاسماعيلية لسه ماكملشى .. ألف خسارة .. ومصمص شفتيه فى أسى شديد ، وقال وصوته لا يكاد يصل الى أذنى :

ـ أمر ربنا ..

ثم سكت وقد أصبح لون وجهه باهتا .. ومات البريق الذى فى عينيه ، وسكنت ذراعاه الى جانبه ولم يعد فى القبطان العجوز شىء يختلج . وعندما انحنيت فوقه أفحصه كان القبطان العجوز قد مات ..

الفصل الخامس عشر

لشد ما تغيرت الاحوال فى المنطقة خلال الاسبوع الذى أعقب نسف ميناء « أبو سلطان » حتى الطبيعة نفسها تغيرت مع حلول يناير البارد ، وهطلت الامطار الغزيرة بصورة مفاجئة .. وكأنما جن الانجليز لهذا الذى حدث فاحتلوا الاسماعيلية كلها ، وحولوا فندق بالاس الى مركز للقيادة ونصبوا مدافعهم على السطوح ، وأقاموا على الباب متاريسهم وحفروا خنادقهم ، وبرزت فوهات رشاشاتهم من خلال النوافذ والابواب ..

وذات صباح شديد البرودة غزير الامطار وقفت سيارة سوداء صغيرة عند باب المبنى الذى كان يحتله حسين ورجاله ونزل منها شاب فى مقتبل العمر يبدو عليه الاضطراب ، ودخل الحديقة وطلب مقابلة حسين لامر هام ..

وعندما التقى الشاب الغريب بحسين شد على يده بحرارة وهنأه فى كلمات قصيرة على نجاحه الباهر فى نسف الميناء .

وقال وهو يضغط بأصابعه على أصابع حسين :

ـ دى ضربة معلم ..

وسكت حسين ولم يتكلم كأنه لم يسمع حرفا مما قيل ،

وأدرك الشاب الغريب أن حسين يرتاب فى أمره ، فابتسم ابتسامة صغيرة وقال وهو يسحب يده من يد حسين :

ـ أنا على جبران ضابط مباحث الاسماعيلية ..

وقال حسين وقد ازداد ارتيابا فى مهمة على

ـ أهلا وسهلا ، أى خدمة ..

وتشاغل الضابط عن الاجابة بالتلفت حوله كمن يبحث عن مقعد يجلس عليه وقال وهو يمسح عن رأسه قطرات من الماء بللت شعره ..

ـ مافيش حاجه نقعد عليها ، أنا أصلى عاوزك فى حاجه مهمه ..

وعندئذ تقدمنا حسين ودخل المبنى ، وصعد السلالم ، وبعد لحظة كان ثلاثتنا فى حجرتى ، الضابط على المقعدالوحيد فى الحجرة ، وأنا أجلس على حافة الفراش ، وحسين ظل واقفا مسندا ظهره الى الحائط ، ينظر فى ريبة وقلق الى ضابط مباحث الاسماعيلية ..

والحق أن كلمات الضابط الاخيرة كانت تبعث على القلق والخوف ، فأى شىء مهم يمكن أن يأتى من أجله ضابط مباحث ليجتمع بقائد كتيبة فى هذه الظروف ؟

وقال حسين ، وهو يتفرس الضابط باهتمام :

ـ أيوه ، اتفضل .

وصوب الضابط نحوى نظرة بليغة كأنها لسان ينطق ويقول ان هذا الشخص الجالس على حافة الفراش غير مرغوب فيه أثناء الحديث وفهم حسين معنى النظرة ، فقال وهو يشير نحوى ..

ـ الاستاذ حلمى ، صحفى وأخونا وزميلنا فى الكتيبة ..

وقال الضابط وقد بدت الدهشة عليه :

ـ حضرتك الاستاذ حلمى

وعندما هززت رأسى بالايجاب قال فى صوت خفيض
ـ أهلا وسهلا ..
ثم فرك يديه فى هدوء وقال وهو يعبث بيده فى شاربه
ـ قائد البوليس عاوز يقابلك ..
وقال حسين مستفسرا
ـ قائد البوليس مين ؟..
ـ اللواء زكى مراد ..
وهتفت أنا على الفور .
ـ اللواء زكى ؟ ازى حاله .
وقال الضابط دون أن يلتفت نحوى
ـ كويس
وقال حسين فى اهتمام ..
ـ وعاوزنى ليه ؟
ـ والله ماعرف ..

هكذا رد الضابط ثم نهض واقفا واتجه نحو النافذة والقى نظرة على الحديقة والى البحيرة ، ثم تتطلع الى السماء .
وقال وهو يعود الى المقعد :
ـ الدنيا لسه بتمطر ، حاجة غريبة
وتبادلنا النظرات أنا وحسين فى ارتياب ، وسادت فترة صمت قبل أن يقول حسين للضابط :
ـ طيب أشوفه بكره ان شاء الله ، هوه مكتبه فين ؟
ورد الضابط :

ـ فى المحافظة ، وهوه عاوزك النهارده
وصاح حسين مشدوها :
ـ النهارده !!
وقال الضابط فى حزم :
ـ دلوقت ..

ثم واصل حديثه ولكن في رقة

ـ لو سمحت

واربد وجه حسين ، وبدا غاضبا كأسد جائع ، ولم أكن قد رأيت حسين غاضبا من قبل ، لم أره الا سعيدا ومبتسما وراضيا غايه الرضا حتى فى اللحظات الحرجه حتى وهو يضع قدمه فى الرفاص فى طريقه الى رحله الموت كان شديد السعادة ، شديد البهجة كأنه فى طريقه الى رحلة صيد !!

وقال حسين وهو يضع اصبعه فى فمه

ـ يعنى أنا مقبوض عليه ؟

ونظر الضابط فى دهشة الى حسين وأطلق ضحكة عالية.

وقال فى رقة متناهية ..

ـ مقبوض عليك ليه ياسيد حسين ؟ دا احنا زيك بنحارب الانجليز ..

وقال حسين وهو لا يزال يقضم جلد ابهامه بأسنانه :

ـ ولو مارحتش النهارده ؟

ـ على كيفك ، بس الراجل منتظرك فى مكتبه ، وعلى كل حال دى حاجه تهمك انت ..

وأطرق حسين نحو الارض قليلا ، ثم استأذن من الضابط وغاب عنا قليلا ثم عاد وقد ارتدى ملابسه كاملة ، وقال بلهجة سريعة كأنه يصدر الينا أمرا :

ـ ياللا بينا ..

وبعد قليل كانت سيارة على جبران تنهب بنا الطريق المحاذى للبحيرة الى الاسماعيلية ، وعند أبواب المدينة اعترضتنا دبابات انجليزية ضخمة تسد الطريق ، وقال جندى انجليزى مذعور ومدفعه المصوب نحونا يرتعش فى يده :

ـ انزلوا ..

ونزلنا وأيدينا مرفوعة الى رءوسنا وبعد أن فتشونا بدقة سمحوا لنا بالمرور ، ودخلنا الاسماعيلية والوقت بعد الظهر

بقليل ، والجنود الانجليز يسدون الطريق ، ويحتلون الميادين ويحفرون الخنادق على طول شاطىء ترعة الاسماعيلية وكانت المحافظة عندما وصلنا اليها غارقة فى الصمت ، والاسلاك الشائكة تحيط بها من كل جانب ، وجنود البوليس يتجمعون فى الفناء ببنادقهم القديمة ، وخوذاتهم الصفيح تلمع بفعل الامطار الغزيرة التى غسلتها طول النهار ، وبعضهم وقف يرتعش من البرد يدخن فى شراهة ويختلس النظر من خلال الاسلاك الى الشارع الرئيسى حيث راحت دبابات الانجليز تتمخطر وقد تغطت بشباك خضراء فى لون الحقول ، وصفراء فى لون الرمال ، وحمراء كالدم ، كأنها حسناوات فى عرض هائل للازياء .

وعندما دخلنا مكتب اللواء زكى مراد كان الدفء يشيع فى جو المكتب ، وزكى مراد يتأرجح على مقعده الهزاز فى تكاسل لذيذ ، ورحب بنا الرجل فيما يشبه الاحتفال ، وبعد أن انتهينا من شرب الشاى ، صوب اللواء نحوى نظرة ناطقة كتلك التى صوبها نحوى على جبران ضابط المباحث عندما تأهب للحديث فى « الحاجة المهة » مع حسين .

وعندما أصر حسين على أن يكون الحديث - ومهما كانت أهميته - فى حضورى ، راح اللواء يتحدث عن المعركة وظروفها ، وقوات البوليس وسلاحها وقوات الانجليز واستعداداتهم ، وعدد القتلى من جانبنا ، والخراب والدمار الذى شمل المنطقة بعد الغاء المعاهدة ثم جنون الانجليز بعد حادث نسف الميناء وتهديداتهم المستمرة بالزحف على القاهرة واحتلالها ، ثم عرج بالحديث الى السياسة ، وأفاض فى شرح الغاء المعاهدة ، وقال فى ثقة شديدة وتهكم لاذع :

- الناس فاهمة اننا لغينا المعاهدة عشان نحارب الانجليز ده مش معقول احنا لغيناها احتجاج بس ، يعنى احتجاج بس عشان الجرايد بره تكتب ، والعالم يعرف أن احنا مش نسوان ..

ثم ضحك ضحكة عالية . ضحكة من هذا النوع الذى لا ينطلق الا من قلب صاف لا يحمل هما ، وتعجبت كيف تنطلق هذه الضحكة الشديدة الصفاء من قلب اللواء العجوز زكى مراد وهو المسئول عن المدينة فى هذه الفترة الحرجة ، والرجل الذى ألقت الاقدار على عاتقه شرف مواجهة قوات الانجليز فى المنطقة وضربهم اذا استطاع ، وقال زكى وقد انتهت ضحكته الصافية .

ـ والحمد لله آدى احنا احتجينا ، والعالم كله عرف حكايتنا لازم بأه نسايس المسائل مافيش أحسن م العقل .. واللايه .

ثم صمت برهة ينتظر جوابا ، ولكن أحدا منا لم يرد ، الذى رد كان ضابط المباحث ولم تكن المرة الاولى التى يرد عليه خلال الحديث ، مرة بهز الرأس ، ومرة بالصوت ، ومرة باشارات اليدين ، وبالموافقة على طول الخط ، وقد ارتسمت السعادة على وجهه كلما نظر اليه اللواء زكى مراد كأنما مجرد أن ينظر اللواء نحوه شرف لو تعلمون عظيم .

وعزم علينا اللواء زكى مراد بعلبة سجاير ، وأصر على أن ندخن قائلا أن التدخين يهدىء الاعصاب عندما يواجه الانسان أزمة بالغة الخطورة ..

ثم قال وهو يبتسم ابتسامة باهتة :

ـ وما أظنش فيه أزمة زى اللى احنا فيها دى ، معايا تسعين عسكرى درجة تانية مسلحين بالشوم ..

ثم مط شفتيه فى امتعاض ، وواصل حديثه فى صوت خفيض :

ـ حتى الشوم انكسر ، والناس فاهمه هنطلع الانجليز بالعساكر دى ، دول مايقدروش يطلعوا مظاهرة ..

وسكت اللواء زكى مراد ، وراح ينقر بأصابعه على غلاف علبة السجاير ، ولا أعرف لماذا دققت النظر فى العلبة

كانت حمراء فاقعة اللون ، وفى ركن منها صورة لقط أسود صغير وعليها حروف بارزة بالانجليزية ، وفى جانب منها بقايا شريط يحمل علامة الجيش البريطانى (النافى) ، وكان هذا النوع من السجاير يباع فى الشوارع قبل أن تنشب معركة القتال ولكنها اختفت تماما بعد ذلك ، ولم أرها خلال المعركة الا فى بيت حمزة بك فى نفس الليلة التى طعن الانجليز فيها حمودة ومزقوا جنبه وكادوا يقضون عليه لكن من أين حصل اللواء زكى مراد على علب السجاير الفاخرة ، لابد انها من حمزة بك ، ولا أدرى لماذا تحرك لسانى فجأة يسأل اللواء زكى مراد عن حمزة بك •• وقال اللواء فى غير اهتمام :

ـ موجود •

ولم يزد حرفا ، ثم نظر نحو حسين وقال فى لهجة جادة :

ـ معاك كام راجل ؟

ـ ميه

ـ ومعاكو سلاح أد ايه ؟

وصمت حسين قليلا كأنما يفكر ، ثم قال فى هدوء :

ـ والله ماعرف ، أهو معانا رشاشات وبنادق وشوية ذخيرة •

وقال اللواء زكى مراد وهو يدون على ورقة أمامه بعض البيانات :

ـ عظيم ، ايه رأيك بأه لو تتعاون معانا •

ـ بكل سرور ، بس نتعاون ازاى ؟

ورد اللواء وهو يزيح القلم والورقة جانبا :

ـ يعنى تضع نفسك ورجالك تحت أمر القيادة العامة فى الاسماعيلية ••

وقال حسين مندهشا :

ـ وفين هى القيادة العامة دى ؟

وقال اللواء زكى وهو يبتسم :
ـ أنا ٠٠
وتساءل حسين
ـ وبعد كده ؟
وقال زكى مراد وهو يبتسم ابتسامته التى لا معنى لها ٠
ـ خير باذن الله
ومد حسين يده الى علبة سجاير اللواء وسحب لنفسه لفافة ، وعندما هم باشعالها لاحظت أن يده ترتعش ثم راح يجذب منها أنفاسا عميقة متلاحقة ، ثم ألقى بها فجأة تحت قدميه وأخمد أنفاسها بحذائه ، وقد غاظت هذه الحركة اللواء زكى مراد فنهض من مقعده مذعورا وألقى نظرة على السيجارة الفاخرة ، وشعر حسين بالحرج فانحنى على الارض والتقط بقايا السيجارة وألقى بها فى المنفضة ثم هب واقفا وقال وهو ينحنى على المكتب ويستند عليه بكوعه :
ـ أنا عاوز أكون صريح شويه معاك ٠
ورد اللواء زكى مراد فى سعادة مصطنعة :
ـ اتفضل ٠٠ خد راحتك ٠
ـ يعنى فيه خطة لحرب الانجليز ؟
ـ لحد النهارده لا ٠٠ الاوامر اللى عندنا اننا ندافع عن نفسنا اذا الانجليز هاجمونا ٠
ـ لكن احنا بنهاجم الانجليز ٠٠
ـ أهوه ده ممنوع ٠٠
ثم أشار اللواء زكى مراد لحسين بالجلوس ، وجلس حسين وقد بدا القلق على وجهه ، وقال اللواء وهو يتفرس فى حسين مليا :
ـ انت عارف نسف الميناء عمل ايه ؟
ولما لم يكن ينتظر جوابا من حسين على سؤاله ، فقد مضى فى حديثه قائلا :
ـ دبابات الانجليز وصلت لحد العباسية ، يعنى لولاحكمة

جلالة الملك كانت البلد راحت فى داهية ..

فقال حسين ونبرات صوته تقطر دهشة وسخرية ..

ـ وعشان كده نبطل حرب وضرب وأى حاجة

وقال اللواء :

ـ ياسيدى مش حنبطل ، بس مؤقت كده ، يعنى كويس لما الانجليز يخشوا مصر .. ؟

وقال حسين :

ـ ماهم فى مصر ياسعادة البيك

فقال اللواء مفزوعا :

ـ دخلوا امتى ؟

ورد حسين فى هدوء

ـ من سبعين سنة

فقال اللواء وقد بدا عليه الخجل :

ـ ايه ، آه ، أى صحيح ، بس قاعدين فى القنال ..

وقال حسين وهو ينظر نحو زكى مراد ، واللواء يتحاشى أن تلتقى نظراته بنظرات حسين :

ـ وايه الفرق ، فى القنال زى شارع قصر النيل

وقال اللواء ..

ـ لأ لأ لا ، دى حاجة ودى حاجة

قال حسين وهو يغوص فى مقعده الوثير :

ـ ايه الفرق يعنى

ـ يا سلام فى شارع قصر النيل يعنى همه اللى بيحكموا انما دلوقتى عندنا الملك وعندنا وزارة ، عندنا جيش وعندنا بوليس وعندنا عربيات وكل حاجة ..

وفجأة دخل ضابط بوليس شاب برتبة ملازم وضرب سلاما وقال فى لهجة عسكرية ناشفة :

ـ القائد الانجليزى والست بتاعته جايين يقابلوا سعادتك بعد نص ساعة ..

الفصل السادس عشر

كان اللواء زكى مراد اثناء الاسئلة والاجـــوبة التى راح يتبادلها مع حسين كطلقات الرصاص يبدو مضطرباً غـــاية الاضطراب ، وحبات العرق راحت تلمع على جبهته العاليـــة الحمراء ، وراح يهتز فى مقعده كأنه جالس على زمبلـــك ، وأصابع يده المرتعشة تفك أزرار سترته الضيقة ، ثم وضـع كلتا يديه على المكتب كأنه تلميذ خايب يتأهب لتلقى العقاب وقال فى صوت يختلف تماما عن صوته العادى ، صوت باهت أجوف أجرب كأنما ينبع من قفاه :

– ياه ، ده انت صعب قوى ، انت أصلك لسه صغـــير ماشفتتش حاجه ، ماشفتتش أيام الحماية ولا أيام الامتيازات .. احنا كنا بقر .. حتى السلطان بتاعنا كان بقرة .. احنا كنا فين وبقينا فين .. كتر خير الدنيا .. وأدى احنا بقينـــا نضرب الانجليز بالنار .

ثم جفف عرقه الذى راح يشر ، وقال بنفس الصوت الاجوف الباهت .

– انت فاهم حتطلع الانجليز لوحدك .. احنا كفاية نضرب فيهم شوية كده .. نهوشهم .. وبعدين نتفاوض .. نقـــوم ناخد حاجة زيادة .. وحاجة فى حاجة كل شىء يبقى تمام

ثم أطلق ضحكة قرعاء كصوته ، وقال وقد تبدل احساسـه

الاول وطغى عليه شعور آخر بأنه أصبح سيد الموقف ٠

ـ انت فاهم احنا خايفين على نفسنا ٠٠ طيب اسأل الاستاذ

وأشار نحوى وعززت رأسى بالموافقة دون أن أدرى على أى شيء سوف يسألنى ، ثم قال دون أن يسألنى أحد :

ـ أنا نهار ماكنت جى فى القطر رفضت أقف ٠٠ تحديت الظابط الانجليزى ٠٠ كنت مستعد أموت عشان أدافع عن كرامتى ٠٠ لأن كرامتى من كرامة البلد ٠٠ مش حصل يا أستاذ ؟

وقلت على الفور :

ـ حصل ٠

وعندئذ ألقى اللواء زكى مراد بنفسه الى الخلف ، وكأنما هذه النتيجة الحسنة التى وصل اليها قد أرخت عضلاته المشدودة والتقط سيجارة أشعلها وراح ينفث دخانها فى لذة وعلى مهل ٠

ولقد كانت من وفرة الاحداث فى المنطقة واشتباكها والتحامها واضطرابها وهى تدور حول نفسها كالدوامة ، اننى لم أعد أذكر شيئا مما حدث بالامس ، كل أمس ، كان كل يوم يأتى بجديد ومع كل جديد أحداث وتفاصيل لايستطيع العقل أن يستوعبها كلها ، أو يتذكر بعضها ثم لايلبث أن ينساها تماما اذا أطل يوم جديد ولكن لاأدرى ما الذى حدث لذاكرتى فجأة وجعلنى أتذكر حديثا جرى بينى وبين حمزة بك عبد المقصود ونحن فى قصره نشرب زجاجات الويسكى وندخن سجائر الانجليز ، لقد قال ليلتئذ نفس الكلمات التى نطق بها الآن زكى مراد ، لعله نطقها بنفس الحروف ، لعله نطقها بنفس اللهجة ، بل أستطيع أن أتذكر الآن انه نطقها بنفس الصوت ، الصوت الاجرب الباهت الاجوف الذى يبدو كأنه صادر من قفاه ٠

فلسفة غريبة ، نطلق النار على الانجليز لتهويشهم، ثم نتفاوض ونحصل على شيء زيادة ، وكل عشر سنوات تقوم هبة ضد الانجليز تهويشة ونحصل على شيء وبعد مائة عام نستطيع أن نحقق كل شيء ٠٠ فلسفة زكى مراد وفلسفة حمزة عبد المقصود ٠

ولكن أين أنا ؟ هل أنا مع حمزة عبدالمقصـــود ؟ هل أنا مع حسين ؟

هل أنا مع حمودة وفتحى بدير ؟ فى الواقع لست أدرى ،لعل سر الراحة الكبيرة والطمأنينة البالغة التى يعيش فيهاحسين ، وزكى مراد وحمزة عبد المقصود وحمودة وفتحى بدير انهمجميعا يعرفون أين هم ، ومع من وضد من ، وأنا لا أدرى .

أنا شديد القلق كقطار يجرى على غير قضبان ، شديدالخوف كأرنبأحدق بهانصياد فى أرضعراء ، شديدالتهور كرصاصات طائشة . متأرجح كبندول ساعة ، وهذه المعركة بالنسبة لىمجرد مغامرة لايهمنى الى أىنتيجة تنتهى فالمهم أن تستمر ، ومادامت مستمرة فالمغامرة مستمرة ، اذن أنا مع المغامرة ، ولكن المغامرة ليست هدفا .. المغامرة ليست نتيجة ، المغامرة ..

وقطع حبل أفكارى حسين وقد انتفض واقفا فجأة ، ومد يده الى زكى مراد يسلم عليه ، وظلت يده معلقة فى الفضاء فقد أبقى زكى مراد يده الى جواره وقال حسين ويده لاتزال ممدودةوكفه مفتوح على آخره :

ـ أنا حاستأذن .

قال زكى مراد :

ـ بس ماتفقناش .

ـ أنا آسف .. مش هاتفق

وهب زكى مراد واقفا ونظر الى حسين فى غضب وقال وهـو ينقر بأصبعه على حافة المكتب :

ـ فى الحالة دى حانفذ الاوامر

وقال حسين :

ـ أمر سعادتك

وقال اللواء زكى مراد وصوته يحمل نبرة تحذير

ـ عارف الاوامر ايه .

وعندما هز حسين رأسه بالنفى ، قال اللواء وهو يضغط على أسنانه :

ـ هنضربكوا بالنار ..

وقال حسين وقد سحب يده المعلقة في الفضاء

ـ واحنا كمان حندافع عن نفسنا ،

وبدأ حسين يغادر المكتب وأنا خلفه وضابط المباحث خلفي، وقبل أن يصل موكبنا الى الباب صاح زكى مراد فى لهجة آمرة

ـ حسين ..

فتوقفنا دفعة واحدة ، كأننا طابور عساكر صدر اليه أمر بالتوقف والتفت ثلاثتنا نحو زكى مراد ، كان قد غادر مكانه ، وجلس على حافة المكتب ناحية اليمين ، وفى يده شيء لامع كأنه سيف صغير ، وبعد أن نظر طويلا نحونا قال وهو لايزال يعبث بالسيف الصغير ويطعن به خشب المكتب الفاخر :

ـ حسين .. أنا ماشفتكش .. ربنا معاك

ونظر حسين نحوزكى مراد ونظرنحونا وتهللت أساريروجهه بالفرح وانفرجت شفتاه عن كلمات غير مسموعة ثم وقف مكانه مضطربا لايدرى الى أين يتجه ، ولكن زكى مراد حسم الموقف عندما نهض من مكانه على حافة المكتب واتجه الى مقعده وعندئذ استدار ثلاثتنا نحو الباب ولم نكد نصل اليه حتى انفتح الباب فجأة ودخل أحد الصولات مهرولا وضرب سلاما ثم أعلن عن وصل القائد الانجليزى ولم يكن وحده ، كانت معه امرأة صارخة الفتنة شقراء كالحليب شعرها أحمر فى لون الشاى ، وعندما اقتربت منى شهقت فزعا .. لم تكن سوى مدام ريتا ، وهممت بالاقتراب منها ، ولكننى تسمرت فى مكانى ، حاولت الزعيق أنادى عليها ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، ما الذى جاء بها الى هنا ومع القائد الانجليزى ! ولم تطل وقفتنا فى ركن الحجرة اندفعنا الى الخارج ، الى فناء المحافظة ، الى الشارع ، الى سيارة على جبران ضابط المباحث ، وركب حسين السيارة وركب الضابط ووقفت أنا خارج السيارة ويدى ممدودة داخل النافذة

أصافح حسين •• استأذنت من حسين على أن نلتقى بعد ذلك ، متى وأين ؟• لم يسأل أحدنا الآخر • وتصافحنا فى ود وفى هدوء • وانطلقت بهما السيارة الى « أبو سلطان » وانطلقت أنا نحو بحيرة التمساح ، الى عش النسر ، الى حيث فتحى بدير ورجاله ، فلكم تاقت نفسى الى الليالى الساحرة الغابرة التى قضيتها مع حمودة ، والدخان ذو العطر النفاذ يزكم الانوف ، والسمك يتقلب على النار وطلقات الرصاص حولنا يتجاوب صداها فى الافق البعيد ••

وصلت عش النسر ساعة عصارى والدنيا برد والسماء التى كفت عن المطر تبدو فى لون الارض ، ولم يكن أحد هناك حول العش والبحيرة هى الاخرى كانت مهجورة الا من قارب فى لون الحمر راح يهتز مع الموج بالقرب من الشاطىء وقد امتد حبل غليظ من قلبه الى قلب العش ، واقتحمت باب العش الذى كان مواربا ، ولكن لم أكد أخطو خطوة داخل الساحة التى طالما شهدت سهراتنا الممتعة أيام حمودة حتى استوقفنى صوت جهير يأمرنى فى حزم :

ـ قف من انت ••

وتسمرت فى مكانى ورفعت بصرى الى مصدر الصوت ، واكتشفت أن الصوت لثلاثة رجال فى زى كزى رجال الاسعاف وعلى أذرعهم شارات خضراء تحمل حروفا ضخمة ومدافعهم فى أيديهم ••

ووقفت لحظة أفكر فى الأمر ، ثم قلت فى غير مبالاة :

ـ فتحى هنا ؟

ـ فتحى مين ؟

هكذا سألنى أحد الرجال الثلاثة وهو يرقبنى بنظرة تحد ومدفعه الرشاش يقترب منى ، وقلت فى لهجة تعمدت أن تكون أرق من لهجتى فى بداية الحديث :

ـ فتحى بدير ••

وقال الرجل بمنتهى الازدراء :

ـ مين عاوزه ..

وبلعت ريقى وأنا أنطق فى صعوبة ..

ـ أنا ..

ورمقنى الرجل بنظرة قاسية من خصلة شعرى التى كانت تهتز مع الريح الى حذائى الذى كان يحمل معه أرطالا من الطين وقال فى هدوء :

ـ وهو يعرفك ..

وعندما أجبته بالايجاب قال وهو ينظر نحوى نظرة احتقار بالغة :

ـ ما فيش حد عندنا هنا اسمه فتحى ، اللى عندنا اسـمه الصاغ فتحى ..

صاغ !! لابد أنه ليس فتحى بدير الذى أعنيه ، لابد أنـه فتحى آخر .. ففتحى الذى أعرفه ليس صاغا ، ولم يكن صـاغا فى يوم من الايام ، وقلت للرجل وأنا أخفى دهشتى :

ـ هوه حضرة الصاغ اسمه فتحى بدير ..

ورد الرجل فى دهشة أكبر :

أمال بتقول تعرفه ازاى ؟

ثم نظر الى أحد الرجلين وأمره فى لهجة عسكرية بأن يذهب ليخبر .. حضرة الصاغ .. بأن شخصا يريده ..

وغاب الرجل الذى ذهب ليخبر فتحى طويلا ، ونهش الغيظ قلبى وأنا أقف فى البرد وسط الساحة محاطا بالشاويش وبعض الجنود . وفكرت فى العودة من حيث جئت ، لولا خـوفى من الشاويش الذى قد يرتاب فى أمرى اذا أنا أقدمت على تنفيـذ هذه الخطوة ..

وبعد نصف ساعة مرهقة قضيتها واقفا على أعصابى عـاد الرجل ومعه ، اذن لى بمقابلة حضرة الصاغ فتحى ، وقد نطـق هذه العبارة الأخيرة بطريقة انتزعت منى الضحك رغمـا عنى

« حصاغ » ثم تقدمنى ومدفعه فى يده الى غرفة جانبية فى نهاية الساحة لم يكن لها وجود فى عهد حمودة ، وصدمتنى لافتـــه نحاسية لامعة معلقة على الباب تحمل ثلاث كلمات بحروف بارزة « الصاغ فتحى بدير ! » ••

وعندما دخلت على فتحى مكتبه الانيق لم يكن يعلم حتى لحظة لقائنا اننى أنا الشخص الذى يريده ، وعندما رآنى اضـــطرب قليلا ثم نهض من مقعده وتلقانى بين ذراعيه فى ترحيب شديد ووقفت أنظر نحو فتحى وقد تملكنى العجب لمنظره ، كان يرتدى بنطلونا من الصوف المقلم ، نفس البنطلون الذى كان عليـــه سالف الايام ، ولكنه كان يرتدى قميصا عسكريا من القمـاش الكاكى ، وعـــلى كتفه النحيل يتأرجح •• تاج فى لون الذهب وفوق صدره وسام ملون ، وقال فتحى وقد بدا الخجل عليه :

ـ هنعمل ايه ، الحرب عاوزة كده !

كانت الحجرة التى استقبلنى فيهـا فتحى أنيقـــة بشـــكل ملحوظ ، المكتب الذى يتوسطها فاخر ومن خشب الارو ، وأمام المكتب كنبة تغوص فيها اذا لامستها ، وثلاثة مقاعد من نفس نوع الكنبة ، وعلى الارض سجادة فاخـرة ، وفوق رأس فتحى صورة ضخمة لفتحى وهو فى الملابس العسكرية وعلى يسـاره وفى منتصف الجدار صورة أخرى لفتحى وهو ينظر من خـلال منظار معظم الى البحيرة ، وقد بدا الاهتمام على وجهه الشـديد الغضون !!

وطول الليل وفتحى بدير يحكى لى عن أمجاده ، والفـــرق الهائل الرهيب بين كتيبة وحوش الجبال فى عهد حمودة ، ونفس الكتيبة فى عهد فتحى •• عن النظام العسكرى الصارم الذى يتبعه عن الاوامر الناشفة ، عن نجاحه الباهر فى تنظيم صفوف رجاله، ثم فجأة ، وكان منتصف الليل قد حل ، صرخ فتحى على أحـد رجاله ، وعندما جاء الرجل مهرولا ، اتخذ فتحى هيئة القـــادة العظام ، وقال ووجهه جامد كالصخر :

ـ وضب لنا قعدة بسرعة

ونهض فتحى فخلع لباسه العسكرى وارتدى جلبابا أبيض اللون وطاقية ·· ولم تمض خمس دقائق حتى عاد الرجل الذى عهد اليه بتوضيب القعدة ، ووقف عند الباب زنهار! ، وضرب تعظيم سلام وقال ويده ترتعش عند جبهته :

ـ خلاص يافندم ··

كانت القعدة ظريفة للغاية ، على شاطىء البحيرة ، ولكن داخل حجرة من البوص مفتوحة على الماء ، ومفروشة من الداخل بسجادة فاخرة وعشرات الشلت الناعمة الملونة ·· والجوزة فى وسط الغرفة والنار تشتعل فى الفحم عند الباب ، ولم يكن معنا أحد ، بينما أحاط بالعشة من الخارج عشرة رجال بمدافع رشاشة وقال فتحى وقد بدأ الانسجام :

ـ أنا مش زى حمودة ، أنا ماحبش أشرب مع العساكر ، لو أشرب معاهم ماقدرش أحكمهم ··

ثم قال وهو فى منتهى السعادة :

ـ انت شفت لما أمرت بتوضيب القعدة اتوضبت فى خمس دقائق ، مفيش كلام ، عسكرية ناشفة !!

ثم قال بعد أن شفط نفسا عميقا ··

ـ تعرف لو حمودة ، كان قعد ساعتين عشان يوضب قعدة زى دى ··

ولما سألته عن الاحوال فى الكتيبة قال بفخر شديد

ـ الحمد لله ، الأحوال عال والأشيا معدن ، وادى احنا اللى بنكسبه يادوب بيقضينا ··

ثم راح يحكى لى بالتفصيل موارد الكتيبة ومصروفاتها ، وعندما انتهى من سرد كل شىء ، طبع قبلة حارة على ظهر يده ، ثم أدار يده وطبع قبلة أخرى ثم هتف فى سرور :

ـ الحمد لله على كل حال ·

وكان المزاج والانس قد استبدا بنا فهتف فتحى ولكن

فى لهجة ناعمة :

ـ شوف الست يا عسكرى ..

وجرى العسكرى الى الداخل وغاب دقائق ثم عاد ومعه المرأة البدينة رتيبة تلك التى جاء بها حمودة ذات مساء بعيد ، ثم هربت مع فتحى بدير بعد ذلك ، وجاءت رتيبة فى أبهى زينة المنديل الترتر الأحمر يكاد يلتهم قطعة من رأسها ، وقميص نوم أحمر كالمنديل ، وقد بدت أكثر رشاقة وأكثر جمالا عن ذى قبل ، وسلمت علينا فى دلال ، ثم جلست الى جوار فتحى ، وكلما نطق فتحى بكلمة ضحكت رتيبة من الأعماق ، وخبطت على صدرها بيدها ، أو خبطت على صدر فتحى ، وفتحى يضحك كطفل حتى يستلقى على قفاه ، ويضرب رتيبة ، ولكن ضربا خفيفا لطيفا غاية فى الانسجام !

وقال فتحى وهو ينظر نحوى ويده على كتف رتيبة :

ـ أنا عسكرى ناشف فى كل حاجة الا مع رتيبة ..

وقالت رتيبة وهى تتقصع ويرتعش حاجبها فى دلال :

ـ انت ناشف !! والنبى بلاش وكسة ..

وقال فتحى وشبح ابتسامة يرتسم على شفتيه :

ـ ايه يا رتيبة ؟ طيب عينى فى عينك ..

وسددت المرأة نظرات ثابتة نحو فتحى وكان الأمر جدا غاية الجد ، ولم تمض لحظة حتى ضحك فتحى ، وهو يبعد عينيه عن نظرات رتيبة الوقحة وقال وهو يضحك ولكن فى مرارة :

ـ طيب يا رتيبة ..

وقالت رتيبة وقد تحشرج صوتها ..

ـ طيب ايه .. ماتقول ، لفندى مش غريب ..

ولكن فتحى تجاهل ثورة رتيبة وسألنى فى اهتمام :

ـ حسين ازى حاله ؟

ـ كويس ..

وقال فتحى وهو يهز رأسه

ـ جدع ابن حلال ، بس ماينفعش فى الحرب
وعندما سألته عن الاسباب التى بنى عليها هـــذا الرأى ، أجاب فى هدوء :
ـ أصل الحرب مش عاوزة الطيب ، وحسين طيب قوى ..
ثم شفط نفسا آخر ، وقال وقد اكتسى وجهه قناعا من الجد والصلابة ..

ـ الحرب عاوزة الناشف من غير مؤاخذة وحسين طرى ..
وكانت رتيبة حتى هذه اللحظة تجلس صامته ، وأصـــابعها تنكش فى السجادة الناعمة ، ولكن عندما وصل الحديث الى هذا الحد ، التفتت نحو فتحى وقالت فى سخرية شديدة :
ـ يعنى انت اللى ماشاء الله قوى ..
وعندئذ ثار فتحى ثورة شديدة وقال وهو يلوح لها بيده :
ـ جرا ايه يابنت المركوب ..
ولكن رتيبة لم تتراجع ، وقالت وهى تنظر نحوه بازدراء :
ـ والنبى تنوكس ، دى وكستك مش على حد ..

وكأنما طاش صواب فتحى فجأة فانهال بظهر يده على وجـــه المرأة فى شدة شديدة وردت رتيبة على لطمات فتحى بالبكاء ، ولم يكن بكاء عاديا ، كان بكاء غريبا ، بكاء تستطيع ان تشم فيه رائحة الانثى ، انثى مكسورة الخاطر ، محرومة ، تجد فى البكاء لذة ، وتعويضا عن متعة الفراش ، وكانت رتيبة خلال البكـــاء تشهق بطريقة غريبة ، وكانت تبكى بطريقةموسيقية ، وصوتها يعلو من القرار الى جواب الجواب وجسمها الطـــرى الســـمين يهتز كله اهتزازات ملتاعة جائعة ، ثم راحت تندب حظهـــا فى صوت يقطر أسى ومرارة ، وبكلمـــات لا يمكن أن تكـــون هى المناسبة فى مثل هذا المقام !!
وقال فتحى الذى بدا عليه الاضطراب ..
ـ أنا اللى غلطان يابنت المركوب ..
ثم صرخ على العسكرى الواقف أمام العشة ، وأمرهبعسكرية

ناشفة أن يعيد «الست» الى حجرتها ..

وسادت بيننا فترة صمت بعد أن غادرت رتيبة العشة ، وبدا على كل منا اننا قد سئمنا شد الانفاس ، وقلت لفتحى أسأله فى حذر :

ـ مالها رتيبة ..

ولكن فتحى الذى كان غير راغب فى الحديث عن رتيبة ، اكتفى بقرض أسنانه ثم قال فى غير اهتمام :

ـ بنت كلب ..

ثم قال بعد فترة صمت ، وكأنه يحدث نفسه :

ـ أنا غلطان اللى اتجوزتها ..

واذ هدأ فتحى راح يسألنى عن حقيقة ما حدث فى ميناء أبو سلطان وحكيت له القصة كلها وهو يستمع فى اهتمام ، ثم لقاؤنا مع اللواء زكى مراد ، ثم المفاجأة التى أدهشتنى بدخول القائد الانجليزى اكسهام مع مدام ريتا ..

وقلت وأنا أتمدد على السجادة الى جوار فتحى :

ـ يظهر فيه مشاكل بينها وبين الانجليز ..

وقال فتحى وهو ينظر نحوى بعينيه المحمرتين :

ـ انت ماعرفتش ؟

ـ عرفت ايه ..

ـ ريتا اتجوزت اكسهام من أسبوع ..

الفصل السابع عشر

ومضى أسبوع كامل وأنا لا أفيق ، طول النهار وأنا أتمدد على العشب أو داخل العشة أشفط أنفـــاس الحشيش وأراقب فتحى بدير وهو يقلب جمرات النار بأصـــابع مرتعشة . وفى الفجر كنت أتسلل وحدى الى مكتب فتحى لأنام ولم أكن أنام كما ينام الناس عادة ٠٠ كنت لا أنام الا اذا سقطت من شدة الاعياء، وأصبحت عاجزا تماما عن الحركة أو تبين حقيقة الاشـــياء أو الكلام ٠٠ وخلال الساعات القليلة التى كنت أنامها كنت أدخـــل معارك واقتحم مخاطر وأعانى أهوالا ، وأستيقظ فجأة منهـــارا متعبا ورأسى منفوخة كأنها مفتوحة من الجانبين ، وكأنى مضروب علقة ، كنت كالتائه خلال هذا الاسبوع ، والسبب مدام ريتا ،

وأنا لم أكن أحب ريتا حبا كهذا الذى وصفه الشعراء ، بل كنت أنساها كلما أدرت لها ظهرى ولا يخفق قلبى بحبها الا عنـــدما يضمنى معها فراش واحد ، ولكن نبأ زواجها من القائد الانجليزى مزق قلبى تماما وأفقدنى برجا من عقلى ٠٠

اذن هذه الصغيرة كالحمامة ، الحلوة كالمهلبية ، ذات الشـــعر الاحمر فى لون الشاى لم تكن تحب شخصى الضعيف كما كنت

أتوهم لقد منحتني جسمها لاسكت ، منحتني ليالى حبها ثمنا للسكوت ، أنا كنت سلعة اشترتني مدام ريتا بأثمن ماتملك وعندما أصبح ثمن سكوتي لايساوى شيئا ، تزوجت من القائد البريطانى .. اذن لقد كنت مغفلا ، لم أكن ذلك الولد الفتك كما توهمت بعض الوقت ، لم أكن ذلك الفارس الذى تركع أجمل النساء تحت أقدامه ، أنا مجرد جردل ولا أزيد !!

وفى ضباب الجوزة استطعت أن أنسى .. وكان كلانا ، أنا وفتحي نجلس صامتين كأننا فى مأتم ، ولم يكن يصدع دماغى بأخبار المعركة كما كان يفعل معى حسين ، كان يجلس مطرقا يشفط أنفاس الجوزة فى هدوء مزيف يخفى قلقا غير مفهوم يهز رأسه اعجابا ثم يتمتم فى انبساط :

ـ الحمد لله .. الحمد لله ..

وأحيانا أخرى كان يقبل يده ظهراً وبطنا ، ثم يردد بينه وبين نفسه عدة كلمات ، ثم يعود الى صمته ..

وذات ليلة ونحن جلوس صامتين كالعادة ، سألنى فتحى فجأة وهو .. يحك فى عينيه :

ـ هوه اللى فى الدرجة التالته بياخد كام ؟ ..

ـ أربعين جنيه ..

وسرح فتحى قليلا بعد أن سمع الرقم ، ثم قال وعلى وجهه علامات الدهشة :

ـ بس !! ثم أطرق صامتا من جديد ..

وفجأة انفتح فى الكلام كأنه حنفية انقطعت جلدتها :

ـ الدنيا دى حظوظ ، أبويا الله يرحمه كان عاوزنى أطلع مدرس ، كان نفسه يعمى وأطلع مدرس .. وأنا بصراحة ماكانش ليه مزاج فى الدراسة أنا مش بتاع تعليم بينى وبينك ، أنا أكبر من كده ، أنا فى الحرب اللى فاتت كنت باكسب ميت جنيه كل يوم ، والنهاردة الحمد لله برضه ، أقل شهر بتاع ميتين

جنيه ، مدير الظبط فى المحافظة كان زميلى ، كان أبويا ابيضرب بيه المثل ، النهارده درجة تالته ، يعنى ، بأربعين جنيه ، احنا شاربين حشيش الاسبوع ده بأربعين جنيه !!

وضحك فتحى بدير ضحكة ساخرة وقال وهو يقلب جمرات النار بأصابعه السميكة المرتعشة ..

ـ حظوظ !!

ثم استطرد بعد فترة صمت قصيرة ..

ـ بس برضه جدعنه ، الحظ لوحده مش كفاية .. ماحنا كان معانا الواد اسماعيل العجلاتى ، النهاردة مش لاقى يحلق أصله نحس بعيد عنك !!

وذات مساء سألنى فتحى فى اهتمام :

ـ الحرب دى آخرتها ايه ؟ ..

وعندما قلت ببساطة ..

ـ بكرة يصطلحوا ..

هتف فتحى فى غيظ وكأن مصيبة كبرى على وشك الوقوع :

ـ دى تبقى مصيبة ، يصطلحوا ازاى ؟

ـ الانجليز تتنازل عن شوية حاجات والحكومة تتنازل عن حاجات ، ويصطلحوا ..

وقذف فتحى بالجوزة بعيدا وقال والدهشة ترتسم على وجهه ..

ـ مش معقول .. دى خيانة ، اللى يصطلح يبقى خاين ، طيبو والرجالة اللى بتحارب دى ، مصيرها ايه ؟

ونظرت نحو فتحى فى غيظ ، فأين هى الرجالة التى تحارب ؟ رجالته ؟ الواقفون حولنا يحرسون قائدهم وهو يدخن الحشيش ؟أم هو نفسه ، حضرة القائد الذى تفرغ تماما لرتيبة ولقعدات الحشيش !!

وتركت فتحى بدير يصلح من شأن الجوزة التى انخلعت ،

وغبت داخل نفسى المهزومة ألعق جراح قلبى فى غيظ !!

ولكن قلبى لم يكن مجروحا ، لم يكن به أدنى خدش ، قلبى كان سليما معافى ٠٠ دقاته ترتفع بانتظام وبقوة كقلب عداءدولى أو سباح يجيد عبور المانش ، الجرح كان فى كـرامتى ، أنا مجروح الكرامة كرجل ، حكاية مدام ريتا هزتأعماقى بقسوة ، ونزعت عن نفسى قناعا كنت سعيدا به غاية السعادة لقدتوهمت لحظة ارتماء مدام ريتا فى أحضانى أننى رجل مرغوب ومحبوب وانني ذكر تشتهيه الأنثى وتفضله عن سائر الذكور ، وأى شىء يملأ نفس الرجل غرورا وزهوا أكثر من أن تركع امرأة تحفة ، فى جمال ريتا تحت أقدامه تتأوه والدمع يلوحمن خلف عينيها ، والضعف يكسو وجهها تتوسل فى دلال أنثوى جميل :

ـ حلمى ، عشان خاطرى ٠٠

ـ طيب وعشان خاطرى أنا ٠٠

ـ عشان خاطرك انت ، ارمى نفسى فى البحر ٠٠

هل يمكن أن يكذب الانسان الى هذا الحد ؟ هل يمكن تزييف العواطف البشرية الىهذهالدرجة ، هليمكن أن يتقاتل الناس بتبادل الابتسامات بدل تبادل الطلقات ، كم كنت سـاذجا اذ صدقت مدام ريتا ، اذ خيل الى أنها فعلا تحبنى ، لم تكن تحبنى اذن ، كانت ترهبنى ، كانتتخشانى ، كانت تنافقنى ، وكـل قبلة وكل لمسة كانت مجرد رشوة من المدام ٠٠

• اشرب ، أجدع تعميرة ٠٠
• كله زفت ٠٠
• ياسلام ع الحظ يا جدعان ٠٠
• بقى درجة تالتة بأربعين جنيه ٠٠
• الله يرحمك يابابا ٠٠

كان فتحى بدير يتحدث الى نفسه بين الحين والحين ، لم يعد يعنى بسؤالى ولا بالنظر نحوى ، وكان يبدو شديد الانبساط أحيانا ، وشديد القلق أحيانا أخرى ، وفجأة سألنى وهو يزفر

بشدة :

– افرض الحرب خلصت ، مش الناس الفدائيين يروحوا الجيش ؟ ••

كان السؤال ساذجا فلم أهتم بالرد عليه ، اكتفيت بهز رأسى موافقا ليطمئن قلبه ••

وعندئذ نظر ساهما ناحية البحيرة وقال وبصره معلق فى الأفق البعيد ••

– هوه الصاغ بياخد كام فى الجيش ؟

– أربعين جنيه ••

– بس !!

وعندما هززت رأسى بالايجاب ، قال وهو يشفط أنفاسا عميقة متلاحقة :

– يبقى الفدائيين أحسن ••

ولم يكن يزعجنى شىء فى عش فتحى •• الا شجاره المتكرر مع رتيبة ، لم تكن رتيبة مجرد •• شىء •• فى حياة فتحى كما كانت مع حمودة •• لقد كانت زوجة فتحى ••

وكانت المعارك العنيفة تنشب بين فتحى ورتيبة فى الصباح الباكر عندما يدخل فتحى الى حجرته لينام•• عندئذكان يتصاعد صوت رتيبة بكلام كثير ثم تنفجر بعد ذلك فى البكاء ، وعندئذ كان صوت فتحى يرتفع للجو ••

– انت فاهمة نفسك ايه ، انت متجوزة أجدع راجل فى خط الكنال •• أناصارف عليكى دمقلبى ، انت جايبه هدوم فى الشتا بأربعينجنيه ، ماهية واحددرجة تالتة ، وكمانبتزعقيلى ، انت فاهمانى بتاع سمك ، أنا راجل قائد ومشهور وعندى عساكر ، طيب ودينى أضربك بالرصاص ، فاهمة أضربك بالرصاص يعنى ايه ••

وكان فتحى يهددها دائما بضرب الرصاص ، وكان يعيرها بمجده ومركزه والمبالغ التى انفقها عليها ، ولم تكن رتيبة ترد ، كانت تكتفى بالبكاء !!

وكان فتحى عقب كل خناقة حامية بينه وبين رتيبة يفـــر هاربا من العش الى غرزة داخل المدينة يدفن فيهـــا أحزانه ، وكانت رتيبة عندئذ تغلق على نفسها الباب وتبكى فى مرارة ، ثم تكف فجأة عن البكاء ·· وتنام !!

وذات صباح عدت الى عش النسر والغيظ يأكل قلبى ، فقـد ظللت أدور ساعات حول فندق بالاس أحملق فى النافـذة التى طالما شهدت أيامى السعيدة مع مدام ريتا ، ولم يكن باستطاعتى أن أقترب من الفندق ، وقد تحول الى مركز قيـادة للانجليز فى المدينة ، ودخلت محلا قريبا من الفندق وطلبت مدام‌ريتا فى التليفون ، وردجندى انجليزى‌يتكلم بصوت‌مسرسع كأنه عرسة تصرخ فى الليل :

- القيادة العامة ، من تريد ؟
- مدام ريتا ··
- من ؟
- مدام ريتا
- لايوجد أحد بهذا الاسم ··
- مدام اكسهام ··
- من الذى يطلب مدام اكسهام ؟
- أنا ·· أنا حلمى
- هيلمان ·· !؟
- حلمى ··
- انتظر لحظة

وانتظرت لحظات ، ولاحظت أن التليفون يرتعـش فى يدى ، وقلبى راح يدق بعنف ، وصدرى يعلو ويهبط ، وقطرات عرق باردة تنبع من جبينى ، هل ترد مدام ريتا ؟ هل ياترى لاتزال تذكر هذا الاسم ؟

- حلمى ؟ من هو حلمى هذا ياكوبرال ؟
- لا أعرف ياسيدتى ·· كل ماأعرفه ان اسمه حلمى ، وانه يريد محادثة مدام اكسهام ··

● أنا لا أذكر أحدا بهذا الاســـم ·· حلمى ، اســم غريب ياكوبرال ؟

● سأتصرف يامدام ··

تصورت الحديث بين ريتا والجندى الانجليزىعلى هذا النحو، فليس من المعقول ن ترد المدام على شخصى الضعيف وتعتذر عن ·· ظروفها السيئة ·· التى جعلتها تتزوج من قائد الانجليزثم تضرب لى موعدا فى الخلاء بعيدا عن العيون !!

وارتفع صوت الجندى الانجليزى فى التليفون ··

● هالو مستر حلمى ··

● هالو ··

● من أى مكان تتصل بنا فى التليفون ؟

● من مكان بعيد ··

● من أى مكان بالضبط ؟

● ولكن لماذا تسأل ياكوبرال ··

● أذكر رقم تليفونك الذى تتحدث منه · وانتظر دقائق ، ستتصل بك المدام

● هه ، رقم تليفونى عشرين ··

● نعم ، عشرين ، ماذا ، ماذا · ماذا

واغلقت سماعة التليفون ، وصوت الجندى يردد فى جنون ،

نعم ، ماذا ، ماذا ، ماذا · مستر حلمى ، مستر حلمى ··

ورحت أجرى بعيدا عن المحل ، ان مدام ريتا لاتريد ان تتصل بى انها تريد ان تقبض على ، تريد ان تنتقم من لحظات الضعف التى بدت فيها أمامى ·· تريدان تسترد الثمن الذى دفعته لى فى الايام الحوالى ·· ورحت اعدو بسرعة الى عش النسر والغيـــظ يأكل قلبى ، وشىء يجثم على صدرى ويكتم انفاسى ·

لقد زال الآن آخر خاطر كان يداعب نفسى فى انه ربما احبتنى مدام ريتا وربما اشتهتنى كرجل ولم يعد ثمة شك فى الحقيقة البشعة الرهيبة وهى اننى اصبحت ·· حبيب ·· مدام ريتا عن طريق الارهاب ، لقد هددت بنشر اخبارها فأحبتنى ·· يالهامن

وكسة عريضة ، لم اكن اذن خيرا من حمزة بك عبد المقصود ولا احمد بك العيسوى ولا طاقم البكوات الذين كانوا يلتفون حولها كل مساء ، لقد دفعوا ثمن ريتا من اموالهم ، ودفعت الثمن أنا الاخر ولكن بوسيلة بدائية ، لقد تمت الصفقة عن طريق المقايضة انا اشتريت جمالها ، وهى اشترت قلبى !

وعندما اقتربت من عش النسر راعنى ماحدث حول العش من تغيير ، كان العساكر فى ملابس الميدان يحفرون الخنادق ويقيمون المتاريس ، وينصبون المدافع الرشاشة فى كل اتجاه ، وداخل العش كانت صناديق الذخيرة مكدسة فى الاركان ، وفتحى بملابس الصاغ يشرف على كل شىء ، وهو جالس على مقعد وظهره الى البحيرة ، وعيناه الصغيرتان الغشاشتان تتحركان فى قلق بالغ ولا تستقران على أى اتجاه !

وعندما جلست بجانب فتحى لم ينظر نحوى ولم يتكلم ، كأنه لم يرنى ولم يحس بوجودى على الاطلاق ، وعندما سألته عن سر هذه الاستعدادات قال دون أن ينظر نحوى :

ـ الحرب عاوزة كده ..

وصحيح ان الحرب عاوزة كده ولكن لماذا الآن بالذات ؟ والحرب قائمة فى القناة منذ أكثر من ثلاثة شهور ؟

وقال فتحى بدير وكأنه يرد على خواطرى ..

ـ حمودة خرج م المستشفى، عاوز ياخد الكتيبة ، بعدما نظمتها ودربتها . وبقالها موارد ثابتة عاوز ياكلها ع البارد ، أنا أو حمودة فى القتال .

ـ مين اللى قالك ..

ـ حمزة بك ..

ـ وايه رأى حمزة بك

ـ حمزة بك مش موافق على حمودة .. حمودة جاهل مش على مستوى المعركة . المعركة عاوزة مخ كبير ..

ـ وناوى تعمل ايه ؟

ـ أحارب

ـ تخارب مين ؟
ـ اللى يهوب ناحيتى ، أنا قاعد كافى خيرى شرى ، لا بحارب حد ولا عاوز حد يحاربنى ، انما أى حد يهوب ناحيتى يبقى نهاره أزرق .

والحق أن خبر خروج حمودة من المستشفى قد وقع على قلب فتحى كالصاعقة ، فها هو الآن وبعد أن استقر وأصبح يربح كل شهر عشرة أضعاف الدرجة الثالثة ، يخرج له حمودة يطالب بحقه ، وحمودة ليس من طرازفتحى ، انه يعنى كل حرف ينطق به ، خصوصا اذا كانت المسائل المتنـــازع عليها تتعلق بالمعاش .

ولهذا السبب فزع فتحى بدير الذى لم يعرف الشجاعه قط وعلى الفور قام بتطهير الكتيبة ممن أسماهم .. الطابور الخامس .. والذين يشك فتحى فى انهم على صلة ما بحمودة ، وكان على رأس هؤلاء ، رتيبة زوجته !

وكان حمودة الذى هرب من المستشفى رغم تحذير الاطباء قد لجأ الى منزل فى قلب المدينة وقام باتصالات سريعة مع حمزة بك عبد المقصود ، ثم أرسل الى فتحى يطلب اليه الحضور للتفاهـم ولكن فتحى رفض العرض ، وأصدر الامر لرجاله بالاستعداد للقتال ، وعندما علم حمودة بالامر ، ، ذهب ليقابل حمزة بك ، واستقبله حمزة وهو يتأهب للنوم وبعد أن استمع الى قضيته فى برود ناوله عشرة جنيهات معتذرا لعدم وجود مبالغ أخرى معـه فى الوقت الحاضر وقال حمودة وهو يتناول المبلغ من حمزة بك:

ـ أنا عاوز سلاح . أنا مش ممكن أسكت ..

ووعده حمزة بك خيرا ، وعندما أصر حمـودة على اسـتلام السلاح فى أقرب وقت ممكن ، قال له حمزة بك وهو يودعه عند الباب ..

ـ يوم الخميس انشاء الله ..

وكل مادار بين حمزة بك وحمودة نقله حمزة بك بعد ساعات الى فتحى بدير ، وطلب اليه أن يستعد لمواجهة حمودة ، وهو

الذى ردد على مسامعه أن حمودة لا يصلح للمعركة لانه جاهل وأن المعركة فى حاجة الى مخ كبير ، نفس الكلمات التى رددها فتحى كالببغاء وهو جالس معى على شاطىء البحيرة يشرف على حفر الخنادق واقامة الاستحكامات لمواجهة حمودة ..

وقال فتحى وقد اعتدل فى جلسته فأصبح فى مواجهتى تماما :

ـ حمودة مش بتاع حرب ، حمودة بتاع نسوان ، العش ده كان مليان نسوان طول الليل ، أنا حاجة تانية غير حمودة أنا راجل بتاع شغل !

وقلت لفتحى مازحا :

ـ مش بتاع نسوان ازاى ، آمال رتيبة ..

وكأننى بهذه الكلمات التى لا أقصد من ورائها شيئا قد طعنت قلب فتحى بنصل حاد ، فراح يتكلم بعصبية وجسمه كله يرتعش ، ثم انفجر فجأة فى البكاء .

ـ أنا مش بتاع حاجات زى دى ياحلمى ، الحمد لله جت من عند ربنا .. أنا أنفجر تحت رجلى لغم فى سيدى برانى ، كنت باشتغل مع الجيش الانجليزى ، اللغم ضيعنى ، ضيعنى عارف ضيعنى يعنى ايه ..

وخفض فتحى عينيه بأصابعه النحيلة وراح يبكى فى حرقة شديدة ..

وتركت فتحى يبكى كما يحلو له البكاء ، كانت مأساته أكبر من كلمات المجاملة الجوفاء التى تقال فى مثل هذا المقام ، وكان يبذل مجهودا شديد العنف كى لا يرتفع بكاؤه ، فقد كان رغم كل شىء يحاول دائما أن يحتفظ بمظهر القائد أمام الرجال ..

وعندما كف فتحى عن البكاء وساد الصمت ، دخل أحد الرجال علينا وتوقف أمامى ، وضرب تعظيم سلام وقال موجها الحديث لى :

ـ فيه واحدة ست بره عاوزاك اسمها فوزية ..

الفصل الثامن عشر

حين دخلت فوزية علينا عش النسر كان منظرها رهيبا يدعو الى الدهشة ، والفستان الذى رأيتها فيه أول مرة يبدومتمسخا مكرمشا ، كأنها لم تخلعه منـــذ أيام ، ولونه الذى كان أزرق استحال الى أصفر باهت فىأكثر المواضع وعيناها كانتا وارمتين محمرتين كأنها قضت الاسبوع الذى فات تبكى بلا انقطـاع ، وعندما أصبحت أمامنا نظرت الينا ساهمة ثم جلست فى صمت وعندما سألتها عن الاحوال لم ترد ، وعندما سألتها عما بهـــا لاذت بالصمت وآثرت أن أتركهـا بعض الوقت حتى تهـــدأ ، وحاولت أن أطلب لها شيئا تأكله فرفضت ، وعندما جلســـنا ثلاثتنا صامتين ووجوهنا نحو البحيرة والصمت الثقيـــل يخيم علينا لا يعكر صفوه الا وقع أقدام العساكر الذين يقطعون الفناء حولنا ، مال على فتحى بدير وهمس فى أذنى وهو يغمز بعينيــه غمزة ذات معنى ويومىء بحركة سريعة نحو فوزية ..

ـ الجو ده بتاعك ..

وعندما نظرت اليه باحتقار شديد قال وقد ارتسمت عـــلى شفتيه ابتسامة باهتة :

ـ تحب أسيبكو أنا وأمشى ٠٠
ولم أعن حتى بالرد عليه ، وجلست صامتا أنظر نحو فوزية بقلق بالغ ٠٠ ما الذى جرى لها هذه البنت الحلوة ، والتى كانت يوم أن التقيت بها أول مرة تشبه زهرة يانعة متفتحة للحياة ، ما الذى حدث لها فكسر خاطرها على هذا النحو وامتص رحيق الحياة منها فاصبحت كمصاصة قصب لم تجف بعد ؟ ٠٠ أى شىء يمكن أن يحدث لهافيعتصر شبابها بهذا الشكل الرهيب ، ويحولها الى حطام يكاد لا يقوى على الحركة ولا يقوى على السكون ؟ أية مصيبة كبرى وقعت لها جعلت نظراتها تتبدد على هذا النحو كأنها نظرات أبله لا يرغب ولا يقلق ولا يتمنى ولا يحلم بشىء ٠٠

كان المساء قد حل بصورة كئيبة والبحيرة الواسعة الممتدة لم يعد يبين منها شىء ، والحشرات النشيطة على شاطىء البحيرة راحت تصرخ فى فزع مخيف ، وصرخاتها تتجاوب وتتشابك وتتصاعد حولنا فى ايقاع رتيب ، ونظرت نحو فوزية وكان رأسها قد مال على صدرها وقلت أسألها دون أن أقصد من وراء سؤالى شيئا الا أن أدفعها دفعا الى الكلام ٠٠ أى كلام :

ـ ازى حسين ؟

وعندئذ انفجرت فوزية بالبكاء ، وبكت فوزية بحرقة وهى تتشنج وأنفاسها تتحشرج وأصابع يدها تتقلص فى حركات هستيرية كأنها تبكى على رأس ميت عزيز ، وضاعت كل محاولاتى ومحاولات فتحى بدير فى تهدئة فوزية ومنعها من البكاء ، وجاءت رتيبة مسرعة على بكاء فوزية ، ووقفت حائرة أول الامر لا تدرى ماذا تفعل ثم انحنت عليها وضمتها نحوها وراحت تغريها بالسكوت بكلمات معسولة ساذجة ، وعندما فشلت هى الاخرى فى مهمتها كانت تنصحنا ٠٠

ـ خلو البنية تعيط على كيفها ٠ ٠ العياط ده شفا بينضف القلب ٠٠ يمكن الراجل بتاعها مغلبها ٠٠ مسود عيشتها ٠

ثم راحت تربت على ظهر فوزية فى حنان بالغ وتقول فى صوت يشبه الغناء :

ـ عيطى يا أختى عيطى ... اغسلى قلبك يا أختى ..
ثم توقفت عن ذلك وجلست خلف فوزية واضعة رأسها بين راحتيها تصوب نظرات نارية بين الحين والحين نحو فتحي ، الذى كان يجلس مستندا بظهره على جدار العشة وساقاه ممدودتان على الارض كأنهما عيدان قصب دب فيها السوس !
وفجأة ، دب صوت رتيبة فى صوت كالبكاء :
ـ ياعينى ع الولايا .. ياخيبة الولايا .. يا وكسة الولايا ..
ثم انفجرت هى الاخرى فى البكاء ..
واذ كان المفروض أن يكون بكاء رتيبة مجاملة لفوزية فقد كان من المفروض أيضا أن يكون أقل حدة وأقل حرارة ولكن الذى حدث فعلا كان العكس ، فقد راحت تبكى فى حدة أثارت عطفنا جميعا ، حتى فوزية مسحت دموعها واستدارت نحوها تربت عليها وتحضنها .. وكانت رتيبة كلما توسلتاليهافوزية أن تكف عن البكاء نظرت اليها بعينيها الوارمتين ، وقالت فى صوت منغم :
ـ عبطى يا حبيبتى ..
ثم راحت تغنى أغنية غريبة .. قالو ايه اللى يداوى الخيبة ، قالوا العياط يا رتيبة !!
ونهرها فتحى بشدة ، وقال وهو يزفر من الغيظ ..
ـ انت ايه اللى مقعدك لحد الوقت هنا ، انت طابور خامس
ولم ترد رتيبة ، واستمرت فى البكاء والنواح ..
وعندئذ نهض فتحى ثائرا غاضبا وسب الدين والدنيا وغادر العشة الى الخارج ، واذ اختفى فتحى من العشة نهضت رتيبة هى الاخرى وقد زايلها غضبها فجأة ، وتوقفت دموعها على الفور وبقيت مع فوزية وحدنا ، حتى العساكر الذين كانوا يحرسون العشة من الخارج تركوا أماكنهم بعد خروج فتحى الى حيث لا أدرى ..
وراحت فوزية تحكى لى فى هدوء تفاصيل ما حدث منذ أن غادرت مقر الكتيبة فى « أبو سلطان » منذ أيام مع حسين وعلى

جبران ضابط مباحث الاسماعيلية ، وكان الذى حدث أغرب من الخيال ، أن حسين لم يعد أبدا بعد ذلك ، عندما مددت يدى أصافح حسين وهو داخل السيارة السوداء على باب المحافظة تحركت السيارة بهما فورا ليس الى « أبو سلطان » كما كان المفروض ولكن الى القاهرة .. لقد أبعدوه الى العاصمة ومنعوه من العودة ووضعوه هناك تحت رقابة البوليس ..

ولم يعلم أحد فى الكتيبة حقيقة ما حدث الا فى صباح اليوم التالى ، ففى الظلام وتباشير الفجر تلوح من خلف الشاطىء الآخر للبحيرة أحاطت قوات هائلة من البوليس مقر الكتيبة وهب رجال حسين يدافعون عن أنفسهم بالحسنى بادىء الأمر ، ثم باطلاق النار بعد ذلك ، ولكن المعركة لم تستمر طويلا ، ودخل رجال المباحث وعلى رأسهم على جبران ، وفتشوا كل مكان ، واستولوا على كل شىء ، وصادروا كل الأسلحة وكل كميات الذخيرة ، وساقوا الجميع الى نقطة بوليس الحدود فى الصحراء ، وتولى العساكر الهجانة أمر اقناع أفراد الكتيبة بالعدول عن الحرب ، والعودة من حيث أتوا !!

وقالت فوزية وهى تفتح عينها بصعوبة

ـ كلنا شكينا فيك ، افتكرناك جاسوس للمباحث ..

وقلت مستنكرا والغضب يهزنى هزا ..

ـ أنا !؟

ـ فى الاول افتكرناك كده ، وبعدين عرفنا انك مظلوم ..

ـ مين اللى اتهمنى الاول ؟

ـ مش دا المهم ياحلمى .. المهم اللى حصل ..

ـ وايه اللى حصل ؟

ـ كان بياخدونا واحد واحد بره النقطة ، ويحاولوا بالكلام يقنعوه اذا مانفعش الكلام ، يبدأ الضرب ..

قلت مندهشا ؟

ـ ضرب !!؟

وردت فوزية ببساطة ..
- ياريتضرب بس ، دا حرق بالسجاير ، ودفن فى الرمال ، ومشى على الشوك ، ولزق على القفا ، وتجريد م الملابس ..
وعضت على شفتها بقسوة ، وقالت وهى تحدق فى السقف :
- تصور كانوا بيقلعوهم ملط ..
- وبعدين ؟!
- أكترهم اقتنع ، اللى اقتنع سابوه ورحلوا كل واحد على بلده ..
- وفيه حد هناك لسه ؟
- أيوه ، فيه تلاته ، منهم الدكتور العجوز ..
- والراجل العجوز ده استحمل دا كله ..
- وقالت وهى تبتسم فى استهزاء ..
- دا الوحيد اللى استحمل ، تصور كان بيقول كلمة واحدة أثناء التعذيب .. ياناس دا ابنى مات ، ابنى مات ، ابنى مات.
- وانت !!؟

ولاذت فوزية بالصمت وجمدت كأنها قطعة حجر لا رمش يرتعش ، ولا عصب يختلج ، ثم مدت أصابعها وقالت فى ثبات :
- هات سيجارة ..

وسألتها وأنا أناولها السيجارة ..
- بتشربى سجاير دلوقت ؟
وقالت فوزية وهى تهز رأسها فى اغراء :
- ليه لأ .. حرام ؟!

ورحت أرقب فوزية وهى تدخن فى لذة وفى نهم شديد ! لشد ما تغيرت الصغيرة المسكينة فوزية ! فوزية التى تجلس أمامى الآن فوزية أخرى غير التى عرفتها منذ أسابيع ، فوزية الأخرى ماتت ، تلك التى كانت تتعلم فى المدارس ، وتحارب

فى كتيبةحسين ·· وهنافوزية أخرى ،امرأةأنضجتها نارالاحداث التى اكتوت بها ، امرأة تنزف دما من الجراح التى أثخنتهـا . امرأة تدخن السجاير بطريقة لم أر امرأة أخرى تدخـن مثلهـا الا بعد منتصف الليل تحت أعمدة النور فى شوارع القاهرة !

وعندما قذفت فوزية ببقايا السيجارة بعيدا ، طلبت سيجارة أخرى ، وسيجارة ثالثة ، وظلت تدخن دون انقطاع حتىمنتصف الليل ، وقلت وأنا أشعل لها السيجارة الأخيرة فى علبتى :

ـ أنا لازم أفهم ، أنا هاكتب كل الى حصل فى الجرنال !!

وضحكت فوزية ضحكة طرقع صداها فى الجو ، ضـحكة امرأة عاشت حياتهافى البارات وعلى أرصفة الشوارع ··ضحكة ممثلة ناشئة فى حفلة تضـم عددا من المنتجين !! وقالت فى استهزاء شديد :

ـ ابقى اكتب عنى كمان ·· والنبى تاخد صورتى !!

وغاظتنى ضحكتها وقلت فى تحد وبلهجة صارمة :

ـ يعنى قصدك ايه ، باكدب عليكى ؟

وقالت بنفس اللهجة الساخرة :

ـ لأ العفو ، هاتكدب ليه ، الكتابة ماهى كتير ·· بس الرك ع القراية ··

وضحكت مرة أخرى نفس الضحكة ·· وعندما لم تجـد سجاير فى العلبة استأذنت منى لتَنام !

ولم يكن فى عش النسر مكان لتنام فيه فوزية ، وأنا أعـرف أنها من الاسماعيلية وأن بيتها فى الطرف الآخـر من المدينة ، ولكن عندما عرضت عليها خدماتى لتوضيلها الى منزلها ، قالت وهى ترعش حاجبيها :

ـ مالناش بيت هنا · أهلى هاجروا خافوا م الحرب ··

ثم قالت فى بساطة :

ـ أنا هنام هنا ··

ولم يكن فى عش النسر سوى حجرة المكتب التى أنام فيها ،

وحجرة النوم التى ينام فيها فتحى ورتيبة ، وعندما شرحت لها المسألة ، قالت ببساطة :

ـ أنام معاك فى المكتب ..

ولم تزد فوزية حرفا ، نهضت من مكانها ، واتجهت خلفى الى حجرة المكتب ثم دخلت باطمئنان كأنها تعرف كل شبر فى الداخل ، واغلقت عليها الباب ، وعدت وحدى الى العشة ..

وجلست أفكر فيما سوف أكتبه للجريدة غدا . لابد أن أكتب مقالا من نار عما حدث .. سيكون العنوان جريمة فى القنال . لا .. هذا العنوان لايكفى .. مؤامرة كبرى أحسن ، ويلفت النظر ويثير ثائرة القراء ، ويرفع توزيع الجريدة عشرة آلاف نسخة ، ربما عشرين ألف نسخة ، سيقول مدير التوزيع لرئيس التحرير ، لقد رفع مقال حلمى التوزيع عشرين ألف نسخة وسينصح بأن أستمر فى الكتابة .. وقد يستدعينى سيد بك حسنين رئيس التحرير ويكلفنى بكتابة سلسلة مقالات بعنوان « المؤامرة » سيصبح اسمى على كل لسان ، سيصبح مرتبى ١٠٠ جنيه فى الشهر ، سيكون عندى سيارة . لقد اشترى أحمد سرى سيارة وسكن على شاطئ النيل بعد أن كتب سلسلة مقالات عن الرشوة والفساد ، ومحمد رمضان اشترى عزبة فى شارع الهرم بعد حملته الناجحة ضد الاقطاع ، لتكن حملتى هذه المرة ضد التعذيب الذى حدث للفدائيين فى القنال ، ليكن عنوانها « المؤامرة الكبرى » انها فرصة طيبة والصحفى الجيد هو الذى ينتهز الفرصة ..

وطلبت من جندى كان يتسكع فى الفناء مصباحا لاكتب على ضوئه .. وانحنيت على الورق طول الليل أكتب الحلقة الاولى من سلسلة « المؤامرة الكبرى » وعندما انتهيت سلمت الرسالة للعسكرى ليرسلها بالبريد الى القاهرة وقمت مترنحا الى الحجرة ، وعندما أغلقت الباب خلفى كانت فوزية تنام على الارض

فى قميص النوم وكتفاها عاريتان ، والقميص شالح الى أعلى وقد بان فخذاها ، وتحاشيت النظر اليها وأدرت لها ظهرى وأنا أخلع قميصى استعدادا للنوم . وعندما ألقيت نفسى على الفراش لم أستطع أن أمنع خاطرا سافلا طاف بنفسى ، فهأنذا مع فوزية فى حجرة مغلقة ، وهى نصف عارية طريحة الارض كأنها دعوة مفتوحة .

وتقلبت فى فراشى وقد تعمدت ذلك لأختلس نظرة الى فوزية ، وعندما وقع بصرى على فخذيها كاد قلبى يتوقف عن الدق .. فقد رأيت ويالهول ما رأيت ، أفخاذ فوزية الممتلئة وقد تحول لونها الى لون روب دى شامبر صارخ الالوان .. خطوط حمراء وزرقاء وسمراء هى لون جلدها الاصيل ، وكلها فى خطوط متساوية ومنتظمة كأنها مرسومة بريشة فنان ...

والجلد نفسه منتفخ . ومتقيح ومقشور ، وقد تكرمش كفستانها الكحلى الرخيص . ولم تكن الافخاذ وحدها هى التى أصابها هذا التحويل الرهيب . أكتافها العارية أيضا كانت على نفس الشكل ، ويبدو أن جسمها كله قدأصابه نفس المصير . ونهضت من فراشى متسللا ، ورحت أخطو على أطراف أصابعى ، وانحنيت على فوزية وكشفت قميصها وقد استبدت بى رغبة مجنونة فى أن أرى كل شىء . ولكنها شعرت بيدى وهى تكشف فستانها .. فنهضت مذعورة ، وانكمشت فى ركن الحجرة كأنها قطة تتحفز ، وراحت تغطى نفسها وتحكم الغطاء .. وقالت وهى تنظر نحوى شزرا :

ــ عاوز ايه ؟

وأشرت بأصبعى الى أكتافها العارية وقلت والدهشة تسحقنى :

ــ ايه ده ؟

وكأنما تبينت قصدى .. فهدأت ، وقالت وهى تنفرد فى جلستها ؟

ـ مفيش حاجة ·· دا ناموس ··
ـ ناموس ؟!
ـ آه ·· قوم نام ·· أنا عاوزه أنام ··
ـ تنامى ازاى ·· لازم تحكيلى ··
ـ والنبى أنا دماغى مش فاضـــية للحكايات ، بكره أبقى أحكيلك ··

ثم دمعت عيناها رغما عنها ، ورفعت يدها فمسحت دموعها بكفها ، وعندئذ رأيت كفها بوضوح ، ولم أكن عندما رأيتهـــا أول مرة فى العشة قد اكتشفت بها شيئا غير عادى ، فقد كان الظلام يخيم على كل شىء ·· كان كفها محروقا ، واللحم يختلط بعضه ببعض مشوها كأنه كف هيكل عظمى فى مشرحة القصر العينى !!

ورفضت فوزية أن تحكى شيئا رغم كل المحاولات ، وعندئذ نهضت من مكانى وألقيت بنفسى على الفراش ··

ولم أســـتطع النوم رغم كل المحاولات التى بذلتهـــا · ولم تشفع لى الوسادة التى وضـــعتها فوق دماغى ولا ذراعى التى أخفيت بها عينى ، ولا الفوطة التى لففت بها دماغى ·· كان فى رأسى سرطان ينبح وناقوس يدق ، ما الذى ارتكبته هـــذه المسكينة حتى تنال كل هذا العذاب ، لقد رغبت فى حـــرب الانجليز فما الذى حدث ؟ وهل يمكن أن يتعذب الانسان من أجل شىء مثل هـــذا ؟ ومن الذى عذبها ؟ مواطنون مثلهـــا ! الانجليز يحتلون أرضهم ، وينتهكون أعراضهم ! والذى أشرف على التعذيب أجهزة تتبع حكومتنا ولا تتبع حكومة الانجليز !! والحكومة هى التى ألغت المعاهدة ، وهى التى أمرت باطلاق النار عليهم ، فلما هب الناس يطلقون النار على الانجليز هب رجـــال المباحث يقطعون أوصالهم هكذا ؟ ولحساب أى جهة يشتغل رجال المباحث ؟ لحكومة القاهرة ؟ أم الانجليز ؟ أم ماذا ؟ وسلســـلة المؤامرة الكبرى التى كتبتها ؟ هل تجدى الكتابة فى موقف مثل

هذا ؟ هل تستطيع أن تواجه السجون والكى بالنار وتكسير العظام ، واللزق على القفا ، وخلع الملابس والاظافر بالقلم ؟ فى موقف مثل هذا لا يمكن مواجهة الامر الا بالسلاح !!

وسلسلة « المؤامرة الكبرى » ! .. ماأحقر مافعلت ، وماأحقر ماقدمت للمعركة حتى الآن ، وماذا قدمت أنا ؟ أنفاس الحشيش على شاطىء البحيرة ، والليالى الحمراء مع مدام ريتا ومقالات المؤامرة الكبرى ؟! وهدفى الخبيث من ورائها ، أشترى سيارة .. وأسكن على النيل ؟!

وهذا الضوء اللعين يزعجنى . هذا الضوء يكشفنى ، أنه يعرينى حتى من العظام ، واذا كان جلد فوزية مشوها فنفسى أنا مشوهة ، نفسى مزدانة بنفس الخطوط الحمراء والصفراء والسمراء ، وضميرى الذى مات فى داخلى وتعفن .. أكاد أشم رائحته الآن . رائحة خبيثة ملعونة تملأ نفسى ولا تفوح فى أرجاء المكان .

ونهضت من مكانى منزعجا وأطفأت النور ، وهبت فوزية على الفور صارخة كأنها فأر أصابته ضربة قبقاب :

ــ ولع النور ...

أضأت المصباح من جديد .. وبدا وجه فوزية فى النور الشاحب وقد ارتسم عليه الذعر بصورة ليس لها نظير ، وقالت وهى ترتجف :

ــ النور يفضل والع ، أنا ماحبش النوم فى الضلمة ...

ولم أرد ، وألقيت نفسى على الفراش من جديد ...

استيقظت عند الظهر ، ولم تكن فوزية مكانها على الارض والجو كان بديعا وقد أشرقت الشمس ، والسحب الثقيلة اندفعت مع الرياح فى اتجاه البحر ، والبحيرة بدت ساكنة خلابة ، كالعهد بها دائما . وعندما دخلت العشة وجدت فتحى بدير نائما وعيناه مفتوحتان ، وفوزية جلست فى ركن العشة مع رتيبة تخيطان بعض الثياب وعندما رآنى فتحى نهض واثبا على قدميه ، وقال وهو يمسك بيدى :

ـ عرفت ..

ـ عرفت ايه ؟

ـ حمودة مسكوه ..

ـ مين اللى مسكه ؟

ـ الانجليز ..

ـ أمتى ؟ ..

ـ النهارده الصبح ، كان فى بيت حمـــزة بك ، وهو خارج مسكوه ..

وقال فتحى ومســـحة حزن زائفـة على وجهـه الشـديد الغضون :

ـ مسكين ..

ـ طيب ونسأل عليه ازاى ..

ـ تسأل عليه مين ؟ احنا مالنا ، الله يرحمه !

ـ الله يرحمه ازاى ! هوه مات ..

وقال فتحى وهو يجلـس على الارض ويمد ساقيه فى ارتخاء لذيذ :

ـ هوه اللى بيقع فى ايد الانجليز بيطلع تانى ، ألف رحمة عليه، كان لسه شباب !!

كأن لم يكن فى حمودة شىء يجلب له الرحمة ، ويدعو للأسف عليه الا شبابه ، كان لسه شباب ، والانجليز أخذوه ، الى أين، احنا مالنا ، حكمة فتحى بدير قائد كتيبـــة وحوش الجبـال ! وتهاويت على الارض ، وأسندت ظهرى للعشة ، ومددت ساقى الى جوار فتحى بدير !

الفصل التاسع عشر

وتوالت الضربات بعد ذلك • وفى كل يوم سيل من الاحداث يهز المنطقة حتى أعماقها • ويحرك أشد النفوس بلادة الى التفكير • وخلال تلك الايام لم يكن عندى ماأفعله . حتى رسائلى الى الجريدة لم أعد أكتبها . فما جدوى ضياع الوقت فى تسويد صفحات لن تجد طريقها الى النشر ! سلسلة مقالات « المؤامرة الكبرى » لم تنشر ، حتى حادث اختطاف حسين ونفيه الى القاهرة لم تشر اليه الصحف •• كانت صورة حموده فى الصفحات الاولى ، وكلها تتحدث عن البطل والفدائى والمحارب الذى دوخ الانجليز ، والذى كان يطلق عليه الانجليز اسم النحس•• ! وبعض الصحف أيضا أكدت انه سليل أسرة مات أغلب أفرادها فى ثورة عرابى! الى هذا الحد تضيع الحقيقة ويكذب الناس ؟ هه كويسة !! لقد كنت أكذب أنا ، أنا الذى صنعت أكذوبة حمودة، أنا الذى جعلت حمودة بطلا فى المدينة • ومن عجب ، أن الناس فى المنطقة كلها يعرفون حقيقة حمودة • ولكن الاثر الذى تركه فى نفوسهم حادث القبض عليه كان رهيبا ولا حد له •• ان الكذبة قد انطلت حتى على الذين كانوا يجالسون حمودة طول الليل وطول النهار !

حتى فتحى بدير !!

نعم حتى فتحى بدير أصر على أن حموده قد استشهد

ـ دا كان مدوخ الانجليز ياعم ، دا واد غول فى الحرب ،وحياة دى النعمة كان بياكل الانجليز صاحية •

ليس هذا فقط بل أصر على أن يقيم له ماتما ، وأقام سرادقا

أمام العش ، ووقف جنوده يستقبلون الناس ويتقبلون التعازى وجاء بمقرىء مشهور من القاهرة ، ووقف وسط السرادق يوزع السجاير على المعزين ، ويختال بين صفوفهم فى ردائه العسكرى المزيف ويحييهم بيده هاتفا بصوته المسلوخ بين الحين والحين .

- شكر الله سعيكم ..

وفى آخر الليل جلس الى جوارى داخل العش ، وراح يدخن فى صمت ، ثم قال وهو يتأهب للنوم :

- أنا عندى فكرة كويسة قوى ..

- ايه ... !

- عاوزأعمل تمثال لحمودة فى ميدان المحطة ..

ثم توقف عن الحديث وراح يسعل بشدة ، وعندما تخلص من سعاله قال وهو ينظر فى عينى :

- بس مش عارف يمسك ايه فى ايده سيف ، والا مسدس .

وقلت له وأنا أهرش فى ذقنى النابتة :

- ابقى خليه يمسك جوزة ..

ولكنه لم يستجب لهذا المزاح ، وسرعان ما غادر المكان ودخل حجرته لينام !!

ولا أدرى السبب الذى جعل فتحى بدير يتصور ان حمودة مات ! صحيح أن بعض الناس تناقلوا اشاعة موته ، وبعضهم ذهب الى أنه رأى بعينى رأسه حموده وهو مصلوب على جذع شجرة وفرقة كاملة من جنود الانجليز تصوب مدافعها نحوه ، ثم اطلقت النار عليه فمات .. وبعضهم كان يضيف نهاية مسرحية لقصةموت حمودة ، وكيف أنه هتف والرصاص منطلق فى قلبه .. يسقط الانجليز !! ..

وانتشرت هذه الحكايات فى الغرز المنتشرة على شاطىء البحيرة ، وفى حلقة السمك . ولكنها لم تكن أكثر من مجرد حكايات يؤلفها بعض السذج الذينانبهروا بقصة حمودة كما روتها لهم الصحف ..

ورغم ان أحدا من الناس فى المدينة لم يكن يستطيع أنيحدد المصير الذى انتهى اليه حمودة ، الا أن الحقيقة الوحيدة المتعلقة

بهذا المصير هي أن حمودة قد أصبح بطلا عند الناس • وسواء قتله الانجليز أو لم يقتلوه • ففى المقاهى الفقيرة الرخيصة المنتشرة حول المعسكرات وفى قرى القناة ، كان المغنى الشعبى يؤلف ويروى مواويل عن عظمة حموده وبأسه ونلبه الذى فى قـوة أسود الغاب ، ولكن مع هذه الشائعات والحكايات ومع الاكاذيب عن نهاية حمودة فى غرز البحيرة ، ومع الاغانى التى تروى عن حمودة فى مقاهى القرى البعيدة فى أعماق الصـحراء ، كانت الالسنة تثرثر بأن رجلا واحدا فقط هو الذى يعرف مصـير حمودة ، وأنه هو الذى سلم حمودة للانجليز !!

ولما كان اصبع الاتهام يشير الى حمزة بك عبد المقصود ، فقد بادر الى نفى الشبهة عن نفسه ، فكتب مقالا نشرته جميـع الصحف عن البطل حمودة ، ثم هاجم الانجليز بشدة ، واختتم المقال بعبارة نارية « ولما كان دم حمـودة لا يمكن ان يذهب عبثا ، فان الانتقام الوحيد لروح حمودة هو تطهـير البلاد من هؤلاء الخنازير ! »

وعندما التقيت بحمزة بك بعد ذلك فى قصره المنيف عـلى حافة الصحراء قال بأسف شديد :

ـ الله يرحمه ، كان واد ابن موت من يومه ••

وعندما سألته فجأة :

ـ هوه مات ؟

اضطرب بشدة ، ثم قال وهو يحاول جاهدا أن يبدو طبيعيا :

ـ أبدا اشاعات ، زى مابنسمع ••

ثم حكى لى ما حدث يوم القبض على حمودة ، وكيف استيقظ فى الصباح الباكر ، وجمع الاسلحة فى الصالة الكبيرة وجلس ينتظر حمودة حتى وصل « يادوب شال السـلاح ، وخد منى ميعاد تانى عشان ياخد فلوس ، وخرج من هنـا ، وهمه نزلوا عليه من هنا •• وعندما وصل حمزة بك الى هذا الحد عض على شفته بشدة وقال وقد تقطب جبينه وازداد وجهه احمرارا » :

ـ مسكين ، خطفوه ••

ولكن كيف عرف الانجليز أن حمودة سيكون فى بيت حمزة

بك هذه اللحظة وكيف تصادف حادث القبض عليه لحظة خروجه من البيت ومعه السلاح ؟ اسئلة وجيهة طرحتها على حمزة بك ، فأجاب وهو شديد الحزن :

ـ الانجليز فى كل حته ، والواحد مابقاش يضمن أخوه !!

وساد الصمت بيننا لحظات ثم قال وهو ينهض من مكانه

ـ وحشتنا يابو الرجالة ..

وغاب فى الداخل فترة ، ثم عاد ومعه زجاجة ويسكى ومجموعة من علب السجاير الفاخرة وجردل صغير فى لون الحمر ، وضعها كلها على المائدة الصغيرة التى تتوسطنا ، ثم راح ينقل الى الداخل أطباقا كثيرة لم أستطع حصرها ، وعندما ضاقت بها المائدة راح يرصها فوق الارض ، ثم جلس يلتقط أنفاسه بصعوبة وقد بدا عليه الاجهاد ، ثم قال وهو يتمطى فى كسل لذيذ :

ـ الدنيا كلها شقا ..

وعندما بدأنا نشرب سألته فى حذر شديد عن ريتا . ولكنه انتفض فجأة غاضبا كأنما أهين حتى النخاع ! وقال وهو يضرب المائدة بقبضة يده بقوة أطارت الاطباق وقفزت بزجاجة الويسكى بعيدا عن السجادة ..

ـ انتو بتوع صحافة ازاى ، انتو مابتكتبوش عن الخونة ليه ؟ هيه دى مش خيانة ؟ واحدة مصرية ، جنسية مصرية ؟ تتجوز واحد انجليزى ؟ وبعدين تقوالى صحافة ! طظ ، طظ .

وراح يردد كلمة طظ ، حتى عندما نهض وأحضر الزجاجة ، ووضع المرطبات مكانها ، ثم شرب كأسا على عجل . ومص شفتيه من اللذة ، واضطجع فى مقعده مسترخيا ، ثم قال فى هدوء :

ـ لامؤاخذة ياحلمى الواحد أصله مش على بعضه ، معلهش .

وزفر بشدة ثم راح يعب الكئوس فى سرعة عجيبة ، ولم تمض نصف ساعة حتى كانت الزجاجة قد اختفت كلها فى جوفه ، وبدا أنه فقد توازنه تماما ، وعندما حاول النهوض مرة أخرى ليحضر زجاجة جديدة ، أصطدمت ساقه بالمائدة فقلبتها ، وانحنى على الارض يجمع الاطباق والكئوس ، وعندما فشل

فى ذلك عاد الى مقعده مجهدا منزوف الانفاس ينظر نحوى بعينين ذابلتين محمرتين مجهدتين ٠٠ وقد انعكست على زجاجهما حقيقة نفسه المهزومة المرتجفة وقال حمزة بك وهو يضع ساقه على طرف المائدة المقلوبة :

ـ خلاص الدنيا انتهت ياحلمى ، أنا عندى خمسة وأربعين سنة دلوقت ، فاضل خمستاشر كمان ونتوكل على الله ٠ الدنيا خسرت ، الدنيا باظت يابنى ، انت لسه صغير ، الدنيا كانت زمان ٠٠

وزفر زفرة حـــارة ، وراح يردد فى صـــوت خافت كلمته الاخيرة ، الدنيا كانت زمان ٠٠

كان صوته يرتعش برنة أسف بالغ ٠ كان شديد الاسى فعلا عميق الحزن ، والخوف يسيطر عليه تماما ، الخوف من كل شىء مما يحيط به الآن ، ومما يخبئه القدر فى المستقبل ٠٠

وفجأة ندت عنه صرخة هادئة ولكن عميقة ، وقال وهـــو يفرك أصابعه بعصبية شديدة :

ـ كل شىء راح ياحلمى ٠٠ الشغل واقف والحمد لله ، كـــل شىء واقف ، كل شىء خراب ٠٠

ثم راح يحمد الله بطريقة ساخرة ، ويقبل يده ظهرا وبطنا ، وينظر تارة نحوى ، وتارة أخرى الى السقف ، كأنه يتجـــه بدعائه الى الله ! ثم قال وقد ضم ســـاقيه وراح يخبط كفـــا بكف :

ـ حتى ريتا اتجوزت انجليزى !! انت ماتعرفش أنا عملت ايه للبنت دى ٠٠ دى كانت زى بنتى ، عارف زى بنتى يعنى ايه ؟ وأخرة دا كله الناس بتقول أنا اللى سلمت حمودة ، طيب زى بعضه أنا صرفت على حمودة دم قلبى ، الكتايب اللى هنـــا عايشة على قفايا ، يقولوا اللى يقولوه ، ياريت واحد مجنـــون يضربنى برصاصة واستريح ، والله العظيم استريح ، انت فاهم ايه ، يعنى غاندى مش ضربوه بالرصاص ومات ، هكـــون أنا أحسن من غاندى ٠٠

ثم ارتفع صوته وتحشرج ، وانتفخت عروق رقبته بشكل فظيع وقال فى صوت كالصراخ :

ـ والله العظيم أستريح ، أستريح ، أنا خلاص شبعت م الدنيا ، كسبت ملايين الجنيهات ، صرفت ملايين الجنيهات شفت الدنيا كلها ، أنا كنت راجل بمعنى الكلمة ، كنت غول ، رئيس الوزارة كان يتمنى يقعد معايا خمس دقائق . دلوقت ماتعرفش تكلم الحافى . كل واحد ماسك مدفع وبيحكم ، الحرب ياسيدى .

ثم ضحك ضحكة هازئة وقال وقد عاوده هدوءه :

ـ حتى ريتا اتجوزت انجليزى . طيب أقولك خبر يعمل هزة ، ريتا هربت مليون جنيه بره ، اللى هربها القائد الانجليزى ، صفت أعمالها كلها .. هتسافر معاه على بره .. تقدر تكتب دى ؟ ..

وعندما أومأت له برأسى راح يحدق فى عينى ، ثم قال بهدوء شديد :

ـ بس انت عاوز الجد ، هيه معذورة .. الزيطة اللى احنا عاملينها دى خلت الناس تهرب ، هتعمل ايه ، لو فيه هدوء فى مصر كان كل الناس قعدت ، وفلوسها اشتغلت والناس كسبت وبقت عال ، يافرحتى بالوطنية ..

وقهقه فى سخرية قبل أن يقول :

ـ الناس تاكل وطنية ، ياكلوا كفاح ، يكلوا كتايب ، طيب لو الانجليز مشيت من هنا ، بينى وبينك يعنى ، العمال اللى عندهم هيعملوا ايه ، يروحوا فين ؟ عندنا ميزانية تشغلهم ، بذمتك عندنا ..

ثم خبطنى على فخذى بشدة وقال وهو يضغط على عظامى :

ـ السياسة مش جعجعة .. السياسة فن تضرب وتلاقى ، والفلاحين بيقولوا شغل بولوتيكا .. بولوتيكا يا أستاذ ..

ثم رفع الزجاجة الفارغة الى فمه ، وقال وهو يضحك ضحكة غريبة :

ـ اشرب يا أستاذ اشرب ..

واذ اكتشف انها فارغة ، نهض من جديد يترنح ، وعاد ومعه زجاجة جديدة وراح يشرب وحده وبلا انقطاع ، ثم سألنى فى

هدوء وهو يمتص الكأس الأخيرة :

ــ الواد حسين فين دلوقت ..

ــ فى مصر ..

ولم يرد ، اكتفى بأن مط شفتيه ، ثم ارتمى الى الخلف وأغمض عينيه وراح يرعش ساقيه فى عصبية شديدة ، وفجأة فتح عينيه ودعكهما جيدا وبشدة . ثم قال وهو يتفرسنى باهتمام :

ــ الواد فتحى بدير ايه رأيك فيه ؟

ولم ينتظر حتى يسمع اجابتى ، قال على الفور :

ــ أنا حاخليه يعمل عمل كبير قوى ، أنا هاديله فرصة ذهبية ..

ثم ربت على فخذى بحنان ، وقال فى شبه توسل :

ــ والنبى تخليه يوصل لحد عندى أنا عاوزه ضرورى ، ضرورى ، فاهم ضرورى يعنى ايه ..

وعندئذ استأذنت من حمزة بك فى الذهاب ، فقال وقد عاد اليه مرحه :

ــ رايح على فين يابو الرجالة ، ريتا ومع الراجل الانجليزى ، واللا فيه حاجة جديدة ؟ ..

وعندما هززت رأسى بالنفى ، مد يده .. فصافحنى فى موده .. وقبل أن أغادر مكانى للخارج . رن جرس التليفون فجأة ورفع حمزه بك سماعة التليفون وقال فى مرح شديد :

ــ أهلا زكى بك .. فين ياراجل .. ما تيجى شوية .. عندى الأستاذ حلمى .. انت عارفه طبعا . آه طيب أنا منتظرك :

وعندما عاد الى قال وهو يشد على يدى مودعا :

ــ دا زكى بك مراد ، راجل جد قوى وسياسى كبير كمان ، مخ مظبوط ، وحقانى ، ولا بيعبر حكومة ولا غيره اللى فى دماغه ينفذه وبس ..

وغادرت قصر حمزة بك فى الليل الى عش النسر ، وحرصت على أن أمر على فندق بالاس ، ورحت أتلفت الى النوافذ المغلقة والستائر المسدلة خلفها ، لعل ريتا الآن خلف احداها بين

ذراعى قائد الانجليز اكسهام ، وعندما بدا شبح جندى انجليزى عند الباب أسرعت الخطى فى طريقى الى شاطىء البحيرة • وكان كل شىء لحظة أن وصلت الى العش ساكنا هادئا ولا أحــد فى الفناء ، فتحى مع رتيبة فى حجرتهما ، وفوزية فى حجرة المكتب تنام على الأرض ، والجنـود وقد انتهت حالــة الطوارىء التى أعلنها فتحى عندما خرج حمــودة من المستشفى ، ينامون فى الفناء وقد ارتفع شخيرهم ، والبحيرة على امتداد البصر لا يبين منها شىء ، والسماء هى الاخرى اختفت خلف السحاب الداكن الذى راح يتحرك ببطء نحو الشاطىء الآخر للبحيرة ، وانتابنى شعور عميق بالقلق وأنا جالس وحــدى أحدق فى الظــلام ، وأرهف السمع لزحف الحشرات الصغيرة على عشــب الفناء ، يبدو أن كل شىء راح كما قال حمزة بك ، حسين فى القاهــرة ولا أدرى مصيره ، وحموده خطفه الانجليز وريتا مع اكســهام فى فندق بالاس ، وحمزة يســكر فى قصره المنيف عــلى حافــة الصحراء وزكى بك مراد يجلس فى مواجهته يستمع الى فلسفته فى شغف ، وهو يدخن أفخر أنواع السجاير ، ويصب أفخــر أنواع الخمور ، وفتحى بدير يغـط فى نوم غميــق مع رتيبة ، وفوزية على الارض فى حجرة المكتب نصف عارية ، نصـــف مسلوخة ، ومقالات المؤامرة الكبرى تنام مطمئنة فى ســـلة المهملات ، وغدا ســـتشرق شمس اليوم الرابع والعشرين من يناير ، والبرد يشتد بصورة لم تحدث من قبل ، والمســـتقبل يبدو مثل السماء ملبدا بالغيوم الثقيلة ••

وفجأة . انفتح باب المكتب ، وخرجت فوزية تتثاءب وتهرش فى ظهرها ، وقد تهدل قميص نومهــا عن كتفها وصــدرها ، وأقبلت نحو العشة تتحسس طريقها فى الظلام ، وعندما رأتنى شهقت من الفزع ، وقالت بصوت مرتجف :

ـ مين ••

ـ حلمى ••

وعندئذ دخلت العشة ، وارتمت على الارض ، وقلت لها وأنا

أمد يدى نحوها أتحسس يدها فى الظلام :
ـ الدنيا برد ، البسى حاجة تقيلة ..
وردت دون أن تحرك ساكنا :
ـ أنا مش بردانة .. بالعكس ، أنا سخنة ..
وقالت وهى تتلعبط على كومة من القش :
ـ انت بقيت شاعر والا ايه ..
وعندما سألتها عن السبب الذى جعلها تتخيل أننى شاعر قالت وهى تقترب منى :
ـ أمال قاعد لوحدك ليه ؟
ـ زهقان ..
وقالت بتهكم :
ـ الله يكون فى عونك ، وزهقان من ايه بقى ؟
ـ من نفسى ..
وعندئذ نهضت فوزية فجأة ، والتصقت بى ، وقالت وهى تقرصنى فى يدى :
ـ زهقان واللا زعلان ..
ـ وهازعل من ايه ؟
ـ عشان ريتا ..

ريتا ؟ هل تعرف فوزية حكايتى مع ريتا ؟ هل حكى لها فتحى بدير أم رتيبة ؟
وقلت وأنا أتصنع الهدوء :
ـ أنا مازعلش من واحدة سافلة ..

وسألتنى ساخرة :
ـ وريتا سافلة ؟!
ـ جدا ..

ـ من امتى ؟ من يوم ماتجوزت الراجل الانجليزى ؟
لم أكن فى حالة نفسية تسمح لى بمناقشة فوزية حول هذا

الموضوع الى اكثر من هذا الحد ، فقلت أسألها محاولا تغيير دفة الحديث الى وجهة أخرى :

ـ .. انت ازيك دلوقت ؟ ..

ـ عال . معاك سيجارة ..

وناولتها سيجارة ، وأشعلتها لها ، وأشعلت لنفسى سيجارة أخرى ورحنا ندخن معا فى صمت ..

وقفزت فى ذهنى صورة فوزية اذ التقيت بها أول مرة ، وعندما كنا نجلس معا على شاطىء البحيرة فى « أبو جاموس » ننتظر عودة الرفاص ، هذه هى فوزية نفسها التى اشتهيتها يوما ، تجلس الى جوارى فى الليل نصف عارية تدخن بشراهة ولا يتحرك فى نفسى نحوها الا شعور مبهم ، خليط من الرثاء والشفقة ، لشد ماتغيرت أنا خلال تلك الفترة القصيرة العريضة التى عشتها فى القنال ، لقد شبت فى داخلى ، أصبحت الآن كهلا فى الثالثة والعشرين ، شىء ما فى داخلى اهتز وتحطم واشتعل شيبا ، شىء مالا أدريه ، ولا أستطيع أن أحدد موضعه !

ولسعنى البرد بشدة فانتفضت ، وقالت فوزية وقد لسعها البرد هى الأخرى :

ـ قوم ننام جوه ..

ونهضت معها الى الداخل ، وأضأت المصباح ، وتمددت بملابسى بعيدا فى ركن الحجرة ، ولكن صوت فوزية ارتفع من خلفى ينادينى :

ـ تعالى جنبى هنا ..

ونهضت من مكانى وزحفت على ركبتى وجلست الى جوارها أتطلع اليها فى وجوم ، وشدتنى من يدى وقالت وهى تجذبنى نحوها بشدة :

ـ نام هنا ..

ـ مش جايلى نوم ..

ـ نام جنبى ونتكلم ..

وأطعت فوزية دون مقاومة ، تمددت علـــى الارض بجوارها وعيناى فى عينيها ، وصدرها البارز يضرب فى صدرى ، وكتفها العارية المشوهة تكاد تمتد كاصبع طـــويل وتخرق عينى ٠٠ وقالت وهى تقرصنى فى أذنى :

ــ انت بتفكر فى ريتا لبسه ؟

وهززت رأسى بالنفى ، ولم أتكلم ، وقالت وهى تنظر نجوى فى أسى شديد :

ــ أنا مشوهة مش كده ؟ ٠٠

وهززت رأسى بالنفى مرة أخرى ٠٠ ولم أتكلم ، وعندئذ هبت من رقدتها وجلست مستندة على الأرض براحة يدها المشـــوهة وقالت فى ثورة عنيفة :

ــ أمال مابتغازلنيش ليه زى زمان ، مش انت حلمى اللى كنت ماتنهبل على ٠٠

ونظرت اليها فى اشفاق وقلت فى هدوء :

ــ أنا اتغيرت يافوزية ، أنا حلمى جديد ٠٠

وقهقهت ليس فى سخرية ، وليس فى استهزاء ، ولكن فى غضب شديد !! وقالت وهى تتوثب كالنمرة المفترسة :

ــ انت ماتغيرتش ، أنا اللى اتغيرت ، انت حلمى بتاع زمان ، انما أنا فوزية تانيه ٠٠ فوزية مشوهة ٠٠ مش كده !! ٠٠

كان صوتها قد بدا يعلو ، فنهضت محاولا تهدئتها ، وقلت لها وأنا أربت على خدها فى حنان :

ــ بالعكس ، انت أحلى م الأول ٠٠

وقالت بنفس الثورة :

ــ كذب ٠٠ انت كـــذاب ، كلكو كذابين ٠٠ طيب اذا كنت صادق ، أدينى قدامك أهو ، فوزية بتاع زمان ، مش كده ؟ ٠٠

ووثبت واقفة على قدميها ثائرة كالبركان وفى أقل من لحظة ، فى أقـــل من لمحـة ، خلعت قميص نومهـــا وألقت به بعيدا ،

واستدرت بسرعة ووجهى نحو الحائط ، مسكينة فوزية ، لقد جنت فجأة ·· ولكن ثورتها لم تقف عند حد ، كان جرحها عميقا ينزف بلا انقطاع ! فقالت تصرخ من خلفى :

ـ مش عاوز تشوف التشويه ، مش كده ، أطفيلك النور ··

ثم انقضت على المصباح وأخمدت أنفاسه ، وساد الظلام والسكون فجأة ، ولكنها لم تتوقف عن الحركة ، كان صوت أقدامها وهى تزحف على الارض ينبىء أنها تقطع الفراغ البسيط فى الحجرة جيئة وذهابا كأنها وحش فى قفص ، ثم سكن كل شىء ، وشعرت بيدها تتحسس عنقى من الخلف ، وقالت وهى تجذبنى من قفاى :

ـ ماتيجى جنبى ، ماتخافش ، مش هاتشوف حاجة ، انت مش كنت عاوز فوزية أهه ، ايه رأيك ؟

وقلت وأنا أقبض على يديها بشدة :

ـ بالعكس ، أنا كنت عاوزك ، وعاوزك على طول ، انت مسكينة يا فوزية ، أعصابك تعبانة ، الله يكون فى عونك ·

ورنت ضحكتها المستهزئة وقالت :

ـ الله يكون فى عونى ؟! عندك حق ، مانا باشحت ، حقك تقوللى ربنا يحنن عليكى ·· معاك قرش فكه تدهولى ··

وقلت وأنا أضحك ضحكة خفيفة ، ويداى تقبضان على يديها :

ـ تعرفى لو كنتى بتكتبى يافوزية ، كنتى بقيتى أكبر كاتبة ساخرة فى بلدنا ··

وردت وهى تقترب منى ، وأنفاسها تلفح وجهى

ـ ساخرة !! كويسة قوى !!

ثم تخلصت من قبضتى ، وضغطت بأصابعها على عنقى . والصقت شفتيها بشفتى ، كأنها تقوم بتمثيل لقطة قبلة فى الاستديو · وعندئذ لاحظت الشىء الذى لم ألحظه أبدا ، كانت رائحة الخمر تفوح من فمها ، كانت فوزية ثملة ، وكان واضحا

أنها عبت كميـــات ضخمة من الخمـر الرخيص أفقدتها وعيها ، ودفعتها بعيدا عنى بقسوة ، وقلت غاضبا :

ـ انت سكرانة يافوزية ..

وردت بلا مبالاة :

ـ سكرانة ، أبدا ، أنا مش سكرانة ، أنا .. هيمانة ..

ونهضت من مكانى وأشعلت عود ثقاب واتجهت نحو المصباح ، ولكنها زحفت على الأرض وتشبثت بقدمى فى اصرار ، وقالت وهى تصرخ :

ـ لأ . ماتولعش النور ، خلينا فى الضلمة عشان ماتقرفش .

وقلت وأنا أخلص قدمى من يديها :

ـ عيب يافوزية ، أنا مش عاوز أشوف حاجة ، ولا بقرفش من حاجة .. انت بنت كويسة وعظيمة وبطله .. وعيب بقى .

وضحكت وتركت قدمى تفلت من بين أصابعها ، وقالت وهى لاتزال تضحك :

ـ أنا بنت كويسه ، بالعكس ياأمحترم ..

وفجأة أجهشت فى البكاء ، وزحفت حتى وصلت الى حيث قميصها على الارض ، وكرمشته بين أصابعها ، وعضت عليه ..

أنا مش بنت .. ثم انت هتكون أقل من مين ؟ ما الهجـانه عملوها ، انت أحسن م الهجانه ، أنت أظرف ، مش كده ..

عندما غمر النور الحجرة ، كانت فوزية على الأرض تكادتكون عارية تماما ، وعندما رفعت عينيها نحوى كانت تبكى ، الدموع تبلل عينيها وتنحدر على خديها ، فى قســـوة ، وانخرطت فى البكاء ..

وتركتها تبكى واندفعت خارجا من الحجرة الى الفناء ، وكان الفجر قد حل بصورة مفاجئة ، والجو أصبح أكثر برودة . والعساكر فى أماكنهم يحلمون أحلاما سعيدة ، وباب فتحى مغلق عليه ، وبكاء فوزية لم ينقطع ، وتمنيت لو القيت بنفسى على العشـب المبلل بالندى ونمت ، ووقفت حائرا لاأدرى ماذا أفعل ، وأنقذنى من حيرتى صوت عربة فارهة توقفت فجأة أمام العش ، ونزل

منها حمزة بك عبد المقصود ، وراح يصرخ بصوت عال يدعو فتحى بدير الى الخروج ..

واستقبلنى حمزة والدهشة تغمره ، فلم يكن يتوقع وجودى فى مثل هذا الوقت ، ولا فى مثل هذا المكان ؟ .. وقال لى وهو يلهث كأنه جاء الى العش جريا على الأقدام ..

ـ الانجليز قدموا انذار نهائى ، راح ينسفوا المحافظة بكره ، نسف يا أستاذ ، فتحى فين ؟ ..

ـ ازاى هينسفوها ..

ـ طالبين م البوليس يسلم سلاحه أو ينسفوا المحافظة ، الحكومة بتاعتنا عاوزه تحارب ، تحارب بايه ، دى دبابات شيرمان يا أستاذ ، فتحى فين ..

ولم يرد حمزة بك على أسئلتى الكثيرة ، اندفع الى الباب المغلق ، وراح يدق عليه بشدة ، وصوته يصرخ فى انفعال شديد يدعو فتحى بدير ..

الفصل العشرون

كان فتحى بدير الذى لم يقاتل فى حياته أبدا ، يقف على رأس رجاله بملابسه العسكرية ، ومدفعه الرشاش فى يده ، والسيجارة لا تغادرشفتيه ، وعيناه الضيقتان الغشاشتان تنظران فى قلق بالغ الى الطريق ..

وعندما لمح فتحى بدير على البعد ، العربة الصغيرة السوداء التى كان ينتظرها منذ الصباح ، هتف وصوته يرتعش ،
ـ استعد !! ..

وعندما اقتربت العربة من جيش فتحى بدير ، كان الجميع فى وضع استعداد . وتحركت الاصابع بسرعة ، وانطلق الرصاص يخترق العربة فتنحرف الى اليمين ثم الى الشمال ثم تنقلب فى الرمال !!

ورغم النار والدخان والصرخات التى انبعثت من هيكـــل السيارة ومن داخلها فان الرصاص لم يكف لحظة ، ولم يتقدم رجال فتحى بدير خطوة الى الأمام الاعندما تأكدوا تماما أن ركاب العربة قد ماتوا جميعا ، وان أصابعهم لم تعد تقوى على تحريك الزناد ! ولم يكن فى العربة السوداء الصغيرة التى يرفرف على مقدمتها علم بريطانى صغير ســوى ثلاثة رجال ، الســـائق وجاويش بريطانى يحمل مدفعا رشاشا ، وضابط برتبة كابتن ، وامرأة شقراء كالقمر ، شعرها أحمر فى لون الشاى ، وبعـد لحظات كان رجال فتحى يلوذون بالفرار عبر الصحراء الى عش النسر ، وقد حملوا معهم كل ما استطاعوا خطفــه من الغنائم ، مدفع الجاويش ، ومسدس الكابتن ، وغطاء رأس السائق ، فقد رأى فتحى أنه أكثر أناقة من الغطاء الذى يستعمله ، وأنـــه يصلح لمعـارك الصحراء والحقـــول ، بلونه الأصـــفر المائل الى الاخضرار ! ..

وكانت ريتا التى لقيت مصرعها قبل غروب الشمـــس على الطريق المهجور الممتد بين المدينة ومعسكر الانجليز ، قد استيقظت مبكرة وأشرفت على اعداد حقائبها لتغادر الفندق الى المعسكر ، وبعد أيام تغادر المعسكر والاسماعيلية كلها الى قبرص ، فهكذا رأى زوجها القائد اكسهام « لان أمورا خطيرة سوف تحدث خلال الايام القادمة » !!

وكان حمزة بك عبد المقصود يعلم نبأ سفرها ، ولعله الرجل الوحيد من غير الانجليز الذى كان يعلم هذا الخبر ، ولهذا السبب أسرع فجر الامس الى عش النسر واجتمع بفتحى بدير قائد كتيبة وحوش الجبال ، ولانه لم يكن يعرف بالضبط الوقت الذى حددته ريتا لرحلتها الى المعسكر فقد أوصى فتحى بالانتظار على الطريق منذ الصباح الباكر حتى تغيب الشمس ، وكانت الصفقة مغرية

بالنسبة لفتحي ، فها هي الفرصةقدسنحت له ، ليخوض معركة
٠٠ النصر فيها مضمون مائةفى المائة ، سيقاتل فتحي بدير على رأس
عشرين رجلا سيارةأوستن سوداء بهاثلاثةرجال وامرأةمسلحون
بمدفع رشاش ومسدس سريع الطلقـات ، وكان الثمن شـيكا
وقعه حمزة بك بألف جنيه على بنك باركليز فى المدينة ٠٠

ورغم الشيك الذى دسه فتحي بدير فى جيبه ، ورغم الفرصة
التى سنحت له ليخوض معركة واحدة فى حياته ٠٠ فقـد كان
هناك سبب آخر دفع فتحي بدير الى خوض المعركة ، سبب له
صلة بريتا نفسها ، ريتا الأنثى ، وليست ريتا الخـائنة زوجـة
القائد البريطانى فى المدينة !

لقد كان فتحي بدير يحب ريتـا ، وكان يتمنى أن تكـون له
ولو ليلة واحـدة ، ولكنه فشـل دائما فى لفت نظـر ريتا اليه،
وظل الحب بينهما من طرف واحد ، ولعل ذلك هو السبب الوحيد
الذى جعل فتحي يكره حمزة بك ويحتقره ٠ لم يكن يكره حمزة
بك الرأسمالى الاقطاعى محترف السياسـة ، بل لعله كان فى
أعماقه يحبه ويحترمه ، ويعجب بجدعنته وفهلوته التى يسرت
كل السـبل أمامه ، وفتحت له طريق الثراء والمجـد والنفـوذ
وهو الذى بدأ حياته فقيرا مغمورا مثل فتحي بدير ! ولكنه كان
يكره حمزة بك الرجل ، كان يكره حمزة بك الذكر ، حمزة بك
الذى كان يحصل على أجمل النساء ٠٠ ويمتلك أرق النساء !

ولعل ذلك هو السر الحقيقى لكراهيةفتحي بدير لحمودة ،كان
حمودة جاهلا ، وكان فظا ، وكان جلفا ، ولكنه كان محظوظا مع
النساء !! حتى مدام ريتا كانت تحب حمـودة !! وفى المـرات
القليلة التى التقى فيها فتحي بدير وحمودة مع ريتا ، كان حديث
ريتا كله مع حمودة ، كانت نظراتها مصوبة نحو حمودة ،كانت
أسئلتها موجهة لحمودة ، كانت أجوبتها ردا على أسئلة حمودة ،

وكانت أحيانا تتكلم مع فتحي وتنظر نحوه ، ولكن هذا كان يحدث مصادفة ولمدة قصيرة !!

ولعل هذا هو السبب نفسه الذى جعل فتحى يخطف رتيبة من حمودة ، لم يكن فتحى يحب رتيبة ، ولكنه كان يكره حمودة، وكان فتحى بدير يريد أن يحقق انتصارا واحدا فى هذا الميدان ، ولم تكن رتيبة شهية ، ولم تكن جميلة ، ولم تكن فاضلة ، ولم تكن صعبة ، ولكنها امرأة على أية حال ..

وكان فتحى بدير يعلم حين خطف رتيبة ، أنه ليس كفوًا لها، انه رجل كامل الرجولة ، ولكنه ليس فحلا ، ليس فى قوة حمودة ولا فى صحة حمزة بك ، عشرات الامراض فتكت بأمعائه ومعدته ومسالكه البولية ، فصار حطاما ، يلهث لأقل مجهود ، وينقطع قلبه اذا زعق !

وكان فتحى بدير يدرك عقدة النقص فيه ، وكان يكذب دائما، كان يكذب على الرجال ، ولكن كيف يكذب فتحى بدير مع النساء، خصوصا اذا خاض معهن تجربة ! كان فتحى يردد قصة كاذبة قرأها مرة فى كتاب ، أو شاهدها على الشاشة ، هو نفسه لايدرى ، كذبة خلاصتها انه فقد رجولته فى معركة الصحراء الغربية عندما كان يقاتل فى صفوف الانجليز ضد جيش روميل .. وكيف ان لغما انفجر فيه فضيعه !

وكان الرجال الذين لاتربطهم بفتحى صلة صداقة قديمة يصدقون الكذبة ، وكان يفرح دائما كلما صدقه أحد ، بل كان يحس نحو هذا النوع من الناس بحب جارف عميق ، ولكن أصدقاء فتحى القدامى لم تنطل عليهم الكذبة أبدا ، ففتحى بدير لم يغادر الاسماعيلية زمن الحرب ، ولم يقاتل أحدا فى حياته .. ولم ينفجر فيه لغم ما . ولهذا السبب أيضا كان فتحى بدير

نزاعا دائما نحو التجديد ، نحو التغيير ، كان يغير أصدقاءه كما يغير حمزة بك بنطلوناته · كان يعيش فى كذبة ضخمة كبيرة ، وكان سعيدا بها غاية السعادة ، لولا هذه المرأة السليطة اللسان رتيبة !

وها هو الآن يحس فى نفسه هدوءا صافيا ، فقد انتقم، حمودة مات ، قتله الانجليز ، وريتا ماتت ، قتلها هو ، صوب نحوها مدفعه حتى بعد أن ماتت ، مزق برصاصاته بطنها ، وشوه وجهها ، وشعرها الاحمر اشتعلت فيه النار وأكلته ، أصبحت ريتا الجميلة مجرد فحمة سوداء !!

وحمزة عبد المقصود !! هاهو شيك بامضائه بألف جنيه ، بداية مشروع ناجح كان يحلم به فتحى بدير منذ زمن بعيد · سيهجر هذا العش ، سيخلع هذه الملابس ، سيودع هذه الحياة التافهة الى الأبد ، سيدخل الميناء مقاولا للأنفار ، سيغزو حمزة عبد المقصود فى عقر داره ·· لقد بدأ حمزة بمبلغ أقل من هذا بكثير ، وهو فهلوى ويجيد عدة لغات ، وناعم كثعبان ،وله عشرة وجوه ، مؤهلات تفتح طريق المجد والثروة والنفوذ !·· ومن يدرى بعد عشرة أعوام ؟ سيصبح فتحى عضو مجلس النواب ، سيحترف السياسة ، سيكون له قصر على شاطىء البحيرة· ، ستكون له أجمل النساء وأرق النساء ·· وسيدق التليفون فى غرفة نومه بعد منتصف الليل ، سيكون المتحدث حمزة بك عبد المقصود ، سيرتفع صوته العجوز :

ـ هالو اكسلانس ، أنا كنت عاوز أقابل سعادتك ··

ويجيب فتحى وهو يتثاءب :

ـ مش قادر ياحمزة ·· تقدر تقابلنى بكره ··

لا بعد بكره ، بعد أسبوع ، بعد شهر ·· بعد عام ··

وغربت الشمس ، وأشعتها الباهتة التى تعانى الموت لاتزال خيوطها الواهنة تتشبث بالأفق ، وتعكس ضوءها الاحمر الدامى على مياه البحيرة ، وكان فتحى بدير الذى جاء الى العش واهنا منزوف الانفاس يجلس بكامل ملابسه العسكرية ومدفعه بين يديه على عشب الفناء ، شاخصا فى حزن شديد نحو الأفق ، حزنا لايدرى له سببا ، انه لم يقتل أحدا من قبل ، انه لم يضرب أحدا ، ليس من باب العطف أو الرحمة ·· ولكن من شدة الجبن ، لقد كان فتحى جبانا ، لم يكن له قلب حمودة الشجاع ، ولكنه هذه اللحظة قتل ، وأطلق النار على ريتا فمزق بطنها وصدرها ، ولكم تمنى فى أعماقه قبل أن يضغط على الزناد أن يقبلها ، أن يميل عليها ويحتضنها ، كانت جميلة حتى وهى ميتة ، كانت رائعة رغم الموت ، وشعرها الجميل كان ينسدل على كتفيها فى لون دمها الذى انبثق من قلب الجراح ، لكم كان يتمنى أن يفعل ذلك لولا الجيش الذى كان يحاصره ، ولولا خوفه من أن يصل الانجليز فجأة ·· ولو أن الانجليز عرفوا حقيقة الامر لما تركوه ، الانجليز كم عاشرهم ، وكم عرف طبائعهم المضحكة ، تقتل ألف جندى فلا يتحرك الانجليز ، ولكن أن تقتل زوجة القائد ، فهذه مسألة كرامة ، سيدخل الانجليز القاهرة فى سبيل القبض على فتحى ، وتعليقه من قدميه على شجرة جميز عتيقة على جانب الطريق . وقلبه الآن يدق بعنف ، والخوف يحتوى كيانه الضئيل لسبب لايدريه ، والمساء حل على الكون بصورة كئيبة ومخيفة ، لم يكن للظلام هذا اللون من قبل ، لم تكن له هذه الرهبة فى الايام الخالية ·· لو قبض عليه الانجليز الآن فسيعترف بالحقيقة ، سيقول كل شئ ، حمزة بك هو الذى حرضه ، هو الذى دفعه الى قتلها ، هو الذى دفع ثمن المعركة ألف جنيه بشيك على بنك باركليز ، لو

ان حموده حتى الآن لاستطاع أن يتصرف ، كان حمودة يستطيع أن يصنع المعجزات عند الخطر ، ولكنه عاجز تماما عن أن يفعل شيئا سوى الانتظار ٠٠ ولكن الانتظار هو عدوه الحقيقى ، الانتظار هو مصدر الخطر ، لو استطاع أن يهرب تحت جنح الظلام الليلة والى الابد !! فكرة لابأس بها ! ولكن كيف يهرب والشيك فى جيبه بألف جنيه لابد من سحبه على بنك باركليز فى المدينة ! سيسحبه غدا ، سيأخذ المبلغ ويبدأ حياة جديدة باسم جديد ، ولكن من يعلم ؟ لعل حمزة بك وشى به عند الانجليز ، وسيجد الانجليز غدا فى انتظاره عند البنك ، سيسلمه لهم كما سلم حمودة ، وسيصبح فتحى بديرشهيدا ، سيصبح أسطورة تتناقلها أفواه الحشاشين فى الغرز المنتشرة على شاطىء البحيرة !

وتوقف عقل فتحى عن السرحان عندما انطلقت فى الظلام صرخة من أحد رجاله :

ـ انجليز ٠٠ انجليز ٠٠

وعلى الفور انطلقت عدة رصاصات لايدرى فتحى من أى اتجاه ، وتجاوبت أصداؤها فى الناحية الاخرى من البحيرة ٠٠ وأدرك فتحى أن الانجليز قد وصلوا ٠٠ لابد أنهم عرفوا كل شىء ، سيدمرون العش الآن ، سيعلقونه من قدميه على جذع شجرة ، وبلا تردد ترك فتحى مدفعه على الارض واطمأن الى أن الشيك يرقد مكانه فى جيبه ، وانطلق يعدو فى الظلام على شاطىء البحيرة ، والطلقات تتبعه وتسبقه ٠٠ والصرخات التى تتعالى خلفه تخترق أذنيه ٠ وكان أثناء فراره يصطدم بالاشجار وأعمدة التلغراف ، ويسقط على وجهه وعلى ظهره ، ويتسلخ جلده ، وتتكسر عظامه ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن يعنيه ٠ كان كلما اصطدم أو انقلب يضرب يده فى جيبه يتحسس الشيك ، وعندما أصبح فتحى بعيدا تمهل قليلا يريد أن يلتقط أنفاسه ، ولكنه سرعان ما عدل

عن هذه الرغبة ، عندما ترامى الى أذنيه وقع أقدام تجرى بسرعة خلفه ، وراح يجرى حتى انقطع قلبه تماما ·· وعندئذ تمهل رغم أنفه ثم فوجىء بصوت من الخلف يدعوه ، واكتشف فتحى انهم رجال جيشه ، تركوا أسلحتهم فى العش وكل مايعـوق حـركتهم فى الفرار وانطلقوا خلف قائدهم ، ولم يكن كل رجال فتحى فى طابور السباق ·· كان بعضهم فقط ، والبعض الآخر فاجأه رصـاص الانجليز فمات ، وبعضهم وقع فى الأسر ··

وانطلق فتحى مع رجاله على شاطىء البحـيرة الى قـرية أبو جاموس ، وكانت أنوارها الخافتة تشع فوق الهضـبة وبيوتها الطين التى تنحدر من القمة الى السفح حتى الشاطىء تبدو فى الضوء الباهت وكأنما بعثرتها على التل يد عمـلاقة فى اهمال شديد · واستقبلتهم القرية استقبال الابطال ، وانفتحت البيوت فى الليل ، واشتعلت النار فى الافران تعد الطعام ، والشاى يغلى داخل أكواز الصفيح السوداء ، والتى كانت يوما ما علبا لأطعمة محفوظة يبيعها النافى لجنود الجيش ، وراحت العيون تحملق فى وجه فتحى ، بطل الابطال الذى مزق أحشاء زوجة قائد الانجليز ، والأيدى المرتعشة المعروقة تمتد اليه تصافحه وتشد على يده ، والوجوه تقترب منه تعانقه ، والصدور تنبض بقوة وهى تحتضنه ، ولأول مرة شعر فتحى بأهمية بالغة ، وشعر باطمئنان شديد ، وهو يرشف أكواب الشاى على مهل ، ويدخن السجائر فى لذة فائقة ، ولأول مرة تذكر فتحى أنه فى اللحظة التى أطلق فيها ساقيه مع الريح هاربا من عش النسر ، كان داخل العش امرأتان فوزية ورتيبة ، ومال فتحى على رجاله يهمس فى آذانهم يسأل عن مصير المرأتين ، ولكن أحدا لم يكن يعلم شيئا ، ولم يكن يعنيه أن يعرف شيئا عن مصيرهما ، لقد تركوا المرأتين خلفهم يواجهان مصيرهما المحتوم ، وانفرجت شفتا فتحى فى أسف مبالغ فيه :

ـ الله يرحمهم ، كلنا رايحين ، ماحدش راح يفضل ··

ورفع الناس الطيبون ، أهالى قرية أبو جاموس ·· أيديهم الى أعلى وقرأوا الفاتحة على روح الشهداء ، وكذلك فعل فتحى بدير وهو يتحسس بيده التى تشبه عود قصب مكسور ، الشيك الذى يرقد آمنا فى طيات ملابسه ··

وجلس فتحى يستمع فى اهتمام بالغ الى ماحدث بعد المعركة ·· الذى اكتشف الامر سيارة جيب بريطانية عبرت الطريق بعد الحادث بنصف ساعة ولم تلبث أن انطلقت الى المعسكرات ثم عادت وخلفها عربة مصفحة ، ولفيف من جنود المظلات ضربوا نطاقا حول المنطقة ،ولكن الخبر كان قد وصل الى المدينة ،وهرعت جماعات كثيرة من الناس الى مكان الحادث ، بعضهم دفعته الرغبة فى الفرجة ليس الا ، وبعضهم أثارته قصة ريتا ونهايتها !ولكن الانجليز حالوا بين الناس وبين الوصول الى السيارة المحترقة ، ولكن عندما جاء حمزة بك سمحوا له باختراق النطاق الذى ضربوه ، واقترب حمزة بك الى حيث كان يقف القائد اكسهام زوج ريتا ·· ولم يكن حمزة وحده ، كان معه شاب صغير راح يكتب أرقاما وحروفا على ورقة ، وعندئذ صاح فتحى يسأل الناس الذى يقصون عليه أنباء الحادث :

ـ الواد حلمى الصحافى ··

وعندما عجز الناس عن الاجابة ، قال وهو يطحن أسنانه:
ـ هوه مافيش كلام ، أهو الواد ده كان لازم يموت راخر ، دا كان عشيق ريتا ··

ثم جلس يستمع الى الرجال الذين شاهدوا الحادث فى وجوم· كيف اجتمع خلق كثيرون يحاولون اختراق النظام ليلقوا نظرة أخيرة على ريتا وهى ذابلة الوجه فانية مثل كل شىء فى الوجود· وضاعت جميع المحاولات التى بذلها الانجليز لتفريق الناس بالحسنى ، واخيرا أطلقوا النار فى الهواء ، وماجت صفوف الناس بعضهم ببعض وقد استبد بهم ذعر شديد ، دفع بهم ، ليس الى

الفرار كما توقع الانجليز ، ولكن الى اختراق الحصار ، الىالهجوم على عساكر الانجليز ! واستطاع بعضهم انتزاع المدافع من يد الجنود ، وتراجع الانجليز الى الخلف ، وأطلقوا النار على الجموع وسقط العشرات قتلى ، وتعالى الصراخ ، وجن بعض الجنود وألقوا بأنفسهم فى مياه الترعة ، واستخدم الناس كل ما استطاعوا استخدامه فى القتال ·· الاحجار ، والرمال ، والاظافر ، والاسنان واضطر الانجليز الى الانسحاب بقتلاهم ، وعشرات الجرحى يلعقون التراب ، وأصبحت الجموع التى جاءت من أنحاء شتى فى المدينة ، وبلا غاية تربطهم ، أصبحوا كتلة واحدة ، أصبحوا جيشا واحدا بلا قائد ، وتعاون الجميع وحملوا الجرحى على أكتافهم وجروابهم نحو المدينة ، وسحبوا القتلى الى عربات الكارو وسيارات النقل التى تصادف وجودها ، وراحوا يصرخون طول الطريق يطالبون بالسلاح ، والنساء تصرخ فى فزع شديد تطلب الثأر · وأقبلت جموعهم على المحافظة ·· هديرها يهز الجدران كالرعد ، وانضم الى المئات ألوف كانوا يجلسون على المقاهى ، وألوف كانوا فى البيوت ، وألوف كانت الحوارى والأزقة تخفيهم عن العيون وتضيق بهم ، ولم تلبث المدينة أن تحولت الى بحر ، والناس كالموج يرتطمون بعضهم ببعض ، ويتدافعون بالمناكب وبالأيدى ، ويسدون الطرق فى الليل ، يحطمون المصابيح لكى تصبح المدينة سوداء ، ترتدى الجدران والشوارع ثوب الحداد على الشهداء · وسرت همسات بين الجموع الثائرة الغاضبة ، التى ثارت فجأة ، والتى غضبت فجأة ، بعضهم لايدرى سببا لثورته ، ولا سببا لغضبه ولكنه ثائر وغاضب ، لان الجموع كلها ثائرة ، وكلها غاضبة ، سرى الهمس بين الجموع ·· أين حمزة بك ؟ أين نائب المدينة ؟ وقال بعض الذين شاهدوا المعركة من بدايتها لقد ذهب مع الانجليز ، انسحب معهم ، ليكون الى جانب جثة ريتا الى آخر لحظة · واندفعت الجماهير الى حافة الصحراء ، الى قصر حمزة بك ، كان القصر غارقا فى الظلام ، ولا أحد هناك ، واندفعت الناس خلال

النوافذ والابواب ، فحطموا كل شيء ، وداسوا على كل شيء ، ثم أشعلوا فيه النار ، وعندما ارتدت الجموع الى المحافظه كانت دبابات الانجليز قد نزلت الى المدينة ، دبابات ضخمة ، ومدافع ميدان ، لقد جاء الوقت لتنفيذ الانذار ، فاما أن يسلم عساكر البوليس أسلحتهم أو تقوم الحرب ، ولكن أية حرب هذه بين قوات المظلات بدبابات سنتريون ومدافع الميدان ، وألف جندى من بلوكات النظام وقفوا داخل الفناء بعصى مكسورة ، وبنادق تنطلق حينا ، ولاتنطلق أغلب الاحيان .

اندفعت الجماهير الغاضبة نحو الشارع الرئيسى تريد مواجهة الانجليز فى معركة فاصلة ، ضلت الجماهير التى تغلى بالغضب، فلم تستطع تقدير الموقف على أساس سليم ، وكيف تستطيع هذه الجماهير ، وهى بلا قائد ، الغضب هو قائدها الوحيد ، وهو دليلها الوحيد .. واستدارت المدافع نحو الجماهير وانطلقت فجأة، وفجأة أيضا تبعثر الموج الى كل اتجاه ، انطلقت تجرى فى فلول نحو الأزقة والحوارى ، واقتحموا البيوت ، وقفزوا على الاشجار كل يطلب النجاة ! ولم يكف الانجليز .. اصطادوهم من الخلف كالحمام .. اقتحموا البيوت خلفهم ، تعقبوهم الى الأزقة الى الحارات أغرقوا الارض بالدماء ، فرشوها بالجثث ، ثم عادوا الى المحافظة ينتظرون اللحظة التى حددوها للهجوم ؟

وقال فتحى بدير بعد أن انتهى الرجال من سرد الحوادث :

ـ وفاضل أد ايه ع الهجوم ؟

ـ ساعة

وقال فتحى بأسف شديد :

ـ ياخسارة ، مامعناش سلاح ، كنا رحنا نجدناهم ..

وهتف واحد من الرجال الذين كانوا فى الحلقة المضروبة حوله فتحى بدير :

ـ السلاح موجود عندنا ٠

ورد فتحى وهو يتصنع الفرحة الشديدة :

ـ الحمد لله هاتو السلاح ٠٠

ووقف فتحى خارج القرية يوزع السلاح على رجاله ٠٠ وعلى الآخرين الذين توسلوا الى فتحى أن يضمهم لجيشه الصـــغير ، ليخوضوا المعركة جنبا الى جنب ، ووقف الفلاحون حولهم يدعون لهم بالنصر ، وقال فتحى بدير وقد انتهى من توزيع السلاح :

ـ احنا رايحين نموت ، اللى عاوز ييجى معانا يتفضل ، واللى مش عايز يرجع من هنا ٠

وصمت لحظة لم يرتفع فيهاصوت ٠٠ كان يتمنى لو اعترضوا جميعا ، أو أحدهم على الاقل ٠٠ آن رحلته هذه تختلف كثيراعن رحلاته السابقة ٠٠ فد تكون رحلته الاخيرة ، ففى المدينـة حرب حقيقية لم يتعودها ولم يتعودها رجاله ! ولكن المصيبة انهليس وحده الآن ، وليس مع رجاله فقط ، أن معه آخرين ، وعليه أن يقاتل الآن ، عليه أن يدخل المعركة التى تحاشى دخولها طـول العمر !

ومضى طابور فتحى بدير مخترقا الصحراء ليدخل المدينة من الخلف ، وراح الرجال الذين تطوعوا مع فتحى والذين ساروافى بداية الطريق يحثون الخطى ليدخلوا المدينة قبل أن تبدأالمعركة ٠٠ وفتحى يمشى على يمين الطريق يفكر فى هذا الذى حدث له ! ٠ ما الذى أوقعه فى هذه الورطة ؟ لقد هرب من عش النسر ناجيا

بجلده ، ولكن ما أغرب هذا الهروب ، كان يهرب الى حتفه ، كان هاربا من الموت الى أحضان الموت ، والشـيك لايزال مكانه ٠ ٠ سيصبح هذا الشيك قصاصة ورق بعد موته ، ما أغرب الأقدار!

من عجب الحياة انها تمنحك ماتريد ، ولكن ليس فى الوقت المناسب لو انه حصل على الشيك منذ عام مثلا ، منذ عامين ، منذ عشرة أعوام ، لكان له اليوم شأن آخر ، ولكن هاهى الاقدار تضع الشيك بين يديه وهو يزحف نحو القبر ! الشيك هو منديل الوداع ، تلوح به الحياة وهو مسافر بلا عودة ٠

ولكن فتحى بدير الفهلوى لن يعدم وسيلة للنجاة ، لقد قضى حياته كلها يتحين الفرصة للحصول على هذا المبلـــغ ولن يدع الفرصة تفلت من بين يديه ٠٠ وستكون المعركة التى ستنشب عما قليل قاسية ومريرة ، ولن تدع فرصة التفكير لأحد ، ليرى من الذى ثبت ، ومن الذى ولى الادبار !

وتوقف الطابور عند أبواب المدينة والفجر ينفث خيوطه الاولى على الكون ٠٠ وبسرعة عجيبة وزع فتحى رجاله الى جماعات ، وألقى بأوامره ، أوامر مشوشة متناقضة ، فلم يكن لديه الوقت ولا الاعصاب ليدرك ماتتفوه به شفتاه ! واختار أحسن رجاله ، أحسنهم خضوعا وانقيادا ، ومضى معه الى داخل المدينة ٠

كانت المدينة هادئة ساكنة يخيم عليها شبح الموت ، والطرقات خالية تماما ، حتى الكلاب الضخمة المتشردة يبـــدو انها ولت الفرار نحو الصحراء الآمنة ، وفوانيس النور مكسورة وملتوية ، وشظايا زجاجها متناثر على الارض المظلمة ، يحدث رنينا كلما اصطدمت به الاقدام ، وتوقف فتحى عنـد حارة ، وأمر الرجـل الوحيد الذى معه أن يسلك طريقه وحده الى المحافظة على أن يلتقيا معا هناك ، وانحرف فتحى نحو الحارة واختفى فى الظلام !

***

كنت أقف مع ثلاثة رجال فى مكان منعزل بشـارع الثلاثينى نتحدث فى همس ، ونترقب نصب المدافع التى ستنطلق بعد قليل

عندما سقط شيء ثقيل على الارض أحدث دويا مزعجا بدد السكون الذى كان يحتوى كل شيء ، واندفعنا جميعا نحو مصدر الصوت ، وقد أبصرنا رغم الظلام شبحا يحاول أن يتوارى عن الانظار خلف حائط متهدم ، وعندما اقتربنا منه ، اكتشفت أنه فتحى بدير ، ولم يكن الشيء الثقيل الذى أحدث الصوت سوى مدفعه الرشاش سقط من يده المرتعشة عندما وقع بصره فجأة علينا وعندما اكتشف فتحى أننى مع الأشباح الأربعة التى تحركت نحوه ، قال بصوت مرتعش :

ـ صباح الخير ياحلمى .. انت عرفت اللى حصل ..

وعندما عرف أننى أعرف كل شيء ، قال بنفس الصوت المرتعش :

ـ رجالتى هتهجم ع الانجليز النهارده احنا من ورا والعساكر من قدام ، ربنا يسهل .

وعندما سألته عن مصير رتيبة وفوزية هز رأسه آسفا ، وقال وهو يهز مدفعه الرشاش .

ـ المعركة كانت قاسية قوى ، انسحبت فى الآخر ، ماقدرتش أعرف ايه اللى حصل ..

ثم استأذن منا ، وغاب فى الظلام !

أزفت الساعة التى حددها الانجليز للهجوم على المحافظة ، وضاعت كل المحاولات التى بذلوها مع اللواء زكى مراد ليقبل الشروط التى وضعوها للتسليم ، طلب الانجليز أن يسلم العساكر أسلحتهم ، ثم يقدموا أنفسهم كأسرى للانجليز ، ويخرج زكى مراد على رأس ضباطه وأيديهم مرفوعة فوق رءوسهم .. خالعين ملابسهم العسكرية لتنقلهم سيارات الجيش الانجليزى الى خارج

منطقة القناة ، ولم يكن لدى زكى مراد أدنى اعتراض على تسليم سلاح العساكر ، لم يكن لديه أدنى مانع على أسر جنود بلوكات النظام ، ولكن أن يخرج من المحافظة ، رافعا يديه الى أعلى فهـذا هو المستحيل ؟ أيعقل أن يحدث هذا ؟ زكى مراد الذى قضى حياته لا يتصور أرقى ولا أنبل من سترته العسكرية المحبوكة ، ونجومه اللامعة على كتفه ، زكى مراد بعد هذا العمر الطويل يخلع البدلة العسكرية تحت تهديد السلاح ، ويخرج رافعا يديه الى أعلى ، انه لم يقدس شيئا فى حياته الا الرتبة الاعلى ، ولكن سخرية الايام أن الرجل الذى يطلب منه هذا الطلب بريجادير ، رتبته أقل ٠٠ وحسب المنطق ينبغى على اكسهام أن يقف أمام زكى مراد ، ويدق الارض بكعب حذائه ، ويرفع يديه بالتحية ، أن زكى مراد يموت ولا يخنع ملابسه العسكرية ، ولا يستسـلم لضابط برتبـة بريجادير ٠٠

وهكذا بدأت المعركة فى أول لحظات الصباح ٠ ورغم البرد الشديد والجوع والقذائف التى صبها الانجليز على مبنى المحافظة ، فقد استبسل العساكر فى الدفاع عن أنفسهم ، وضاعت كل محاولات الانجليز لاقتحام المحافظة عنوة ، كانت كل موجة تحاول الاقتحام تتكسر على صخور بلوكات النظـام ، والنـاس الذين هزتهم القذائف وأيقظتهم من النوم ، وانطلقوا الى الشارع بالفئوس والعصى والسلاح يشدون أزر عساكر البوليس على قدر المستطاع وجنود فتحى بذير الذين فقدوا قائدهم ألقوا بأنفسهم الى المعركة واستطاع بعضهم تسلق أسوار المحافظة من الخلف والانضمام الى عساكر البوليس ، وخلق آخرون فزعوا فانطلقوا على وجوههم فى الصحراء يطلبون النجاة بكل الوسائل وبأى الوسائل !

وكان الانجليز حتى الظهر لم يستخدموا فى المعركة الا مدافع الهاون والرشاشات ، والقنابل اليدوية ، والبنادق السريعـة الطلقات ، وكان قائدهم قد قدر الموقف على أسـاس أن جنود

انبلوكات سيرفعون أيديهم مستسلمين فى اللحظة الاولى للقتال ولكن عندمابدا له انهشىء كالمستحيل أنيقتحم المحافظة بالاسلحة التى اختارها للقتال ، عدل عن رأيه ، واتجهت مدافـع الميدان الضخمة نحو المحافظة ، وتحركت الدبابات بسرعة تدك جدران المبنى الآيل للسقوط ، والذى بناه الخديوى اسماعيل منذ قرن من الزمان لينزل فيه الضيوف العظام الذين جاءوا لحضور احتفالات افتتاح القناة ! ولم تكد تمضى ساعة حتى كانت المحافظة مجرد أنقاض ، أكوام من التراب والأحجار اختلطت بالعظام المسحوقة ، والدم المراق ، وخرج اللواء زكى مراد ، من بين الحطام فى الرابعة بعد الظهر تماما ، ويداه فوق رأسه ، وقد بذل مجهودا كبيرا ، لتبدو سترته العسكرية على خير وجه ، نفض التراب والغبار عنها وشدها الى أسفل ، وأصلح من شأن نياشينه وتيجانه ، وحرص على أن يمسحها بمنديله وقد بلله بلعابه ، لتبدو براقة لامعـة كالعهد بها على الدوام ، ونقلته سيارة بريطانية الى المعسكرات ، بينما راح طابور الأسرى من العساكر يزحفون على الطـريق الأسفلت وقد خلع الانجليز ملابسهم وأحذيتهم وربطوهم بالحبال وجروهم كالعبيد الى معسكر الاسماعيلية عبر رحلة من الشقاء والآلام طولها خمسة كيلو مترات ..

وفى نفس اللحظة التى وصل فيها طابور العساكر الى المعسكر ، كان فتحى بدير يدعك عينيه ليتبين مكانه فى ظلام الكهف الذى فر اليه فى الصحراء فى نفس اللحظة التى بدأ فيها القتال . وعندما اطمأن الى أن كل شىء على مايرام ، دس يده فى ملابسه وانتزع الشيك وراح يتحسسه فى لذة . ثم اندفع خارجا من الكهف ، الى المدينة التى سادها الظلام ..

النهـــاية

ما أعمق التغيير الذى حدث للمدينة خلال الليل ، والاسماعيلية التى كانت تغلى ليلة أمس ، طلع عليها النهـــار وهى هامدة ، أنقاض البيوت تسد المنافذ . وجثث القتلى تزحم الطـــرقات ، والأحياء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم فى الشـــوارع ، لايسيرون كما يسير الاحياء عادة ، ولكنهم يزحفون ، الوجـــوه شاحبة والعيون زائغة ، كأنهم نزلاء مستشفى للمجاذيب فروا منها خلال المعركة ، يبدو أن أحدا فى المدينة لم يكن يصدق أن الانجليز يضربون المدينة بالمدافع الثقيلة ويقتحمـــون العشـــش بالدبابات ، ويحاربون عساكر البوليس بطائرات نفاثة .

ولكن الشيء الذى لم يكن يصدقه أحد حدث بالفعل ، ها هم الانجليز فى كل شبر ، فى كل ركن ، والمحافظة خالية ، ليس فيها عساكر ، وليس فيها محافظ ، ليس فيها شيء الا أحجـــار طحنتها الدبابات وعظام سحقتها القنابل !

ومن أكوام التراب والرماد ، ووسط دخان المعركة ، كانت تندفع سيارات الاسعاف الى المستشفى المركزى تحمل القتـــلى

والجرحى • القتلى أمرهم هين ، ولكن المصيبةالكبرى التىواجهت المستشفى •• هم الجرحى ، ان مستشفى الاسماعيليـــة كأى مستشفى فى الاقاليم لم تكن سوى مجرد ديكور !! أقصى جهدها أن تواجه بجريح واحد ، ولكن مئات الجرحى ؟ هــذا هو الشىء الذى لميكن فىالحسبان ! لم يكنفىالحسبان رغمالمعركةالمستمرة منذ شهور ! والرصاص الشارد فى جو المدينة منذ أسابيع !

ليس الناس فىالمدينةفقط هم الذينكانوا لايتوقعون، نث! الحكومة التى بدأت المعركة مع الانجليزكانت لاتصدق أيضا ، ان المعركة مجرد هزار ، والانجليز ليسوا قساة القلوب الى الدرجة التى يمكن أن يحاربوا بها الناس بمدافع ثقيلة ودبابات ضخمة، غاية الامر قتيل أو قتيلان ، وجريح أو عشرة ، ثم يرتدىالفريقان رداء السهرة ، ويجلسونعلى مائدةمستديرة أو مائدة ذاتأضلاع فى فندق كبير ، يرتشفون أقداح الويسكى ويبحثون الامر بعيدا عن صخب الجماهير •• حتى الدكتور العجوز مدير المستشفى لم يكن يصدق ، طلب مرة من الوزارة أدوية لمواجهـــة الموقف فى المدينة ، ولكنه لم يتلق جوابا ، ونسى الامر هو الآخر فلميكرر الطلب ولم يلح فيه ! وها هى المصيبة أمامه تتسع كجرح خبيث لايريد أن يطيب •

وفى الردهة الطويلة وبين عشرات الجثث التى فارقتها الحياة وعشرات أخرى لاتزال تنبض فى ضعف شـديد وقف الدكتور العجوز يلطم على خديه ، وماذا يستطيع أن يفعله الا اللطم عـلى الخدود ، ثم البكاء ، نعم ، بكى الدكتور العجوز كالنساء ثم أغمى عليه ، لقد أصبح الآخر فى حاجة الى اسعاف ، والاطباء الآخرون يصارعون الموت بلا جدوى ، وبعضهم انطلق يجرى فى الطرقات بحثا عن دواء ••

كانت سيارات النقل الضخمة لاتزال تتوافد على باب المستشفى

تحمل الجرحى والقتلى عندما توقفت أمام الباب الخلفى عربة كارو عتيقة تحمل سبعة من الجرحى ٠٠ وترجل منها أفندى ضئيل وقف يصرخ أمام الباب طالبا المساعدة ، ولم يلبث أن التف حوله خلق كثيرون تعاونوا فى نقل الجرحى الى الداخل ، بينما وقف الأفندى العجوز يشرف بنفسه على عمليات النقل ، وصوته المسرسع يوزع التعليمات والارشادات على الجميع ، ولم يكن الافندى الضئيل صاحب الصوت المسرسع سوى الطبيب البيطرى العجوز الذى استعانت به ريتا ذات مساء بعيد لعلاج حمودة ، وكان الرجل قد قضى أياما طويلة فى أسر الهجانة فى الصحراء ، ثم أطلقوا سراحه يوم المعركة ، فقد مات الهجانة جميعا ، قتلهم الانجليز ، اذ صادفوهم فى طريقهم الى الاسماعيلية فتخلصوا منهم حتى يأمنوا ظهورهم ، لم يكن الهجانة فى نظر الانجليز سوى قوة مسلحة يجب القضاء عليها قبل بدء المعركة فى المدينة ٠

وفوجىء الرجل عند دخوله المدينة ليلا بالمدافع تنطلق والدبابات تقتحم البيوت ، فاختفى فى بيت منعزل حتى هدأت المعركة ، ثم انطلق خارجا يبحث بين الانقاض وأكوام التراب عن جرحى يطلبون المعونة ٠

وعندما انهارت قوته تماما ، حمل جرحاه على عربة كارو الى المستشفى ٠ ولكن حالة المستشفى صدمت الطبيب البيطرى العجوز فوقف يصرخ بأعلى صوته ولكن صراخه تبدد فى الزحام والصخب الشديد ، ولكن الطبيب لم يهدأ حتى لمح فتاة صغيرة تزحف نحوه فى جهد شديد ، صفراء كالليمونة ، مجهدة كأعرابى ضل الطريق ، ولم تكن الفتاة الصغيرة سوى فوزية ، وهتف الدكتور فى وهن شديد :

ـ فوزية ! ٠٠

وابتسمت فوزية ولم تتكلم ، وقال الطبيب وهو يربت على كتفها فى حنان شديد كأنه لا يصدق عينيه :

ـ مالك يافوزية ؟

ـ ولا حاجة .. بس باشتغل فى المستشفى طوال الليل والنهار ..

ـ مافيش أدوية كفاية ؟

ـ لا مافيش ..

ـ والعمل ؟ ..

ـ أنا فكرت فى طريقة كويسة ، خليك هنا لحد مارجع .

وتسللت فوزية وسط الزحام الى الخارج ، وانتقت من الجموع الكثيرة التى تزحم المستشفى عشرة رجال وتقدمتهم الى الشارع .

ان المدينة زاخرة بالادوية فى المخازن المغلقة ، ليس هناك من وسيلة الا اقتحام هذه المخازن والحصول على الادوية مهما كان الثمن ، عملية سطو ، نعم ، ولكن ماذا يهم ، ان كل لحظة تمر يموت فيها عشرات الناس ، وأصحاب الصيدليات أغلقوها بالضبة والمفتاح وهجروا المدينة فى الفجر . وانهالت الفئوس الضخمة تحطم المخازن ، والأيدى الخشنة تستولى على كل شىء ، والرجال المجهدون يحملونها فوق ظهورهم الى المستشفى .. ورغم الزحام الشديد ، والفوضى التى لا حد لها ، لم تمتد يد الى شىء ، كل مافى المخازن من أدوية وصلت الى المستشفى ، خزانة النقود لم يفتحها أحد ، لم تمسها يد ، الناس تغيروا كأنهم يواجهون يوم القيامة .

ومن الذى لم يتغير ، فوزية تغيرت هى الاخرى ، ولدت من جديد ليلة الامس . كان يدا عملاقة قد امتدت الى أعماق نفسها وجذبت من قاع القاع أحسن وأعظم صفاتها ، والصفات التى كانت قد رسبت فى القاع بعد أيام حافلة قضتها فى مركز

بوليس الهجانة بالصحراء • وعلى ضوء النار التى اشتعلت فى المدينه اكتشفت فوزية انها لم تخسر كثيرا ، بعض الناس هنا فقدوا أرواحهم وفوزية خسرت ••• خسرت ماذا ؟ ••• شيئا ثمينا لاشك ، ولكن بالوسيلة التى ضاع بها ، يصبح هذا الشىء أثمن ، العساكر الهجانه هم الذين ستولوا عليه •• ولكن الهجانه مجرد ظل ، مجرد خيال ، الفاعل الاصلى هم الانجليز ، الذين دكوا المدينة وأشعلوا فيها النار ، وعندما تعيش فى بلد يحكمها سيد غريب وافد من وراء البحار ، تصبح بلا قيمة وبلا كرامة، وبلا ثمن على الاطلاق •

الهجانة الغلابة ماتوا أيضا فى المعركة • عندما تنشب المعركة لايفرق الانجليز بين الاعداء والاصدقاء ، كل من يختلف عنهم فى اللون عدو ! فوزية والهجانة لم يفهموا هذا من البداية ، لقد ماتوا جميعا فى منفاهم الاختيارى بالصحراء ، فى نفس المكان الذى ارتكبوا فيه جريمتهم ضد فوزية من أجل الانجليز، والأيدى الخشنة الغليظة لاتزال تهوى بالفئوس وتحطم أبواب المخازن ،

والأدوية تتسلل من بين الانقاض فوق ظهور الناس الى المستشفى •• لابد أن الجرحى فى حاجة اليها • وتجرى فوزية بأقصى ماتستطيع الى هناك ، الاطباء الذين تفرق شملهم عادوا ، والجرحى خفت حدة صرخاتهم ، ومدير المستشفى أفاق من الاغماء ، والطبيب البيطرى العجوز ينحنى على جريح فى الصالة ، وتقدمت فوزية من الطبيب

وانحنت الى جواره ، غريبة ، هذا الجريح شكله مالوف ، لقد رأته فوزية من قبل أين ؟ لاتدرى أين ! أكان فردا فى الكتيبة ؟ كان من رجال حمودة أو فتحى بدير ؟ وامتدت يدها الى جيب الجريح وانتزعت منه بطاقة ، لقد عرفت الآن ، على جبران ضابط مباحث الاسماعيلية الذى استدرج حسين الى المحافظة، ثم استدرجه الى القاهرة ! لو أن حسين كان هنا الآن ! من يدرى ؟ ربما تغير الموقف قليلا ، ربما لم يكن على جبران بين الجرحى ، وانتبهت

فوزية على يد الطبيب تلكزها بشدة ، انه يطلب ماء ساخنا على وجه السرعة ، ونهضت فوزية من مكانها ، والبطاقة فى يدها ، ووسط الحشود التى تملؤها ردهات المستشفى راحت تشـق طريقها فى صعوبة ولكن أنفاسها بدأت تضيق ، صدرها ينقبض ، وساقاها لم تعو-اتقويان على السير ، ويداها ترتعشان ، وأصابعها تنفرد فى ضعف بالغ ، ونظراتها ليست ثابتة ، والجمـوع من حولها تلتحم ثم تفترق ثم تعود الى الالتحام ، والجـدران تهتز ، والارض تهتز ، وكل شىء يهتز ويميل ويدور ، وتميل فوزية على الجدران تريد أن تستند ٠٠ ولكنها لاتستطيع ٠٠ وانزلقت بطاقة على جبران من بين أصابعها على الارض ، ثم أنزلقت هى نفسها على بلاط الردهة !

***

لم تكد القاهرة تستيقظ حتى لفظت البيوت جموع الناس كما هى العادة كل صباح ، ولكن هذا الصباح كان يختلف كثيرا ، الجموع لاتتجه الى المدارس ، ولا الى المكاتب ، ولا الى المصانع ، الناس تتجمع فى الميادين ، وفى فناء الجامعة ،، والجموع كلها راحت على غير اتفاق تصرخ تطالب بالسلاح وبالثأر ، وبالرغم من الهدير الذى راح يهز جنبات المدينة ، والملايين التى خرجت الى الشوارع تحجب ضوء الشمس ، كان حسين يقبع فى مكانه هادئا فى انتظار عسكرى البوليس الذى يمر عليه كل صباح ليتأكد من انه لم يغادر البيت الى مكان آخر ، ولكن الساعات راحت تمر دون أن يحضر عسكرى البوليس ٠ وعندما انتصف النهار أحس حسين أن فى الامر شيئا ، فارتدى ملابسه على عجل ، وخرج يجرى الى الشارع ٠ ووقف فى ميدان الجيزة يرقب بفرح شديد ، جمـوع الناس تزحف كالجراد وتصرخ فى صوت كالرعد ! هاهى الجموع المتهافتة المتهالكة دبت فيها الحياة فجأة ، ولا أحد على وجه الارض يستطيع أن يوقف زحف هذه الجموع ، أو يهدىء مـــن ثورتها ،

لا أحد ، لا أحد ! وها هى النار تسرى من الجموع اليه ، فتشده اليهم ، وتحمله على الاعناق ، انه يهتف بقوة ، لا أحد بين هؤلاء الناس اكتوى بنار المعركة مثله ، لا أحد خاض التجـربة مثله ، لا أحد خدع مثله ٠ ولكن لايهم ، ان الفرصة لم تفت ، الفرصة لاتزال سانحة ، ويبدو أن الامور تتطـــور الى أحسن ، فها هى الجموع الثائرة تمضى الى غايتها دون مقاومة ، ليس فى الشارع كله أثر لعسكرى بوليس واحد ، لا العساكر خلف الجموع تهتف هى الاخرى وتتظاهر ، الحكومة عادت لرشدها ، ولأول مرة عساكر الحكومة مع الشعب فى معركة لأول مرة ! واندفع الطابور الذى لاينتهى من كوبرى قصر النيل الى ميدان قصر النيل الى شوارع المدينة ! وها هو النهار ينتصف ، وحسين يصرخ فوق الاكتاف ، والجموع تصرخ تهز جدران البيوت ، وتماثيل الأسلاف ، والوقت يمر ببطء ، والطابور الطويل انقطع ذيله ، ثم انقطعت رأسه ، تسلل الناس الى الشوارع الخلفية ، ولكن حســين لايزال عـلى الأكتاف ، والناس الذين ظلوا فى الطابور لايزالون يصرخون ، ولكن رائحة خبيثة تنتشر فى الجو ، وشىء ما يلون السماء بلون قاتم انه الدخان ، والرائحة تنبعث من ألسنة النار ، ان المدينة تحترق ، انها مؤامرة ولكن من الذى يسمع ؟ ان الذين أشعلوا النار عن عمد تسللوا فى الخفاء واندفع السذج والطيبون يلهون بالحرائق كما يلهو الاطفال ، المدينة جنت فجأة ، والنار تسرى فى سرعة الرياح ، وعساكر البوليس لا أثر لهم ، حتى الذين كانوا فى ذيل المظاهرة اختفوا فجأة ٠ ولكن ماذا يفعل حسين ، ان السكون جريمة ، ومحاولة انهاء الحريق بحفنة تراب جنون ، والناس تصرخ فى الشوارع ، الجثث التى تحولت الى لون الفحم تتناثر أجزاؤها على الأرصفة وفى عرض الطريق ، ياأيها الناس ، يا أيها الناس ، لا أحد يستمع ، لا أحد يهتم ، الــكل يجرى ، بعضهم يجرى نحو النار ، وبعضهم يجرى من النار ، ويا أيهـا الناس ، انها مؤامرة ، انها مؤامرة ٠٠ ولكن لا أحد يعيره أذنا ،

لا أحد يلتفت اليه ، هاهو الفندق الكبير يتصدع ، يتهاوى ، كأنه تل صغير من الرمال عبثت به يد غليظة ، الناس تجـرى وسط ألسنة اللهب عرايا لايستر أجسامهم شىء ، الفزع فى كل مكان ، على كل وجه ، خلف كل حركة ، الفزع هو زعيم الاغلبية فى المدينة ، ويا أيها الناس ٠٠ لا أحد يستمع ، لا أحـد يلتفت، المؤامرة تتم ، النار فى لون وجه القائد اكسهام ، النار ليست سمراء ، ليست مصرية ، النار ليست من هنا ، النار مستوردة ٠٠ النار مثل جنود الاحتلال من بلاد بعيدة عبر البحار ٠

هذا وجه يعرفه بين النار ، هذا وجه مألوف لديه ، انه يصرخ، النار تحاصره ، النار تأكله ، فليندفع بكل قواه ،عظيم ، ان النار لم تأكله ، امتدت الى بعض جلده فشوهته قليلا ، ولـكن وجهه رغم التشويه لايزال مألوفا لديه ، ياالله انه حمزة بك عبدالمقصود نائب الاسماعيلية كان هنا فى القاهرة عندما كانت النار تأكل المدينة التى يمثلها ، وتأكل الناس الذين انتخبوه ، وحمزة بك غائب عن الوعى ، حمزة بك لايرد ، ولا يرى ٠٠ لقد مضت عربة الاسعاف بحمزة بك ، وحسين لايزال مكانه ، الدخان حجب عنه كل شىء ، صوت تداعى الجدران يشبه صوت فرقعة القنابل ، كأنه الآن فى ميناء أبو سلطان ، والبحر هائج ، والرصاص يتجاوب صداه فى الفضاء البعيد ، أرصفة الميناء تتكسر وهى تتهاوى فى الاعماق ، والجنود الموزيشان يطلقون النار ، وزوارق الطوربيد تقتحم المعركة ، والقارب ينقلب والرفاص الوحش يقتحم الميناء، هاهى ذراع القبطان تمتد اليه تنشله من بين الامواج ، ياله من قبطان طيب ، شجاع لايكف لحظة عن عب الخمـر ، ولايتوقف لسانه عن سب الدين ، ولكن القبطان مات ، والرفاص الوحش غرق فى الميناء ، وفوزية ، وعلى جبران ، وحمـودة ، وحلمى ، وفتحى بدير ٠

وهاهى أصوات الطلقات من جديد ، ولكنه لم يعد يرى، الدخان

لابد أنه كثيف على نحو رهيب ، ولكنه لايرى حتى ولا الدخان ، والبرودة تسرى فى جسمه ، انه جريح ، انه فاقد الوعى ،وهاهم عساكر البوليس يظهرون ، ومعالم الشارع لايبين منها شىء ،

ليس بسبب الدخان ، ولكن بسبب الليل ، الليل حل على المدينة وطلقات النار تعوى كالكلاب الجائعة ، وعساكر البوليس يحملون حسين على الاكتاف الى عربة ، والعربة تنطلق الى بعيـــد ، الى المستشفى ؟ لا الى السجن . ان حسين مجرم ، وهو الذى أحرق القاهرة !

والعاصمة تلعق جراحها فى صمت .. وظلام الزنزانة يشبه ظلام ليلة الحريق .. وصور صاحب الجلالة تزين الصـــفحات الاولى من صحف الصباح . وهاهى الوجوه الجديدة التى احتلت مقاعد الحكم، ثمانية عشر وجها غليظا ، الطرابيش معووجة على رءوسهم، والنياشين ثابتة على صدورهم ثبوت المؤامرة ! وهذا الوجه !حمزة بك عبد المقصود ، انه وزير الخارجية ، الانجليز اذن تولوا الحكم، وجورج الخامس سيفاوض جورج الخامس ولكن فى عصر جديد ! وسنفاوض الانجليز وبنادقنا فى أيدينا ، ومطلب الشعب هو الجلاء التام أو الموت الزؤام ! كلمات من نار لمعالى وزير الخارجية ، انتهت اللعبة اذن ، وجاء حمزة بك لينفذ أسلوبه، مناوشات مع الانجليز ثم التفاوض ، وفى كل خطوة يكسب شيئا من الانجليز ، وبقية حديث حمزة بك عن الشهداء ، سيصرف عشرة جنيهات .. مائة ألف ، ماأرخص الاستشهاد، ولكن الى أين ،الى أين ؟ وجاءه صوت الجاويش الذى فتح الباب دون أن يدرى ..

ـ الى المحكمة ..

لقد قام ميزان العدل اذن ليقتص من المجرمين ، والمجـــرم الوحيد هو حسين ، سحزون رأسه أيضا ثمنا لجريمته .. كان المعتوه يظن أن المعركة حقيقية .. أخذ المسألة مأخذ الجد ، انه ليس متلائما مع الوضع ، انه مجنون ، والبقاء دائما للاصلح ، والأصلح

هو الأنسب ، حسين ليس صالحا للحياة ، لانه غير مناسب للجو، من قال أن المعركة لم تكن مفيدة ، لقد مات بعض المجانين ، وكل المجانين ضمتهم جدران السجن ، وحمزة بك فى الوزارة ،وجلالة الملك كان هو الفدائى الاول ، هذه هى الحقيقة تنشر لأول مرة فى حلقات على الناس ، كيف رفع سماعة التليفون ، والدموع فى عينيه ، والتهدج فى صوته ، كيف صرح فى جزع شديد ، ليت لي ولد ليحارب فى القنال ، ولكن الاقدار شاءت أن تحرمنى هذا الشرف ، اليكم اذن نقودى ، اليكم خزائنى ،حاربوا الانجليز وسأدفع الثمن ! يالها من أسرار عجيبة ، والناس تقرأ القصة كل صباح ، تصدق أو لاتصدق ، ماذا يهم ؟! المهم انهم يذهبون الى المصانع والمكاتب كل صباح ، ويعودون الى البيوت كل مساء، وينامون من المغرب ، والعساكر تحرس كل شيء ، وتتحفظ على كل شيء ، ما أعظم الحياة فى هدوء الآن ٠٠ لا صيحات ولا اضرابات والحكم عاد الى أيدى أصحابه ، انهزم الغوغاء ، وانتصر العدل !

***

ولكن أين فتحى بدير ، الشيك لايزال بين طيات ملابسه ، انه فى الاسماعيلية يرقب تطورات الحال فى حذر ٠٠ نفسه أكثر هدوءا ، فقد ماتت زتيبة ، ، صرعتها رصاصة طائشة وهي تحاول الهروب من المدينة فى الليل ، لقد شاهد جثتها بنفسه ، منتفخة زرقاء في المشرحة ٠٠ وحمزة بك فى الوزارة ، ولـكن ليست هناك أية اشارة على أنه ينوى الغدر به ٠ لقد خرج يسعى فى المدينة دون أن تمتد اليه يد ، لو كان حمزة بك ينوى الغدر به لقبض عليه البوليس ٠ ولكن البوليس قبض على كل الناس الا فتحى ، ليس هناك مايخشاه فتحى بدير ٠ ان حمزة بك رجل أعمال ناجح ، ولقد قتل له ريتا فدفع له الثمن ، صفقة دفع فيها حمزة بك ألف جنيه ، وماذا يهم ألف جنيه ، ان حمزة بك يملك مئات الالوف ،حمزة بك غني والاغنياء دائما أمناء ،ان

الله يعطيهم لهذا السبب ، انهم ليسوا غشاشين مثل فتحى ، ولا وحوش مثل حمودة ، وهو نفسه بعد أن يقبض الالف جنيه سيختفى عن طريق حمزة بك ، سيتوارى عن ناظريه ، سيبدأ حياته فى بلد بعيد ، سيحاول أن يجد نفسه من جديد ، لقد ضاع خلال السنين الطويلة التى عاشها على هذه الارض ، ولكن آن الأوان ليعثر على نفسه •• سينسى ماضيه ، سيجمعه ويحرقه، ويستقر • كم تستفزه نافذة مسدله الستائر يشع نورها الخافت! كم تستفزه ضحكة صافية تنطلق من صدر لم يعان المتاعب !كم تستفزه لمسة حب بريئة من قلب لم يعان الاحزان ، حياته هو كانت متاعب وأحزانا الا انه لم يهدأ لحظة ، يخيل اليه انه ولد واقفا ، وأن أحدا لم يحتضنه كبقية الاطفال ، انه لم يكن طفلا ، لقد ولد بشعر يشتعل شيبا ، ولم يكف لحظة عن الصراخ منذ جاء الى هذه الحياة !

ولكن بنك باركليز لم يفتح أبوابه بعد ، البنك لم يستأنف أعماله ، كل شيء عاد الى ماكان عليه الا البنك ،وفتحى بدير قلق أشد القلق على مصير البنك ، لو يستطيع فتحى أن يسأل عن مصير البنك ، ولكن من يسأل ؟ الانجليز ؟! انه لايجرؤ ولا يستطيع ، أهل المدينة ؟ ، ولكن من يدرى • قد يثير سؤاله الريبة • وعندئذ من يدرى ماذا يحدث له ؟!

ليس أمامه اذن الا الانتظار ، وانتظر فتحى أسبوعا ، وفتح البنك أبوابه ، هاهو توقيع فتحى بدير واضحا من ظهر الشيك ويد الموظف تمتد من خلال النافذة الضيقة ويدقق فى الشيك ويحدق فى وجه فتحى ، ويبتسم ويهز رأسه ، ويرجوه أن ينتظر لحظة ••

بعد لحظة ينتهى كل شيء ، سيحصل فتحى على الالف جنيه ، سيبدأ حياته بعد لحظة ، ولكن ماأروع الفارق بين حياته التى سيبدؤها وحياته التى سيودعها ! ها هو الشيك ينتقل

مع الساعى الى الداخل ٠٠ بعد لحظة سيتحول الشيك الى أوراق خضراء ، وقلب فتحى يدق بعنف ، انه لم يحمل فى جيبه أبدا هذا القدر من الاوراق الخضراء ، انه يخشى أن يتصرف بحمق ، عليه أن يزن خطواته وابتساماته ٠٠ ان بعض الناس تفقد عقولها فى مبلغ مثل هذا ، وعليه أن يحتفظ بعقله ليواجه حياته الجديدة ، انه بدون عقل لا يستطيع أن يفعل شيئا ولا بالوف الجنيهات !!

هاهى الاوراق الخضراء مع الموظف ، يد الموظف تعد على مهل ، مائة ، مائتين ، خمسمائة ، سبعمائة ٠٠ ألف ! وفتحى بدير يقبض عليها بكلتا يديه ، ولكن يد أخرى تشل يديه من الخلف وتجذبه بشدة الى خارج البنك ، وعلى الباب عربة تنتظر وفى العربة عساكر بوليس وضباط ٠٠ فعلها اذن حمزة بك ، فعلها ، ولكن لماذا فعلها حمزة بك ، لماذا!! انه سيفضحه ٠٠ سيقول كل شيء ، هو الذى حرضه على قتلها ، هو الذى دفع الثمن ٠٠

***

الآن انتهى كل شيء ، مضى أسبوعان على المحنة ، والهدوء يسيطر على كل شيء ٠ البلد تبدو كالسجن بعد لحظة التمام ٠ وفتحى بدير فى المحافظة لا أحد يدرى مصيره ، وحمودة مات ، قتله الانجليز ، وريتا مزقها رصاص فتحى بدير ، وحمزة بك فى الوزارة ، والانجليز لايزالون هنا ، والجو شديد البرودة ، ومحطة الاسماعيلية تضيق بالمسافرين ، بعد دقائق سيسافر أول قطار يغادر الاسماعيلية الى القاهرة منذ نشوب المعركة ، لا مكان لقدم على رصيف المحطة ، وأنا واقف أرتعد من البرد فى انتظار القطار ، والناس تتصرف كأن شيئا لم يحدث ، كأنهم لم يدخلوا معركة ، ولم يطلقوا رصاصة ، ولم يدفنوا فى التراب شهيدا قط !! والى جوارى كانت تقف حصاد المعركة ،

فوزية ساهمة تتدثر فى معطف قديم ، ونظراتى لا تتحول عن وجهها ، كم هى صغيرة ورقيقة وشاحبة ، وقطعنا المسافة الى القاهرة وقوفا على أقدامنا ، لقد تأخر القطار اللعين فى الطريق فوصل بعد التاسعة ·· والمدينة نائمة وهادئة وكان علينا أن نقضى ليلتنا على الرصيف ، ومن خلال القضبان الحديدية التى تلتقى حول المحطه ، القيت نظرة على الميدان ، كان مهجورا ولا أثر فيه لأحد · أحيانا ترتفع دقات غليظة ، وزعيق حاد ، ويبدو على الأثر فى ظلام الليل جندى متدثر فى بالطو ثقيل ، والسونكى يلمع فى طرف البندقية ، ثم لايلبث أن يعود الهدوء ويختفى الجندى فى ظلام ·· أى شىء جرى للمدينة حتى أصابها هذا التحول الخطير ؟ انها تبدو كمدينة مهزومة رغم أن الانجليز لم يهزموها ولم يدخلوها ·· لقد هزمها حمزة بك ، ودخلها بالنيابة عنهم ·· ودسست يدى فى جيبى وأخرجت رزمة أوراق ، ومزقتها فى عصبية دون أن ألقى عليها نظرة واحدة · لقد كانت تحمل أخبارا من الاسماعيلية لجريدتى ، أن الجريدة تطلب أخبارا ، لايهمها من المعركة الا الاخبار ! ولكن ماذاتفيد الاخبار ؟ هذه المدينة المسجونة ، أى شىء تجنيه من وراء نشر الاخبار ؟ انها ليست فى حاجة الى أخبار بقدرحاجتها الى رجل ، رجل واحد عملاق له قلب أسد ، وايمان نبى · المدينة المسجونة فى حاجة الى نبى ، يعيد نشر الطمأنينة فى القلوب الواجفة ، والايمان الى القلوب الضعيفة ··

وقالت فوزية وهى تزغدنى :

ـ حلمى ، الدنيا سودة كده ليه ؟

ونظرت الى فوزية ولم أجبها بشىء ، فقالت وهى ترفع رأسها الى الفضاء ··

ـ القمر لسه ماطلعش ، الدنيا كحـــل ياحلمى ، أنا قلبى مقبوض مش عارفه ليه !!

وضغطت على يدها فى حنان ·· وجذبتها نحـــوى فى ود ، وابتسمت فوزية فى براءة الطفل ، وألقت برأسها على صـــدرى وأغمضت عينيها فى استسلام لذيذ ·· ثم فتحت عينيهـــا من جديد وراحت تنظر فى السماء الواسعة تترقب ظهور القمر ··

« انتهت »

الكتـــاب الـذهبى

يصدر عن مؤسسة روز اليوسف
الاشـــــتراكات

مصر : ١٢٠ قرشا عن سنة ـ ٦٠ قرشا عن نصف سنة
الخارج : ١٨٠ قرشا عن سنة ـ ٩٠ قرشا عن نصف سنة
رئيسا التحرير المسـئولان : فتحى غانم ـ وجمال كامل

المدير العـام : عبد الغنى عبد الفتاح

الاعلانات يتفق عليها مع الادارة
٨٩ (أ) شارع قصر العينى ـ تليفونات : ٢٠٨٨٥ـ٢٠٨٨٦ ـ ٢٠٨٨٧ ـ ٢٠٨٨٨ ••

جميع الحوالات ترسل باسم « روز اليوسف »
بريد مجلس الأمة



طبعت بمطابع
مؤسسة روز اليوسف